حسن حسني عبد الوهاب

(1968_1884 / 1388_1301)

بقلم : الشاذلي بو يحيى

موت أعلام الفكر تورّ لأجسامهم ليس إلاّ بل ومن الناس من يدخل بوفاته حياة الخلود : يموت الفتى فتتجلّى للأنام فضائلة شاهدة مدى الأبد .

لم يكن حسن حسني عبد الوهاب كذلك إذ نال الخلود ولمّا تزل الحياة به حافلة . فلقد ظلّ القرن كلّه يأنس إلى نور نبراسه منذ أن اقتحم في ريعان شبابه – وهذا القرن طفل – عباب المؤتمرات العلميّة الدوليّة . تنشأ المجامع في الشرق فيكون من مؤسّسيها فيغار الغرب فتكتنفه مجامعه ومعاهده العتيقة . وفي ذلك رمز لحياة حسن حسني عبد الوهاب العلميّة : الأصالة في التراث القومي والتفتّح إلى العالم الغربيّ حتّى يصير من ورائهما عنوانا « للإنسانيّة » المطلقة بمفهوميها البشريّ والثقافيّ بل ومن وراء تلك المنزلة وبفضلها يسعى جهده في التأليف بين العالمين الشرقيّ والغربيّ في حضارتهما وثقافتهما وعلومهما . فأوّل بحث يصدر عنه لغته الفرنسيّة ّإلا أنّه في « الاستيلاء الإسلاميّ على صقلّيّة » . وكما أنّ قوميّته لا تمنع « إنسانيّته » فإن « الإنسانيّة » لا تنسيه

* توفي حسن حسني عبد الوهاب يوم 9 نوفمبر 1968 « بسلام بو » من ضواحي تونس ودفن بمقبرة الجلاز بتونس .

قوميّته بل ووطنيّته أيضا : فأوّل تأليف له في حضارة القيروان ، « بساطا » من « عقيق » لم تنل من جدّته الأحقاب إلى الآن . وأوّل نصّ حقّقه « رسائل الانتقاد » لأحد العلمَين الذين نعتقد أنّ تآليفهما جعلت النقد الأدبي عند العرب يصل إلى اكتماله في كنف ما سمّيناه « بمدرسة القيروان الأدبيّة » وهما ابن شرف وابن رشيق .

وتوالت مع الأيّام أبحاثه وتآليفه أصلها تونس والعربيّة والإسلام وفروعها منتشرة إلى حيث ينتشر العلم النزيه الهادف إلى العرفان المطلق .

وهكذا سنّ حسن حسني عبد الوهاب منذ أوّل محاولاته العلميّة الطريق التي ستبقى طريق حياته كلّها لن يحيد عنها قيد أنملة : عمل دائب مخلص لوطنه تونس وقوميّته العروبة وملّته الإسلام وجنسه الإنسانيّة لا يطغى الواحد منها على الآخر فينقصه حظّه بل لكلّ نصيبه من عطفه ونصيب كلّ منها هو الكلّ . ذلك لأنّ حسن حسني عبد الوهاب كان يدين بدين العلم والعلم جوهر وما سواه عرض وإن سما .

ولعلّ هذا هو السرّ في إرادته التطلّع في جميع أنواع العلم أو جلّها لأنّه لا يرى فضل واحد منها على الآخر بل ولا استغناء الواحد عن الآخر . ولعلّ في هذا جواب سؤال لم أنفكّ أتساءله مذ حظيت بمجالسة الشيخ الأستاذ من عشرين سنة خلت ورأيته ضاربا في كلّ ميدان بسهم : « ترى ما هو سبب ميله إلى الشمول دون التخصّص » ؟

وكما أنّ علمه في الشمول لا في التخصّص فإنّ عمله في العلم وللعلم كان هو الآخر يشمل شتّى الطرق من تدريس وتأليف ومحاضرة ومحادثة كما كانت وسائل استكشافه العلميّ وطرقه تعمّ ما يختصّ به عادة المتخصّصون : مطبوعات ومخطوطات وآثار وتحف ورحلة ومشاهدة ومشافهة واستنطاق ثم على كلّ ذلك يسلّط عقلا حصيفا وفطنة وقّادة وحدسا غريبا في نظر

فاحص يقظ فيخرج بعلم جمّ إلاّ أنّه صحيح . وتقرأ له أو تسمعه فتتساءل أهو المؤرّخ أم الفقيه أم الأديب أم اللّغويّ ... هو كلّ ذلك . هو الشيخ الأستاذ . هو العالم الكامل . العالم « الإنسانيّ » ، عبارات عرفنا مدلولها في غير عصرنا . فعبقريّة حسن حسني عبد الوهاب أن كان في عصرنا يجمع ما لا يتسنّى جمعه في عصرنا .

كذا كان حسن حسني عبد الوهاب . وكان غير هذا أيضا . لقد عرفه الناس أيضا نعم الجليس . عرفوه « بمجلسه » الحافل الأنيس بتونس ثم بضاحيتها « سلامبو » يؤمّونه كعبة للعلم ومشكاة للفكر وبقيّة فريدة من تلك « المجالس » التي كان يتصوّرها خيالنا من خلال روايات أبي حيّان وأمثاله إلاّ أنّنا حظينا وحظي خلق كثير من مشارق الأرض ومغاربها بحضورها والمشاركة فيها وكانت ـ ولا جزاف ـ مجالس إمتاع ومؤانسة .

فأين منّا اليوم ـ وقد مات حسن حسني عبد الوهاب ـ هاتيك المجالس ؟ من لتونس اليوم ـ وقد فضّ بموت حسن حسني عبد الوهاب آخر مجلس بها من مجالس العلم والإمتاع والمؤانسة ـ بقطب يجمع من حوله طلاّبا وهواة فينطق بصوت هادىء وديع فيجيب على السؤال ويدلّ على الطريق وينير السبيل فينبري من هناك أولو العزم شيوخا وشبّانا إلى البحث والتأليف يحملون من كنوز مكتبته ونور فكره وشاسع علمه وسديد هديه ما تساير تونس بثمرته ركب الحضارة والعلم ؟ لم يكن حسن حسني عبد الوهاب بعلمه وإنتاجه فحسب بل كان أيضا بوجوده بين ظهرانينا طودا شامخا في ذاته وإشعاعه . فلئن كان موت أعلام الفكر رزءا قد يهوّن من وطأته بقاء أثرهم بين الناس فمن لسدّ فراغ تركه حسن حسني عبد الوهاب بذهابه هوّة فاغرة ؟

الشاذلي بويحيى

مشاكل اللغة من خلال حياة حسن حسنى عبد الوهـاب واعمالـه بمجمع اللغـة العربيـة

بقلم : محمد رشاد الحمزاوي

يعتبر حسن حسني عبد الوهاب موسوعة علمية كيفتها ظروف عصره والتزمتها ثقافة زمانه . فأخذ من كل شيء بطرف وترك لنا آثارا عديدة يمكن أن يعنى به إختصاصيون كثيرون . فهو لم يعرف مؤرخا فحسب بل عرف رحالة وسياسيا وإداريا ولغويا مما تشهد عليه آثاره وأعماله . ولقد رأينا من الميفد أن نعتني في هذه المحاولة بجانب من حياته العلمية بمجمع اللغة العربية لإستقراء بعض مواقفه من مشاكل اللغة واستقصاء أثره فيها .

ولاشك أن عرض حياة مجمعينا وأثره يستلزمان سابق معرفة بحسن حسني عبد الوهاب ويستوجبان صلة إنسانية متينة به وذلك لتقدير مساهمته العلمية حق قدرها لاسيما وأنه عين عوضا عن غيره ممثلا لتونس في علمها وثقافتها بغية التعبير عن تصورها لوضع مشاكل اللغة واستنباط حلولها .

فهل يمكن لنا بعد أن فاتتنا تلك المعرفة وما تعتمده من صلة إنسانية ، أن نتحدث عن أثر حسن حسني عبد الوهاب ؟

لقد فاتنا الرجل لكن الحظ لم يحرمنا من الفوز بما له من الأثر الذي وجدناه أمامنا عندما أقبلنا على دراسة قضايا المصطلحات العلمية والفنية وما يتبعها من

مسائل لغوية في البلاد العربية عامة (1) وفي « مجمع اللغة العربية بالقاهرة » خاصة . ويعود الفضل الكبير في تكوينه في 13 ديسمبر 1932 إلى الملك أحمد فؤاد الذي عرف بحرصه على تشجيع كل مشروع يسعى إلى إلحاق العربية وعلومها بعلوم العصر والأخذ منها بقسط وافر، وبدعوته العازمة إلى إيقاظ علوم العربية من سباتها العميق ومما كان يحيط بها من نظريات عسيرة أو مترمتة راكدة كادت تأتي على جوهرها الماضي وتعرقل سيرها نحو خاق ثقافة عصرية تواكب مسيرة الإنسان في تقدمه وتجدده .

فجاء مرسوم المجمع ينص أن من أغراض المجمع « أن يحافظ على سلامة اللغة العربية وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر وذلك بأن يحدد في معاجم وتفاسير خاصة أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي إستعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب

ب — أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية وأن ينشر أبحاثا دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغيير مدلولها .

ج — أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

ع — أن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة العربية مما يعهد إليه بقرار من وزير المعارف (2) .

ويعني في هذه الفقرة الأخيرة مسائل عدة منها تيسير الكتابة العربية وقواعد النحو والصرف لاسيما بعض القواعد الإعرابية .

وللقيام بهذه الرسالة الخطيرة العصرية وجب أن يختار لها علماء ممن توفرت فيهم المعرفة الكاملة الواسعة بعلوم العربية وثقافتها وتفتحوا ولو ذهنيا على علوم

(1) أنظر بحثي عن المجمع العلمي العربي بدمشق — صدر بالفرنسية — مطبعة بريل . ليدن هولندا — 1964 .

(2) مرسوم إنشاء المجمع . ط وزارة المعارف العمومية بالقاهرة 1952 ص 11 .

وثقافة غيرها من اللغات الحية المتقدمة دون تقيد بجنسية أو عقيدة أو وطنية ضيقة مثلما تفتح أسلافنا العصريون في عصرهم فوسع صدر العربية الفارسي والنصراني واليهودي والهندي والعربي . لذا جاءت المادة الرابعة من مرسوم المجمع تنص .

« يؤلف المجمع من عشرين عضوا عاملا يختارون من غير تقيد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتجربتهم في اللغة العربية أو بإبحاثهم في فقه اللغة أو لهجاتها » (3) .

فكان من هؤلاء المختارين من عرب ومستشرقين ومن مسلمين ويهود ونصارى، حسن حسني عبد الوهاب الذي نريد أن نتحدث عنه وعن نشاطه بمجمع اللغة وعما حقق من أعمال تبرر اختياره كمجمعي وما تركه من أثر يشرف هذه التربة التي ينتسب إليها وبإسمها عين . ولا يخفى أن حديثنا هو في الحقيقة حديث إلى النفس لأننا كنّا نشعر بحرج لما أقبلنا على تحرير الفصل الخاص به في دراستنا . ويظهر ذلك الحرج عندما نعلم أن أبواب المجمع ظلت مغلقة في ذلك الوقت، لإعتبارات كثيرة، في وجه رجال من أمثال طه حسين ومحمد فريد وجدي وأحمد زكي وخليل جبران وعلماء وأدباء آخرين ممن رشحهم قراء جريدة الأهرام التي إستفتتهم إذاك في شأن من يستحق عضوية المجمع في مصر والعالم العربي (4) فكنا نخشى أن يكون تعيينه قد وقع لأسباب لاتمت إلى العلم بصلة لا سيما وأن أهل القيل والقال نشروا أن الفقيد مدين في تعيينه إلى معرفته بالنبيل الأنكليزي (D'ERLANGER) واضع تاريخ الموسيقى العربية المشهور وصديق الملك فؤاد . ولقد حرص ذلك الملك على إختيار أغلب المجمعيين الأول الذين عينوا للنظر في مسائل العربية واستنباط حلولها .

---

(3) نفس المرجع ص 12 .

(4) جريدة الأهرام . بتاريخ 31 اكتوبر1932

فكان لذلك الأقاويل أثر في نفسنا إن اعتبرنا أنه لم تصدر ترجمة عن الفقيد ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، تثبت لنا مؤهلاته . فرأينا في تلك الحالة أن نكتب إليه نسأله في رسالة أولى عن الأسباب التي أهلته إلى ذلك المنصب الخطير ، مشيرين إلى الأقاويل التي أوعزت إنتخابه إلى وجاهة (D'ERLANGER) وصداقة الملك فؤاد له . ولقد إستعملنا نفس الطريقة مع غيره من الأحياء من المجمعين الأولين لاسيما المجمعي المستشرق (H. GIBB) إذ إفترضنا – وذلك عن خطأ – أنه فاز بكرسيه عن تأثير إنكليزي على الحكومة المصرية انذاك .

لكننا لم نتلق من الفقيد ردا على رسالتنا ، الأمر الذي جعلنا نعتقد أن سكوته دليل قاطع على أنه أختير لأسباب ليست لها بالعلم صلة . على أن مطالعتنا لأعمال المجمع في مجلته ومحاضر جلساته وفي مصادر جديدة منها ما نشره مجمع اللغة في كتابه « المجمعيون » (5) جعلتنا نعود إلى مكاتبته طارحين عليه نفس الأسئلة التي طرحناها عليه سابقا . وإذا بنا نتصل منه بوثيقة بخط يده تحوي ثماني صفحات ، من المقطع الكبير ، يجيب فيها على أسئلتنا دون أن يعاتبنا عما جاء في رسالتنا من تعسف . فقال :

« وقبل الجواب عن السؤال أعلم بنوتكم الفاضلة أن منذ عام حصل إنحراف بمزاجي أقصاني عن مكتبتي التي بَقِيِّت بحضرة تونس والزمني الإقامة بصلامبو حيث الهواء الطلق المنعش وقد سرى هذا الإنحراف إلى هيكل التنفس مني فكاد يحرمني من الحركة والإنتقال . فصار سعي مقصورا على الجلوس والكتابة متى تيسر .

لم يبق شيء من الدنيا نُسَرّ به إلا الدفاتر فيها الشعر والسمرُ

(5) المجمعيون بقلم الدكتور محمد مهدي علام القاهرة 1966/1386 – حسن حسني عبد الوهاب ص 66–68 . أنظر رسالته المخطوطة المنشورة بعد هذا المقال .

ومهما يكن من أمر فإني سأحاول الجواب بقدر المستطاع مع الإعتذار عن التقصير فأقول وبالله التوفيق » (6) .

ويستحسن إعتمادا على ما جاء في رسالته وعلى ما عثرنا عليه من أثاره المجمعية أن نحصر حديثنا عنه وعن أثره المجمعي في العناصر التالية :

1) حياته وبيئة العلمية .

2) تراثه العلمي قبل أن يعين عضوا في المجمع .

3) أثره في مجمع اللغة الذي كان من أعضائه الأولين . وذلك لإبراز أعماله العلمية التي أهلته لعضوية المجمع وللتأكيد على ما ترك من أثر يبرّز مهمته المجمعية .

إن المهم من حياته هو أنه نشأ في أسرة ذات يسر ووجاهة تنتسب إلى العلم بأكثر من سبب . فهو ينسب إلى جده عبد الوهاب بن يوسف الصمادحي التميمي الذي كان يتولى شؤون الحرس الأهلي للبلاد (وهم الحوانب) ويترأس التشريفات في مدة البايات الحسينيين . وهو ينتسب عن طريق جده إلى بني صمادح من ملوك الطوائف الأندلسيين الذين آزدهرت في عهدهم العلوم والآداب كما يروي ذلك آبن الخطيب في أعمال الأعلام وآبن بسام في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

وهو ينتسب عن طريق أمه حنيفة إلى علي بن مصطفى آغة قيصرلي أحد كبار أعوان خير الدين باشا الذي كان له الفضل في تأسيس خزانة المخطوطات التونسية التي أشرف عليها الفقيد سنة 1920 .

أما والده صالح بن عبد الوهاب فإنه إمتاز بثلاثة مميزات سيكون لها أثر في حياة الفقيد :

1) إتقانه العربية وتعلقه بالحضارة الإسلامية وثقافتها .

---

(6) الرسالة المخطوطة ص 1 سطر 4–8 .

2) دراسته اللغة الفرنسية الذي تعلمها بمعهد الرهبان الواقع في نهج جامع الزيتونة .

ولقد أهلته تلك المعرفة إلى الإلتحاق بمكتب وزير خارجية الدولة التونسية الفريق حسين .

فيقول فيه الفقيد : « وصار الوالد يصاحبه كمترجم في السفارات المتنقلة التي كانت ترسلها الدولة التونسية إلى أوروبا كلما حصل خلاف مع الممالك الإفرنجية (إيطاليا قبل الوحدة وفرانسا وانكلترا وغيرها) في عصر كانت رحلة التونسيين إلى تلك الاصقاع قليلة جدا من 1868 إلى 1880 » (7) . فنحا الفقيد نحو والده إذ تعلم الفرنسية بأول مكتب لاتيني بتونس كان يوجد بنهج السويد ثم إلتحق بالمدرسة الصادقية فتعلم العربية وأتقن الترجمة ثم سافر إلى باريس فالتحق بمدرسة العلوم السياسية (Ecole des Sciences Economiques) حيث تتلمذ على أستاتذة كثيرين منهم (De Monteil) كما حضر محاضرات الحكيم شاركو (D.R. Charcot) في تحليل الأخلاق والطبائع والنحائز (7) .

وتقلب مثل جده ووالده في مناصب إدارية عدة منها منصب وزير القلم سنة 1943 فكان من مشمولاته إدارة الشؤون الداخلية للبلاد والقيام بتحرير المهم من المكاتيب الدولية ومخاطبة ملوك الخارج .

3) الشغف بعلم التاريخ وقد وضع والده تأليفا في أخبار المغرب الأقصى لم يطبع بعد . فنسج الفقيد على منواله (والعرق دساس كما جاء في الحديث النبوي) وكما يقول الفقيد . فأهله ذلك لتدريس التاريخ العام والتونسي خاصة في المدرسة الخلدونية من سنة 1905 إلى 1924 بعد المرحوم البشير صفر ، كما درس التاريخ الإسلامي في المدرسة العليا للغة والاداب العربية بسوق العطارين من سنة 1913 إلى 1924 .

(7) الرسالة المخطوطة ص 1 .

فكان لهذا التكوين وهذه التجربة وهذه الثقافة المزدوجة أثرها في تفتحه على العالم واضطلاعه بتمثيل تونس في محافل العلم والمعرفة. فمثلها في أغلب مؤتمرات المستشرقين إبتداء من 1905 بعاصمة الجزائر حيث قدم بحثا عن « الاستيلاء العربي على صقلية »، فكانت فرصة للتعرف على عدد من كبار العلماء من عرب وعجم منهم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني المصري، والشيخ عبد العزيز شاويش التونسي الأصل، وجوج براون المستشرق الأنكليزي (G. Brown)، والمستشرقين الألمانيين (Noldeke و Vollers) والمستشرقين الاسبانيين (M. Acin Palacios و Ribera) والمستشرق الفرنسي (L. Massignon) ومحمد بن شنب العالم الجزائري. فكان لقاءه بهم لقاء علم وتجارب أردفه بلقاءات أخرى سنة 1908 في مؤتمر كبنهاغن. فتعرف فيه على المستشرق المشهور (Goldziher) كما تعرف على الأبوين اليسوعيين لويس شيخو ولامانس (Lammens ; L. Cheikho). وكان له معهما جدال يقول فيه « وتجاسرا بالطعن على صاحب الشريعة الإسلامية » فترك بحثه الذي أعده بالفرنسية والذي نشر سنة 1917 بتونس وتولى معارضتهما فكانت لذلك حسب رسالته « رنة كبيرة بين المؤتمرين وتأييد من جانب عظيم منهم » (8) لاسيما وأنه كان المسلم الوحيد الذي حضر ذلك المؤتمر.

وفيما بعد شارك بالتوالي في مؤتمر المستشرقين الفرنسيين سنة 1922،

ثم بمؤتمر الرباط سنة 1927 ثم مثّل تونس في مؤتمر الموسيقى الشرقية المنعقد بالقاهرة في أفريل سنة 1932، أي السنة التي عينه فيها الملك فؤاد عضوا بمجمع اللغة. وهنا تجدر الملاحظة أنه سبق له أن تعرف على الملك فؤاد عندما كان أميرا وذلك بنابلي في صائفة 1914 فكان يصفه بالذكاء وسعة الثقافة والتفتح على مشاكل عصره فقال فيه: « وكان يحسن اللغة الإيطالية كأحد أبنائها (9) كذا اللسان الفرنسي مع نبرة إيطالية واضحة للسامع » (10).

(8) الرسالة المخطوطة ص 4.
(9) نفس المرجع ص 4.
(10) الرسالة المخطوطة ص 4.

ولايسعنا في تعداد تفتح فقيدنا على العوالم الأخرى وثقافاتها إلا أن نشير إلى أن مؤهلاته العلمية قد فتحت له قبل أن يصبح عضوا بمجمع اللغة العربية أبواب المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه سنة 1919 . وفتحت في وجهه أبواب مجامع أخرى منها المجمع العلمي العراقي والمجمع الفرنسي للنقائش والفنون الجميلة منذ 1939 والمعهد المصري « Institut d'Egypte » الذي أسسه نابليون وتأثر به مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ودعاه المجمع العلمي الروسي فكانت له فرصة لزيارة بلاد الروس لاسيما الإسلامية منها فقال عنها : « مررت علاوة على موسكو وضواحيها بجمهورية الازبكستان – تاشقند وهي بلاد الشاس قديما – وسمرقند حيث ضريح الصحابي الفاتح قُثْم بن العباس بن عبد المطلب إبن عم الرسول وبخاري حيث ضريح الامام محمد بن إسماعيل البخاري » (11).

أما تراثه العلمي فيحسن بنا أن نذكره أن إعتبرنا أن تعيين الأعضاء بالمجمع كان يستلزم أن يكون العضو أهلا للمنصب الذي من أجله عين أو أنتخب ولقد ألف الفقيد قبل أن يدخل المجمع ما يلي :

1 – المؤلفات باللغة العربية

« المنتخب المدرسي في الأدب التونسي » ط أولى بتونس 1908 .

« بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها إبن رشيق » ط بتونس 1912 .

« خلاصة تاريخ تونس » ط أولى 1918 .

« الإرشاد إلى قواعد الإقتصاد » ط تونس 1919 .

« شهيرات التونسيات » ط تونس » 1934 .

---

(11) الرسالة المخطوطة ص 6 .

2 — نشريات محققة

« أعمال الأعلام (قسم تاريخ إفريقية وصقلية) لإبن الخطيب التونسي بلرمو 1910 .

« رسائل الإنتقاد (مقالات في النقد الأدبي) لمحمد بن شرف القيرواني » دمشق 1912 .

« مَلْقَى السبيل (في الوعظ والحكم) لأبي العلاء المعري » دمشق 1922

« وصف إفريقية والأندلس » لإبن فضل الله العمري—ط تونس 1920 .

« كتاب يفعول » (بحث لغوي) ط تونس 1924 .

« التبصّر بالتجارة للجاحظ » دمشق 1933 ومصر 1935 ، بيروت 1966 .

— الجُمَانة في إزالة الرطانة (في لهجتي الأندلس وتونس) لمهجول ط المعهد العلمي المصري (Institut d'Egypte) .

— « آداب المعلمين » ممادون محمد بن سحنون عن أبيه — ط تونس 1934 .

3 — مصنفات وأبحاث باللغة الفرنسية

— La domination musulmane en Sicile — Tunis 1905

— Les apports ethniques étrangers en Tunisie — Tunis 1917

— Le développement de la musique arabe (en Orient, au Maghreb et en Espagne) — Tunis 1918

— Deux dinars normands frappés à Mahdia — Tunis 1932

— Un témoin occulaire de la Conquête arabe de l'Espagne — Tunis 1932

ملحوظة

ولحسن حسني عبد الوهاب مؤلفات أخرى لم نذكرها ما دامت هذه الكلمة مركزة على مصنفاته التي طبعت قبل أن يدخل المجمع والمراد من ذلك تعداد مؤهلاته العلمية التي جعلته يختار عضوا بالمجمع المذكور . ولقد ذكر مؤلفاته الأخرى برسالته المخطوطة وفي كتاب « المجمعيون » المذكور أعلاه

لقد توفرت في حسن حسني عبد الوهاب مؤهلات علمية كثيرة جعلته يلج المجمع عن جدارة، يحمل معه كل ما له من تجارب ومعارف واسفار وأوصاف سيكون لها أثرها في أثره العلمي بالمجمع، فلقد أقبل عليه وفيه من وطنه تونس ومن بلاد المغرب مشاهير كانوا عينوا بالمجمع كأعضاء مصريين أو مشارقة بطبيعة استوطانهم بتلك البلاد منهم الشيخ محمد الخضر حسين التونسي الأصل(12) والشيخ عبد القادر المغربي التونسي الأصل ويعود نسبه إلى عائلة درغوث (13) ومنصور فهمي الجزائري الاصل (14). فكانوا يمثلون معه علم المغرب في مجامع المشرق. وذلك ما جعله يؤمن أنه لا يمثل تونس فحسب بل المغرب العربي باكمله. فلقد جاء في خطبته الأولى في دورة المجمع الثانية :

« وإني لفخور أن أحمل إليكم تحية البلاد المغربية عموما وإعجابها وتونس خصوصا مظهرا بذلك حسن تقديرها وإكبارها للمجهود المضني الذي تقومون به للأحياء والمحافظة على اللغة العربية والأدب وكذا تنمية تراثنا الغالي ووقايته من أعراض الجمود وإذواء الضمور وعلل الخمود » (15).

ولقد ظل متشبثا بتلك الفكرة في خطبه وفي مناقشاته مما سيظهر لنا في النماذج التي سنعرضها بعد حين، على أنه تجدر الملاحظة أنه كلف مرتين متواليتين للنيابة عن زملائه الشرقيين والكلام بإسمهم (16).

ولقد تكلف بمسؤوليات عدة جعلته ممن شيدوا صرح المجمع وعملوا على إنجاح رسالته ولقد قال فيه الدكتور محمد مهدي علام زميله ومؤلف كتاب « المجمعيون » الذي أصدره المجمع.

---

(12) مهدي علام : المجمعيون المذكور أعلاه ص 158 .
(13) نفس المرجع ص 107 .
(14) نفس المرجع ص 225 .
(15) محاضر الجلسات 16/2 .
(16) محاضر 390/2 ، مجلة مجمع اللغة 3/5 .

« إن الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب من الرعيل الأول الذين أختيروا أعضاء عاملين لمجمع اللغة العربية . فكان من الذين أرسوا قواعده ورسموا له خطة السير ، وقد إشترك في كثير من اللجان مثل :

1) لجنة اللهجات .
2) لجنة الأداب والفنون
3) لجنة علوم الحياة والطب .
4) لجنة الأعلام الجغرافية .
5) لجنة المصطلحات العسكرية .
6) لجنة الأصول والإملاء (17) .

نضيف إلى ذلك أنه فاز في آخر حياته برئاسة المجمع نيابة عن طه حسين وذلك سنة 1961 . فترأس مناقشات المجمع الكثيرة ومواضيعها التي نذكر منها

1 — المؤسسات والمعاجم اللغوية للأستاذ علي الفقيه حسن (18) وقال ملاحظا في هذا الموضوع :

« تعقيبا على كلمة الأستاذ علي الفقيه حسن أنبهه إلى أن محمد بن مكرم بن منظور وهو صنهاجي النسبة وأبوه مغربي هاجر إلى مصر وبها ولد محمد بن منظور .

وكانت وفاته بالإسكندرية حسبما حققه متأخرو العلماء الباحثون عن تراجم الرجال (19) .

2 — كلمة عرب : تحدرها وتطورها واستقرارها على معناها القومي للدكتور عمر فروخ .

---

(17) المجمعيون — المذكور أعلاه ص 69—70 أنظر أيضا محاضر الجلسات 177/2 . 270، 277، 24/4، 347 — المجلة 61/8 .

(18) بحوث ومحاضرات 1961—1962 ص 87 .

(19) نفس المرجع ص 213 .

تعقيبا على ما قاله الدكتور فروخ من أن إسم عرب لم يظهر إلا عند ظهور الإسلام « والحقيقة أن الأبحاث الأخيرة تثبت أن العرب هم أصل الساميين لأنهم خرجوا من الجزيرة العربية . وكل الهجرات التي حدثت في الشمال أي ما بين النهرين خرجت من الجزيرة العربية . فالفينيقيون خرجوا من سواحل البحر الأحمر وانتقلوا إلى الشام وواضح على مر الزمن أن اللغة العربية هي أقدم الأصول السامية .

ومنذ ثلاثين سنة كانت هناك بعثة ألمانية تدرس الحفريات وتبحث عن الأثار اليونانية وعثرت على عمق 25 مترا على نقوش باللغة القحطانية وهي اللغة العربية الجنوبية ومعها نقوش باليونانية القديمة . وهذا دليل على أنه كان هناك آتصال بين العرب وغيرهم — وقال بعض العلماء أن عربية وعبرية يرجعان إلى شيء واحد وإن (عبر) معناها عبر الصحراء و(عرب) معناها بقي فيها . لذلك أعتقد أن كلمة عرب كانت موجودة وبخاصة في عرب الجنوب لأن حضارتهم كانت قديمة » (20) .

وليست هذه التعقيبات الا آراء رئيس يريد أن يسهر على سير المناقشات وينسق الجهود لتقوم الدورة التي ترأسها بما عليها من أعمال .

ولعل المهم من نشاطه في المجمع يتعلق أولا وبالذات بآرائه العلمية في المسائل التي طرحت على المجمع في دوراته السنوية المتعددة . ولذا رأينا من المفيد أن نحصر نشاطه العملي في الميادين التالية منها

1) مشكل الكتابة العربية لاسيما قواعد كتابة الأعلام الأعجمية والجغرافية بحروف عربية .

2) اللهجات .

3) المصطلحات العلمية .

---

(20) نفس المرجع ص 270 .

4) مسائل نحوية .
5) إعتبارات تاريخية .

فقد كان من أول الأعضاء الذين أيدوا مبدأ النظر في تيسير الهجاء العربي لما رأوا رئيس المجمع الأول المرحوم محمد رفعت يستبعد هذا الموضوع لأنه لم يذكر في قانون المجمع وأغراضه (21) .

وعبر عن رأيه في الموضوع في ثلاث مناسبات مختلفة قال أولا فيما يتعلق بمهمة لجنة إصلاح الكتابة ومسؤوليها « اللجنة التي ألفت أمس من حضرات الأعضاء ستبحث أهم الموضوعات التي تناولها أعمال المجمع وذلك لأن أهمية الكتابة العربية وكونها مسايرة للعلم ، تقتضي وجود وسائل لهذه المسايرة. والكتابة هي كما تعلمون أهم وسائل نقل العلم من لغة إلى أخرى واللجنة التي ألفت أمس ألفت لهذا الغرض ، فنريد الآن تحديد عملها ومعرفة وسائلها التي تسير فيها إلى الغاية بعد أن ألفناها » (22) .

وقال في جوهر الموضوع المطروح الذي أراد بعض المجمعين أن يحيله على خطاطين « الأصل في الكتابة العربية أنها كتابة غير منقوطة الحروف ثم أدخل النقط في القرن الأول من الهجرة . ورغبتي هي أن يكون المشروع ، مشروع إصلاح الكتابة العربية ، من إبتكار المجمع وعليه أن يشرف على وسيلة الإصلاح ، لأنها مهمته وأن تكون هذه المهمة هي ما نحدده عملا للجنة بعد أن ألفت أمس » (23) .

لقد كان حسن حسني عبد الوهاب حريصا على إصلاح الكتابة حرصه على التقدم باللغة وعلومها لكنه كان يعارض في تعويضها بحروف لاتينية كما

(21) محاضر 262/2 .
(22) محاضر 347/5 .
(23) نفس المرجع ص 347–348 .

دعا إلى ذلك زميله عبد العزيز فهمي (24) . فهو وإن كان يوافقه على نبل مقصده في هذا التعويض وعلى أن الرسم أهم أسباب مرض العربية فإنه رأى أن الكتابة العربية لا تحتاج إلى ذلك فقال : « أظن أنه ليس هناك من بيننا من يعتقد أو يقول بقدسية الكتابة العربية إنما الذي يعتقد ويقول به جمهور العرب ومن ينضاف إليهم من الكاتبين بالحروف المسماة بالعربية — إن هذه الكتابة — مع حركاتها وأشكالها — أداة موفية بجمع الغرض المطلوب منها وهي التعبير عن مخارج الحروف الموجودة في لغة الضاد » (25) .

وهذه اراء فيها نظر كان الفقيد يهدف من ورائها إلى المحافظة على حروف العربية وهو ما لا يعني أنه لا يدعوا إلى ضرورة إصلاحها . ولقد أعرب عن ذلك سلفا ودافع عنه في ما دعا إليه من وضع حروف عربية لكتابة الاعلام الأعجمية . فانتخب عضوا في اللجنة التي كلفت بوضع مشروع في هذا الشأن وكان من مبادئه .

« أولا : يكتب العلم الإفرنجي بحسب نطقه في اللغة الإفرنجية ومعه اللفظ الإفرنجي بحروف لاطينية بين قوسين في البحوث والكتب العلمية على حسب ما يقره المجمع في شأن كتابة الأصوات اللاطينية التي لا نظير لها في العربية .

ثانيا : تكتب الاعلام بحسب النطق بها في لغتها الأصلية أي كما ينطق بها أهلها وليس كدا تكتب مع مراعاة ما يأتي من القواعد » ويهم (26) هذا المبدأ الثاني أسماء البلدان العربية والإسلامية .

فلقد أصر مثلا أن يكتب الحرف الإغريقي (C) في cyrene و Lycia و copus بالقاف العربية كما آقترح زميله الأب إنستاس الكرملي العراقي فقال : « لقد نطق

---

(24) عبد العزيز فهمي، تيسير الكتابة العربية بمؤتمر المجمع 1944 ، القاهرة 1946. أنظر رد ح. ح. عبد الوهاب عليه بص 65—66 بتاريخ 19 فيفري 1944 .

(25) تيسير الكتابة العربية — المطبعة الأميرية القاهرة 1946 ص 65 .

(26) محاضر 391/4 .

العرب وكتبوه دائما قافا مثلا قرطاجنة وكتبوها قرطاجنة كذلك » (27) وقد وافقت هيئة المجمع على القاعدة كما هي . وكانت له مواقف أخرى في هذا الموضوع منها ما آتفق فيه مع الشيخ الخضر حسين . فلقد وافقه المجمع على رسم كلمة ليبيا « لوبية » كما قال هو : « وردت هذه الكلمة في ياقوت لوبية بتاء مربوطة وكذا في المسالك والممالك للاصطخري » (28) وأصلح مرة أخرى :

« في العمود الثاني من القائمة الثانية تحت « لوبية » ورد (29) خليج سرت بكسر السين والصواب سرت بضم السين » .

ودار النقاش في المجمع في كيفية كتابة الأسماء العربية الجغرافية التي تبتدىء بابو (كما نقول اليوم نادي أبو القاسم الشابـي) أيطبق عليها الإعراب أم لا ؟ فقال الفقيد وقد وافق المجمع على رأيه .

« إن العرب قد أقروا آستعمال « أبو » مرفوعة في كل حالات الإعراب وإليكم دليلا يؤيد هذا القول . هذا صاحب « الكشاف » الزمخشري يقول عنه في تفسيره سورة أبـي لهب .

« ولذلك تجري الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية عطف بيان فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من علميه ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : يدا أبو لهب كما قيل : علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان لئلا يغير منه شيء فيشكل على السماع » (30) .

وكان لمواقف الفقيد ومواقف غيره من المجمعيين أثر حميد في هذا الميدان إذ آتخذوا لأول مرة في تاريخ العربية (31) قرارات تضبط رسم الأعلام

---

(27) محاضر 412/4 .
(28) محاضر 364/5 .
(29) محاضر 365/5 .
(30) محاضر 312/5 .
(31) إبن خلدون : الحروف التي لا مقابل لها في العربية . قبس من المقدمة وقد سبق لهذا الفكر الثاقب أن يضع هذا المشكل الخطير كما وصفه أيضا البيروني في أخبار الهند .

الأعجمية والعربية والإسلامية تخرجنا ، لو طبقت وعممت ، من بلبلة الرسم التي تجعل العربي يكتب كلمة (Angleterre) على أربعة وجوه فأكثر : أنكلترا ، أنغلترا . أنجلترا . أنقلترا الخ .

أما فيما يتعلق باللهجات ، هذا الموضوع الشائك الذي آهتزت له أرجاء المجمع ، فإنه كان يرى أن دراستها ضرورية بقدر ما كانت ضرورية بالنسبة لقراء القرآن وعلماء فقه اللغة والأصوات السالفين . فنحن حسب رأيه في أهم الحاجة إليها بقدر ما هي في سباق وصراع دائمين مع اللغة الفصحى ، الأمر الذي جعل بعض العلماء والكتاب يدعون إلى التوفيق بينهما لأن اللهجات تمثل العنصر الحي من كل لغة .

وليس ذلك يعني أنه كان متعصبا للهجات بل لدراستها وتوحيد نطق حروف العربية ودراسة قواعدها بإعتبار حاجات العصر ، فقدم مشروعا إلى المجمع قال فيه : « ينبغي أن يعيد (المجمع) النظر في أصول هذه اللغة وقواعدها ومراعاة ما هو جار في أصول اللغات عسانا نهتدي بذلك إلى إدراك سر وقوفها طوال القرون الأخيرة لكي نعمل على تلافيه ونعيد لها خصائصها من حيث قوة الإمتصاص والإستنباط والتخريج والصقل بطريقة تكفل لنا طبع الكلمات المستحدثة فيها على غرار الفصيح القديم صيانه لها من اللوث وتسرب الدخيل .. وإحدى هذه العلل الطاغية آختلافنا بالتلفظ بالكلمات .. وإغفال لغويينا لضبط مخارج الحروف وتركها هدفا لعوامل التأقلم حتى آختلف النطق وفسدت اللهجات .. ونحن نعتقد أن أهم وظيفة للمجمع تقوم على تلافيه عملا بالقاعدة (درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة) . ودرءها لا يقتضي جهدا ولا كلفة سوى التفكير في وضع قواعد ثابتة للفظ الحروف نطقا وكتابة بلهجة فصحى يختارها ويقررها المجمع (32) » .

---

(32) محاضر 355/2 .

إن هذا الإقتراح الذي أيد وجاهته منصور فهمي ، يدعو في الحقيقة إلى إقرار لهجة عربية موحدة تستمد أصولها من الفصحى ولهجاتها الحية . لكن المجمع لم ير داعيا لتأييد رأى الفقيد . ولعل هذا الأخير كان يعتقد في قرارة نفسه أن اللهجة التونسية المهذبة من أفصح اللهجات العربية .

أما فيما يتعلق بآرائه في وضع المصطلحات العلمية والفنية فإنه يجدر بنا إن نقسمها إلى قسمين .

1) موقفه المنهجي منها .
2) تشدده في ضبطها وإقرارها .

ومن هذين الموقفين تبرز لنا تجربته الإدارية الطويلة التي علمته أن كل عمل يحتاج إلى نهج ونظام كما تبرز لنا معالم ثقافته المزدوجة الواسعة التي أهلته إلى معرفة دلالات الكلمات ودقائقها .

فلقد أثار في االدورة الثانية للمجمع مسالة وضع المصطلحات فقال : « المسالة مسالة رئيسية : فكيف نبحث (33) في المصطلحات ؟ هل أتفقنا على مبدئى في وضعها ؟ ومن يضعها ؟ » .

وشرع ٱلمجمع في وضع المصطلحات في شؤون عامة منها كلمة (Robinet وما يقابلها بالعربية فتنافست كلمتان لنقلها وهما الصنبور والحنفية فقال فيهما .

« لماذا نعين كلمتين ... فنكثر من تعداد الكلمات في اللغة لمثل هذه الموضوعات مع أن اللغات الأجنبية تكتفي بكلمة واحدة لمثل هذه الفتحات» (34)

ثم أثار جدوى أعمال المجمع ونجاعتها ثم اردفها بإقتراح جاء فيه : « أرجو .. الكلام في مسالة من الخطر بمكان ذلك أني رأيت أمس على هذا اللوح الأسود الذي أمامنا عبارة ٱسترعت نظري وٱستحوذت على فكري :

(33) محاضر 48/2 .
(34) محاضر 70/2 .

وهي أن المجمع من يوم آجتماعه في هذا الدور حتى الآن (أي منذ خمسة عشر يوما) أتم النظر في تسعين كلمة : أقول تسعين كلمة وأكررها حتى نعرف مدى الشوط الذي قطعناه في هذا الدور الثاني . أخذت أفكر في عدد الألفاظ والمصطلحات التي سننجزها على هذا الحساب إلى آخر الدورة فوجدت أننا سنتم النظر في 270 أو 300 كلمة على فرض أن عدد جلساتنا سيبلغ خمسا وثلاثين جلسة ، فهل هي النتيجة التي تترقبها منا مصر والعالم العربي بأسره .

إني أقترح أن تتعدد اللجان التي تنظر في المصطلحات والكلمات حتى يتيسر لنا إبراز مقدار مفيد من الأعمال وأن نتخذ طريقة تختلف عن الطريقة التي سلكناها من قبل » (35) .

ولقد أقترح، لما أثيرت مسالة آصطلاحات الملابس مع غيرها من مصطلحات الشؤون العامة قائلا : « يجب أن يكون للملابس بحث خاص » (36) .

أما فيما يتعلق بمحتوى مجلة المجمع التي رأى بعضهم أن تعنى فقط بالمفردات والمصطلحات فإنه رأى : « يمكن أن نتوسع في المجلة بأن ننشر فيها بعض المخطوطات النادرة في الإصطلاحات مثلا أو في الطب أو اللهجات » (37) .

وأثيرت مشكلة وضع المصطلحات : أتكون بالوضع والتصرف حتى يناسب مضمونها السليقة العربية أم بالترجمة البحتة « لأن الترجمة ــ كما قال منصور فهمي ــ تخرج المجمع عن مهمته وتجعله مترجما لا أكثر وخير لنا أن نضع كلمة عربية خالصة من أن نكون مترجمين للكثير » (38) .

(35) محاضر 2/120—121 .
(36) محاضر 2/149 .
(37) محضر 2/388 .
(38) محاضر 4/21 .

فئازره حسن حسني عبد الوهاب قائلا :

« أوافق الدكتور منصور فهمي على أن مهمة المجمع ليس الترجمة فينبغي لنا ألا نترجم إلا عند الضرورة » (39) .

وجاءت المصطلحات العسكرية بمسائلها المتشعبة المعقدة فأثارت كيفية الإقبال عليها وتطويعها . فقال المجمعي التونسي :

« إن المصطلحات العسكرية لا تقل عن الالفين واللجنة لم تضع إلا قليلا منها ولكننا نريد بتقديم هذا القليل لهيئة المجمع أن يقف زملاؤنا على الطريقة التي سلكتها اللجنة في إختيار الألفاظ ، ويعتبر هذا البحث كتمهيد لما يأتي حتى إذا وافقتم على وجوب آستمرار اللجنة في عملها ، وهو عمل يحتاج إلى وقت طويل ، آستمرت ، ولو ظهر ما يستوجب التنقيح فإننا ننقحه » (40) .

هذه مواقفه المنهجية في أمور عدة أما فيما يتعلق بالمصطلحات في حد ذاتها وفي علومها المختلفة فإننا سجلنا له فيها أكثر من 50 رأي وذلك في الدورات الخمس الأول من حياة المجمع . ومما يلفت النظر في هذه الاراء أنه كان يردد « هذه العبارات « نقول في المغرب » « نقول في بلاد المغرب » — « وعندنا في المغرب نقول » — و« نقول في تونس » .

ويحسن أن نقدم في هذا الصدد نماذج من آرائه في هذه المصطلحات : قال في لفظة (Gratte Ciel) بالفرنسية و (Sky Scrapors) بالأنجليزية التي وضعت لها كلمة الصرح .

« هل هناك عيب في إستعمال (ناطحات السحاب) واللفظان عربيان شائعان في الصحف وغيرها ويدلان على معنى خاص » (41) .

(39) محاضر 23/4 .
(40) محاضر 372/4 .
(41) محاضر 32/2 .

وقد شاعت هذه الترجمة التي آقترحها وماتت كلمة الصرح لأن الإستعمال محكم كما قال زميله المرحوم محمد كرد علي واضع كلمة الصرح .

وجاءت لفظة إزار التي نافستها كلمة الوزرة فقال ح . ح . عبد الوهاب :

« لا نعرف في اللغة التونسية غير هذه الكلمة (أي الإزار) للدلالة على المعنى المراد بها في مصر (أي الوزرة) وقد آستعملها آبن جبير » (42) .

وجاءت كلمة الطارمة للدلالة على الكلمة الفرنسية « étalage » فقال فيها : « في المغرب الأقصى لا يزالون يستعملون كلمة الطارمة » (43) .

وجاءت مسالة الترادف في كلمتي الدهليز والطرقة فقال : « في العربية مترادفات كثيرة سببها القبائل وليس هذا عيبا في اللغة ، ووضع كلمة خاصة لكل مصطلح ليس من باب الترادف وإنما هو تخصيص تلاحظ فيه فروق خاصة وما نبحث فيه اليوم لا ترادف فيه » (34) ويمكن ربط هذه الألفاظ بمسائل معجمية منها تاريخ الكلمات ووضع معجم تاريخي لها على غرار معجم (Oxford Dictionary) فقال :

« يمكننا أن نعرف تاريخ بعض الكلمات كمدنية وتمدن بإستعمال آبن خلدون لها في معنيين تعارف عليهما في كتابه » (45) .

وجاء مترادفان : الطبق والصحن فقال :

« في المغرب لا نستعمل إلا الصحن » (46) .

---

(42) محاضر 41/2 .
(43) محاضر 66/2 .
(44) محاضر 76/2 .
(45) محاضر 137/2 .
(46) محاضر 152/2 .

أما مصطلحات العلوم الطبيعية فإننا نأخذ منها كلمة (Astatic Needle) التي وضعت لها لجنة الطبيعة « الابرة الموقوفة » فاقترح ح. ح عبد الوهاب « الابرة المتعادلة » ولم يوافقه المجمع على ذلك .

وجاءت مصطلحات الحساب ، وصلاحية ترجمتها أو تعريبها فقال : « إن العرب عندما ابتدأوا في ترجمة العلوم قالوا عن الحساب ارتماطيقي ولكنهم لم يستمروا عليها وقالوا علم الحساب » (47) .

وأثيرت مصطلحات الفنون والرسم منها كلمة (Varnish)

وترجمتها اللجنة المختصة بكلمة « اليلمع » فقال « نعم وجدنا البرنيق في المعجمات العربية كمعجم ياقوت وقد ذكرها عبد الله البكري في المسالك وذكرها العبدري الرحالة » (48) وجاءت مصطلحات القانون منها (Droit de Disposer) فترجمتها اللجنة بحق التصرف » فقال « أرى أن نضيف كلمة « مطلق » (49) إلى حق التصرف فنقول (حق التصرف المطلق » فوافق عليها المجمع .

أما في مصطلحات الأداب فلقد وردت على المجمع كلمة (Humanisme) فترجمتها اللجنة المختصة : « بأحياء الثقافة القديمة « أو التأدب بالثقافة القديمة » فاقترح تبديلها (وقبل إقتراحه) « نقول أحياء الأداب القديمة والعلم مما يتأدب به فكلمة الأداب تشمل العلوم كلها » (50) .

وجاءت مصطلحات الكهرباء منها (Paratonnère) فترجمتها اللجنة : « قضيب الصواعق أو صارفة الصواعق » فقال فيها : « صارفة الصواعق ترجمة حرفية للأصل الفرنسي (51) فأبدلها المجمع بـ« مانعة الصواعق » .

(47) محاضر 138/4 .
(48) محاضر 255/4 .
(49) محاضر 333/4 .
(50) محاضر 35/4 .
(51) محاضر 63/5 .

وجاءت مصطلحات الطبيعة منها Rayons Ultra; Rayons Ultra violets rouges وترجمتها اللجنة بـ : (أشعة ما بعد البنفسجي و أشعة ما قبل الأحمر) .

وأقر المجمع : (أشعة ما وراء البنفسجي وأشعة ما دون الأحمر) فقال ح . ح عبد الوهاب : « ما فوق البنفسجي ما تحت البنفسجي » (52) . ولعل الإستعمال قد أيده .

وجاءت مصطلحات الرياضة منها (alternative proof) فترجمتها اللجنة بالبرهان البديلي فقال ح . ح عبد الوهاب : «ليس التعبير إصطلاحا رياضيا ولا أعرف له نظيرا في غير اللغة الأنجليزية فاقترح حذفه هو وما تلاه وهو البديل (alternative) » ومن المصطلحات ننتقل إلى النحو الذي سنكتفي منه (53) بذكر موقف له يتعلق بالإعراب آزر فيه بالدليل اللغوي زميله أحمد حسن الزيات في إعراب جملة : سافر محمد علي حسن : أي النطق بهذه الأسماء ساكنة .

إذ قال فيها الزيات : « ومن واجب مجمع اللغة العربية وهو وحده المسؤول عن سلامتها ورعايتها أن يطوع قواعدها بقبول هذا التركيب ولو بشيء من الإكراه » (54) وحجته في ذلك ان «« ما قاله النحاة في إعراب فواتح السور يقال أيضا في إعراب هذا التركيب وأمثاله » (55) وحمى الوطيس في المجمع حول هذه المسالة فقال ح . ح عبد الوهاب « ولقد خرجت على الحكاية أساليب مختلفة مما جاء على غير قياس العربية واذكر أن الزمخشري أثبت في تفسير قراءة قول الله تعالى : « تبت يدا أبو لهب» (56) فآزره العقاد ملاحظا أن المصريين يقولون دائما « بني سويف » إشارة إلى قرية مصرية فعارض إبراهيم مصطفى : « بني سويف أصبحت علما بصورتها مثل البحرين وهذا

---

(52) محاضر 112/5 .
(53) محاضر 231/5 .
(54) المجلة 62/12 .
(55) المجلة 64/12 .
(56) المجلة 64/12 .

لا يتصل بما نحن فيه » (57) فأجاب أحمد حسن الزيات : « سجل آبن جنى مبدأ صحيحا هو أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » (58) فعاد (59) إبراهيم مصطفى قائلا : « إننا نقيس هنا على كلام العامة » فأجابه طه حسين : « بل نقيس على كلام الله » (60) .

وذلك ما آعتمده الفقيد الذي لم يفارق هذا المجمع قبل أن يربطه بمجمع آخر سبقه في التاريخ وأعني بذلك بيت الحكمة التونسي الذي يعتبر أول مؤسسة علمية في البلاد الإفريقية (61) فيقول فيه : « يتضح أن بيت الحكمة الإفريقي إنما أنشأه أمراء بني الأغلب بغية نشر الثقافية العالية في غير المادة الدينية التي كانت دراستها موقوفة على « جامع عقبة » وفي كثير من مساجد القيروان وغير القيروان وفي دور الفقهاء والمحدثين » (62) ولقد أكد المرحوم على دور بيت الحكمة في الترجمة وإشعاعه ثم على تأثيره على النهضة الاروبية كأنه كان يتمنى أن يؤدي مجمع اللغة وغيره من المجامع ما أداه بيت الحكمة التونسي من واجب داخل وطنه وخارجه .

هذا قليل من كثير أردنا أن نحتج به لمساهمة ح . ح عبد الوهاب في مسائل اللغة وما آقترح لها من حلول تشهد على منهجه العلمي وعلى مستوى ثقافته كما تعبر عن دقة رأيه وحسنه .

(57) نفس المصدر .
(58) نفس المصدر .
(59) نفس المصدر .
(60) نفس المصدر .
(61) بيت الحكمة التونسي – بحوث ومحاضرات المجمع – 1963–1964 – ص 115 .
(62) بحوث ومحاضرات ص 131 .

حسن حسنى عبد الوهاب

بقلم : حسن حسني عبد الوهاب

لقد زودنا المرحوم ح. ح. عبد الوهاب بهذه الوثيقة المخطوطة عن حياته . وكنا قد طلبناها إليه أيام كنا بهولندا بغية وضع ترجمة عن حياته ونشاطه العلمي قبل أن يعين عضواً بمجمع اللغة العربية الذي عنينا بتاريخه وأعماله .

وهذه الوثيقة تبدو لنا على غاية من الأهمية لأنها تعتبر إلى حد الآن النسخة الوحيدة المعروفة التي كتبت بخط يده . على أننا نلاحظ أنها تعتبر على ندارتها ، نسخة من أصل أتخذه الفقيد سنداً يزود منه كل من طلب إليه نبذة عن حياته العلمية ، وإن كان هذا الأصل أقل دقة وكمالا من نص المخطوطة التي بين أيدينا .

ويؤيد وجود هذا الأصل النص الذي آستنسخه الزميل الأستاذ الشاذلي بويحي عن ذلك الأصل . ولقد آعتمدنا نصه لمقارنته بنسختنا لما في ذلك من الفائدة العلمية وأشرنا إليه برمز « ب » .

ويبدولنا أنه سبق لح. ح. عبد الوهاب أن زود مجمع اللغة العربية بنسخة مماثلة نشير إليها برمز « م » . على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أننا لن نعتمدها إلا قليلا لأن المجمع قد تصرف فيها تصرفا كثيرا في كتابه « المجمعيون » المذكور أعلاه .

(*) : علامة تدل على كل كلام طويل لم يرد في مخطوطتنا أو في « بـ » أو « م » .

(0) : علامة تستعمل في أحوال خاصة .

رشاد الحمزاوي

رب أنعمت فزد !

(*) الأستاذ البحاثة الموفق السيد محمد رشاد الحمزاوي كلأه الله ونفع به وصلني – واصل الله نعمتكم بالمزيد – الكتاب اللطيف المشير إلى الرغبة في زيادة التعرف بـي ، فلكم الشكر الوافر والثناء الجزيل عن حسن إعتقادكم وعنايتكم بالبحث عن مجمع اللغة ذلك الموضوع اللغوي الأدبـي الذي يرمز إلى إنتباه الشعب العربـي عن سباته العميق .

وقبل الجواب عن السؤال أعلم بنوتكم الفاضلة أن منذ عام حصل آنحراف بمزاجي أقصاني عن مكتبتي التي بقيت بحضرة تونس وألزمني الإقامة بسلامبو حيث الهواء الطلق المنعش ، وقد سرى هذا الإنحراف إلى هيكل التنفس مني فكاد يحرمني من الحركة والإنتقال ، فصار سعي مقصورا على الجلوس والكتابة متى تيسّر :

لم يبـق شيء من الدنيا نسرّ به   الاّ الدفاتر فيها الشعر والسمر

ومهما يكن من أمر فإني سأحاول الجواب بقدر المستطاع مع الإعتذار عن التقصير ، فأقول وبالله التوفيق (*) :

الإسم : حسن حسني عبد الوهاب – وهو اللّقب العائلي – نسبة إلى جدي عبد الوهاب بن يوسف الصمادحي التجيبـي الذي كان يدير الحرس الأهلي للبلاد (وهم الحـوانب) ويرأس التشريفات في مدة البايـات الحسينيين من عهد (1) محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي إلى أيام المشير أحمد باي الأول .

(*) لا يوجد في بـ ولا في م .

(1) بـ : من عهد الباي محمود .

وتقلّب بعد إبنه والدي (صالح بن عبد الوهاب) في عدة وظائف مخزنية (2) وكان في عصره من الأفراد التونسيين القلائل إذ أنه تعلم العربية بجامع الزيتونة ودرس بعد ذلك اللغة الفرنسية بمكتب الرّهبان (Ecole des Frères) الواقع بنهج الزيتونة الآن (نهج الكنيسة سابقا) حتى أتقن تلك اللغة جيدًّا فأضافه (الفريق حسين) وزير الخارجية إلى (5) مكتبه، وصار الوالد يصاحبه كمترجم في السفارات المتنقلة التي كانت ترسلها الدولة التونسية إلى أوروبا كلّما حصل خلاف مع الممالك الإفرنجية (إيطاليا قبل الوحدة ، وفرنسا (6) وانكلترا وغيرها) في عصر كانت رحلة التونسيين إلى تلك الأصقاع (7) قليلة جدا من 1868 إلى 1880م — وكان الوالد المرحوم مولعا بفن التاريخ (والعرق دسّاس ، كما في الحديث النبوي) وله تأليف في أخبار مملكة المغرب الأقصى لم يطبع بعد .

وتقلّب الوالد — بعد الحماية — في جملة وظائف منها عمل الأعراض (قابس) وعمل (9) المهدية ، وتوفي أواخر (10) 1904 . أما إبنه حسن حسني

(2) بـ : وظائف وكان .

(3) بـ : الزيتونة (نهج ...) .

(4) بـ : حتى أتقنها جيّداً .

(5) بـ : إليه .

(6) بـ : وأنكلترا .

(7) بـ : البلاد .

(8) رسمهما ناسخ نص « ب » بالأرقام العربية عملا بالعادة الجارية عندنا اليوم بتونس ولقد طبق الناسخ ذلك على كل الأعداد الواردة في هذه الترجمة والملاحظ أن الفقيد قد كتب كل الأعداد بالأرقام الهندية .

(9) بـ : والمهدية .

(10) بـ : آخر .

فإنه ولد أواخر (11) شعبان 1301 (21 يونية 1884) بنهج عبد الوهاب رقم 25 الآن (12). والدته (13) «حنيفة بنت علي بن مصطفى آغة قيصرلي» وكان (14) أبوها أكبر أعوان (معين أول) الوزير خير الدين باشا.

وأول دراستي كانت في كتاب بنهج سيدي الموحّد — بين نهج الوادي ونهج بوخريص — حسب العادة المتبعة حينئذ لصغار التونسيين ثم تحوّلت إلى المدرسة الإبتدائية بالمهدية وهناك حفظت (15) الربع الأخير من القرآن كما ابتدأت تعلّم اللغة الفرنسية.

ولما انتقل الوالد من المهدية إلى تونس دخلت أول مكتب فرنسي لائكي بالحضرة (16) بنهج السويد (17) (Rue de Suède) ونلت شهادة العلوم الإبتدائية سنة 1899م (18). فالتحقت حينئذ (19) (بالمدرسة الصادقية) وزاولت بها العربية والترجمة ثم قصدت باريس وانتظمت في سلك تلاميذ (مدرسة العلوم السياسية) (20) (Ecole des Sciences Politiques) وتتبعت تعليمها، ومن أساتذتي

---

(11) بـ : آخر.

(12) بـ : رقم 25.

(13) بـ : ووالدته.

(14) بـ : كان.

(15) بـ : وتلقيت هناك حفظ الربع ..، ولقد شطب ح. ح. على الجملة السابقة وعوضها بغيرها مما جاء في نسختنا.

(16) بـ : بالحاضرة (نهج السويد).

(17) بـ : بنهج السويد ونلت.

(18) بـ : 1899.

(19) بـ : فالتحقت بالمدرسة الصادقية.

(20) لا توجد في بـ ؛ أما م فلقد جاء فيها : ثم التحق بمدرسة العلوم الإقتصادية بباريس.

بها (21) (ده منتاي (22) (De Monteil) وفي الأثناء كنت أحضر محاضرات الحكيم (شاركـو (23) (Dr. Charcot) (24) في تحليـل الأخـلاق والطبائـع والنحائز (25) .

وتوفي الوالد آخر سنـة 1904 فعـدت إلى البيـت في حضرة تونـس وانخرطت بعد في سلك موظفي (إدارة الفلاحة والتجارة) في قسم أملاك الدولة سنة (26) 1905 ، وبعد خمس سنين عينت رئيسا لإدارة (غابة الزياتين للشمال التونسي) سنة 1910 وفي أثناء الحرب الكبرى الأولى آلتحقت بإدارة « المصالح الإقتصادية » : (Services économiques) في سنة 1916 بصفة رئيس قسم وفارقتها لرئاسة (خزنة المحفوظات التونسيـة : (Services des archives générales) في سنة 1920 (27) وقد آستفدت كثيرا من هذا العمل حيث أتيح لي الإطلاع على مجرى أحداث التاريخ التونسي منذ الفتح التركي أو بعده بقليل (28) ، ولا يخفى أن خزنة المكاتيب الدولية ــ كما كانت تسمى ــ هي من محاسن مؤسسات الوزير خير الدين حين مباشرته لشؤون الدولة التونسية ــ وأهم (29) عمل قمت به هناك هو اني وضعت لها جهازا تاما لفهرس (30) محتوياتها في جذاذات محفوظة

---

(21) لا توجد في بـ .

(22) بـ : Professeur De Monteil

(23) بـ : Charcot

(24) بـ : و

(25) بـ : الأخلاق والنحائز والطبائع .

(26) بـ : اخر سنة .

(27) بـ : Archives générales

(28) بـ : وبعده .

(29) بـ : أهم .

(30) بـ : لفهرست .

في صندوق خاص (Fichier) وهو المعمول به إلى الآ ن ، ولم يكن ذلك موجودا بها من قبل (31) .

وفي سنة 1920 عينت عاملا (واليا) (32) على المثاليث ، ومركز (33) الإدارة بجبنيانة ، وكانت تلك الناحية تابعة لولاية صفاقس ، ولم يعتن بمصالحها منذ أحقاب توالت عليها ، فسعيت جهدي في اقرار أهاليها بالأرض لتعميرها وبايجاد عدة مكاتب إبتدائية وإحداث طرقات معبّدة ، وتزويد القرى بالماء الصالح للشراب وتنوير مركز العمل ليلا .

وفي آخر سنة 1928 نقلت واليا (عاملا) (34) للمهدية الفاطمية ، فاجتهدت في نشر التعليم في القرى والمداشر ، وكنت ألقي في كل أسبوع محاضرات في تاريخ الإسلام (35) ، وبخاصة في أحداث تلك الجهة في محل ناديها ونادي الشبيبة ، وأوقفت كتبا كثيرة على مكتبات المدينة الفاطمية .

وفي سنة 1935 سميت واليا (عاملا) على الوطن القبلي (نابل وناحيتها) فاهتممت بمصالحها العمومية بقدر الإستطاعة (36) ، وأوقفت كذلك من الكتب العربية كثيرا على مركز الولاية وعلى القرى الكبيرة والصغيرة .

وفي سنة 1939 عدت لحضرة تونس (37) بصفة وكيل (للإدارة المحلية والجهوية) يعني شؤون الامارة الداخلية للبلاد ، وفي أثناء مباشرتي لهذا المنصب

(31) بـ : موجود بها .
(32) م : مديراً .
(33) بـ : ومقر .
(34) بـ : واليا إلى المهدية .
(35) بـ : التاريخ الإسلامي .
(36) بـ : الجهد .
(37) بـ : للحضرة التونسية .

أحلت على التقاعد لبلوغي السنّ القانوني – بعد أربع وثلاثين عاما من العمل المنهك – لكن الإدارة المركزية أبت ألا أن تعيّنني رئيسا (لمصلحة الأوقاف) فاجتهدت في الذبّ عن مصالحها ومنع أيدي الطمع من الإمتداد إلى أملاك الأوقاف وأراضيها الخصبة .

وبمجرّد إنتهاء الحرب الكبرى الثانية من البلاد التونسية أنتخبت وزيرا (للقلم) وهو وظيف يشمل الإشراف على إدارة الشؤون الداخلية للبلاد ، والقيام بتحرير المهمّ من المكاتيب الدولية ومخاطبة ملوك الخارج ، وكان (38) التعيين في 3 ماي سنة 1943 ، فشغلت هذا المنصب مع آخر البايات الحسينيين : محمد الأمين .

وتخلّيت عن هذا المنصب نهائيا في شهر يولية سنة 1947 ، ومن ذلك الحين إنقطعت عن الأشغال الإدارية وأقبلت على العمل في تأليفي الكبير : « كتاب العمر » وكذلك السفر إلى الاقطار الشرقية والغربية .

ولما نالت البلاد التونسية الإستقلال وفارق الموظفون الفرنسيون المصالح الإدارية ، دعيت من جانب الحكومة التونسية المستقلة (39) لرياسة ما سمّي (بالمعهد القومي للآثار والفنون : Institut National d'Archéologie et Arts) (40) في سنة 1957 ، فباشرت (41) هذه المهمّة إلى سنة 1962 ، وأقبلت (42) على العمل بها بجدّ نادر مدة خمس سنوات متوالية ، وقد هيئت بعض الشباب للمعاضدة حيث لم يبق من الموظفين الفرنسيين السابقين أحد ، ويسر الله في تلك

(38) بـ : وذلك في 3 ماي .

(39) بـ : الجديدة .

(40) لا توجد الترجمة الفرنسية في بـ .

(41) بـ : باشرت .

(42) بـ : فأقبلت .

الفينة أن نقلت مصلحة الأثار من محلّها القديم (ساباط سوق الفكّة) (43) آخر شارع الكنيسة قديما إلى (دار حسين الفريق) التي كانت مقرّا لقائد الجيش الفرنسي ولأركان حربه بساحة القصر ، وبعد ترميم الدار كما يجب إتخذت بقسمها الأعلى مكاتب الإدارة ، وبقسمها الأسفل متحفا للفنون الإسلامية ، ولم يكن لهذه الفنون أدنى حظ بين الأثار التونسية .

ومن منن الله أن أسست في مدة رياستي للاثار خمسة متاحف منها أربعة للاعلاق الإسلامية (متحف علي بورقيبة في رباط المنستير – ومتحف أسد بن الفرات سوسة – ومتحف إبراهيم بن الأغلب في القيروان ومتحف دار حسين الإسلامي المتقدم الذكر – ثم مستودع الاثار (44) الكلاسيكية (Antiquarium) بقرطاجنة في نفس بيت أحد أعيان الرومان) .

وقد زوّدت الاربعة متاحف العربية (45) السالفة الذكر بكل ما جمعته لخاصة نفسي منذ الصغر من الاعلاق النفيسة والتحف الإسلامية النادرة سواء أكانت مقتناة من تونس أو مشتراة من المشرق ومن عواصم أروبا .

وفي تلك المدة نشرت في مختلف الجرائد والمجلات فصولا كثيرة وحرضت الباحثين عن الاثار لإخراج ما كتبوه بالعربية والفرنسية ، كما قدّمت لبعض (46) مصنفاتهم بتمهيدات تاريخية وفلسفية وبمقدمات مناسبة ، وهي نحو العشرة مؤلفات في شتى الاعراض الأثرية .

فهذه خلاصة حياتي الإدارية .

---

(43) بـ : سوق الفكة إلى دار حسين .

(44) بـ : مستودعا للاثار .

(45) بـ : المتاحف العربية السالفة ...

(46) بـ : لمصنفاتهم ببعض تمهيدات .

أما الحياة العلمية :

فقد تمّ لي المشاركة في غالب « مؤتمرات المستشرقين » إبتداء من عام 1905 بعاصمة الجزائر ، وقدّمت فيه بحثا عن « الإستيلاء العربي لصقلية » ، وتعرفت هناك بثلّة من العلماء والمشاركين عربا كانوا أو افرنجا ، منهم المرحوم (47) (محمد فريد بك) رئيس الحزب الوطني المصري إذ ذاك ، والشيخ (عبد العزيز شاويش) المشهور وهو تونسي الأصل ، وصارا من حينئذ من أكبر أصدقائي (48) — و(جورج براون) (49) الأنكليزي وكذا (المستر بيفين) (49) و(أمردروز) (49) و(فولارس) و(نلدكى) (49) الألماني ، و(كوديرا) (49) (و(ريبيرا Ribera) و(ميقال آسين بلاسيوس Miguel Asin Palacios) وثلاثتهم من أسبانيا —و(لويس ماسينيون) (49) و(وليم مرسى) (49) وصديقي المرحوم (محمد بن أبي الشنب) وغيرهم كثير جدا — وامتدّت علاقتي بجميعهم بعد ذلك .

وفي سنة 1908 شاركت في مؤتمر (كبنهاكن) عاصمة الدنمارك (50) ، ومن الوجوه الذين (51) تعرفت بهم هناك : أولا جلالة الملك (قستاف أدلف) (52) — والبارون (ماكس أوبنهائم) الألماني ، و(قولد زيهر) العالم النمساوي المشهور ، والاب (لامنس Lammens) ورفيقه الاب (لويس شيخو) اليسوعيين وقد قمت بمعارضتهما فيما تقدم من البحث حيث وصفا النبي

(47) بـ : منهم (محمد فريد بك) .

(48) بـ : الأصدقاء .

(49) بـ : جاء مكتوبة بحروفها الأعجمية وإن كان الناسخ قد حرفها وأصلح أغلبها الزميل بويحي .

(50) بـ : الدينمارك .

(51) بـ : ومن وجوه العلماء .

(52) بـ : قستاف أدولف . ولعل هذا الرسم من عند الناسخ .

(53) بـ : والأب .

فيه بحثا عن "الاستيلاء العربي لصقلية"، وتعرفت هناك بثلة من العلماء المشاركين عربا كانوا او افرنجا، منهم المرحوم (محمد فريد بك) رئيس الحزب الوطني المصري اذ ذاك، والشيخ (عبد العزيز شاويش) المشهور وهو تونسي الاصل، وصار من حينئذ من اكبر اصدقائي - و (جورج براون) الانكليزي وكذا (المستر بيفن) والامير دوز و (فولارس) و(زيلدكي) الالماني، و(كوديرا) و (ريبيرا Ribera) والميقال آسين بلاسيوس Miguel Asin Palacios) وثلاثتهم من اسبانيا - و (لويس ماسينيون) و (وليم مرسي) وصديقي المرحوم (محمد ابي الشنب)، وغيرهم كثير جدا - وامتدت علاقتي بجميعهم بعد ذلك،

وفي ١٩٠٨ شاركت في مؤتمر (كوبنهاكن) عاصمة الدنيمارك، ومن الوجوه الذين تعرفت بهم هناك: اولا جلالة الملك (قستاف ادلف) - والبارون (ماكس اوبنهايم) الالماني، و (قولدزيهر) العالم النمساوي المشهور، والاب (لامنس Lammens) ورفيقه الاب (لويس شيخو) اليسوعيين، وقد قمت بمعارضتهما فيما قدماه من البحث حيث وصفا النبي العربي الكريم بالابيلبتيك والايليبتيك، وافتريا عليه صراحة، والملاحظ اني كنت المسلم الوحيد في حضور هذا المؤتمر، ولذا تجاسرا بالطعن جهارا على صاحب الشريعة الاسلامية، وكان البحث الذي عزمت على تقديمه باللغة الفرنسية: "مختلف العناصر التي يتكون منها الشعب التونسي" - وقد طبع بعد ذلك بتونس ١٩١٧ - فعدلت عن القائه حتى لمعارضة طعنهما، وكان لمعارضتي للراهبين المتقدمين رنة كبيرة بين المؤتمرين وتأييد من جانب عظيم منهم،

وفي ١٩٢٢ شاركت في مؤتمر باريس للمستشرقين الفرنساويين ثم في المؤتمر المنعقد برباط الفتح بالمغرب ١٩٢٧ ثم في مؤتمرات (كمبريج واسطنبول وموينخ في المانيا) وفي جميعها كنت النائب الوحيد عن الحكومة التونسية، ودعيت لحضور الندوات العلمية التي دارت في (البندقية) في معهد Comte Cini، وكذا في معهد ملتقى فيورينسة (بايطاليا) للتقارب بين المدنيات والاديان برياسة الامير مولاي الحسن المغربي الشرفية ورياسة (جورجو لاپيرا Giorgio La Pira المشهور) وغير ذلك من المؤتمرات مما يطول تعداده.

كما نبت عن تونس في (مؤتمر الموسيقى الشرقية) المنعقد بالقاهرة في ابريل ١٩٣٢ والقيت خطابا كان له وقع كبير لدى الدوائر الرسمية، ويلاحظ اني كنت تعرفت - في صائفة ١٩١٤ في نابلي - بالامير (احمد فؤاد) نجل الخديوي اسماعيل قبل ان يصير ملكا لمصر.

وفي نظري ان الملك فؤاد كان - بلا نزاع - من أجل ملوك المسلمين ومن أقواهم عزيمة وحبا لجمع كلمة العروبة والرغبة الصادقة للدفاع عن الحضارة الاسلامية، مع الذكاء المفرط الذي خصه الله به، والثقافة الواسعة، ولا يخفى انه من حين استقر ابوه اسماعيل باشا في بلاد ايطاليا بعد التنازل عن الملك، انخرط البرنس (أحمد فؤاد) في المدارس الحربية هنالك ودرس بها الى ان نال بكد يمينه رتبة امير الاي (Colonel) في الخيالة، بلا محاباة ولا مراعاة لاصالته، وكان يحسن اللغة الايطالية كاحد ابنائها، وكذا اللسان الفرنسي مع نبرة ايطالية واضحة للسامع

العربي الكـريم بما (54) لا يصح ولا يليق ، وافتريا عليه صراحة (55) ، والملاحـظ أني كنت المسلم الوحيد في حضور هذا المؤتمـر ، ولذا تجـاسرا بالطعن (56) جهارا على صاحب الشريعة الإسلامية وكان البحث الذي عزمت على (57) تقديمه باللغـة الفرنسية : « مختلف العناصر التي يتكون منها الشعب التونسي وقد طبع بعد ذلك بتونس سنة 1917 — فعدلت عن إلقاء بحثي لمعارضة (58) طعنهما ، وكان لمعارضتي للراهبين المتقدمين رنّة كبيرة بين المؤتمرين وتأييد من جانب عظيم منهم .

وفي سنة 1922 شاركت في مؤتمر باريس للمستشرقين الفرنساويين (59) ، ثم في المؤتمر المنعقد برباط الفتح بالمغرب سنـة 1927 ، ثم في مؤتمـرات (كنبريتج) (60) (واستنبول ومنيخ) (61) وفي جميعها كنت النائب الوحيد (62) على الحكومة التونسية ودعيت لحضور الندوات العلمية التي دارت في (63) (البندقية) في عهد (64) (Comte Cini) ، وكنا في ملتقى فيورينسة (بإيطاليا)

---

(54) بـ : بما لا يليق .

(55) بـ : وافتريـا عليه والملاحظ .

(56) بـ : بإبداء الطعن على الإسلام جهاراً .

(57) بـ : عزمت تقديمه هناك باللغة .

(58) بـ : لمعارضتهما .

(59) بـ : الفرنسويين .

(60) بـ : كمبريتج بأنكلترا .

(61) بـ : بألمانيا .

(62) بـ : النائب عن .

(63) بـ : بالبندقية .

(64) بـ : Cini .

للتقارب بين المدنيات والأديان (*) برياسة الأمير مولاي الحسن المغربي الشرفية ورياسة (جورجو لابيرا Giorgéo La Pira المشهور) (*) وغير ذلك من المؤتمرات (65) مما يطول تعداده .

(*) كما (66) نبت عن تونس (67) في (مؤتمر الموسيقى الشرقية) المنعقد بالقاهرة في أفريل سنة 1932 (×) والقيت خطابا كان له وقع كبير لدى الدوائر الرسمية، ويلاحظ (*) (68) إني كنت تعرّفت — في صائفة (69) 1914 في نابلي بالأمير (أحمد فؤاد) نجل الخديوي إسماعيل قبل أن يصير ملكا لمصر .

وفي نظري أن الملك فؤاد كان — بلانزاع — من أجل ملوك المسلمين ومن أقواهم عزيمة وحبّا لجمع كلمة العروبة والرغبة الصادقة للدفاع عن الحضارة الإسلامية ، مع الذكاء المفرط (70) الذي خصّه الله به ، والثقافة الواسعة ولا يخمن أنه من حين آستقر أبوه اسماعيل باشا في (71) بلاد إيطاليا بعد التنازل عن الملك ، إنخرط البرنس (أحمد فؤاد) في المدارس الحربية هنالك ودرس بها إلى أن نال بكدّ يمينه رتبة أميرالاي (Colonel) في الخيالة ، بلا محاباة ولا مراعاة لإصالته ، وكان يحسن اللغة الإيطالية كأحد أبنائها ، وكذا (72) اللّسان الفرنسي مع نبرة إيطالية واضحة للسامع .

(*) لا يوجد في نص بـ .

(65) بـ : وغير ذلك مما .

(66) بـ : ونبت .

(67) بـ : الحكومة التونسية .

(*) لا يوجد في نص بـ .

(68) بـ : وقد كنت .

(69) بـ : قبل ذلك في سنة 1914 بالأمير أحمد فؤاد نجل الخديوي إسماعيل في نابلي بإيطاليا .

(70) بـ : الوقاد .

(71) بـ : باشا بلاد .

(72) بـ : وكذلك .

وقد سألني مرة — تغمّده الله برحمته — ونحن نتغدّى على مائدته بقصر القبّة بمحضر وزيره الأكبر (محمد محمود) عن حالة المغرب وتقسيماته ونظامه الإداري ، فأخذت في حديث (73) الوصف بما يناسب المقام . واشتغلت بالكلام عن الطعام ، فالتفت إليّ وقال :

— « حمّلتك مشقّة الكلام كثيرا فلم تأكل إلا قليلا ! » .

فأجبته بقولي :

— « يا أفندينا ، موائد الملوك للشرف لا للعلف ! » فانبسط منها كثيرا .

وسألني مرة أخرى : « كيف وجدت مصر ؟ فكان جوابي إليه (74) :

— « يا أفندينا ، سئل المقّري (75) المغربي مصنف كتاب « نفح الطيب » الشهير عما شاهده بمصر حين زارها فأجاب :

— « من لم يزر مصر لا يعرف عزّ الإسلام ! » وأنا أقول بقوله (*) ولا أحيد عنه (*) !

ولا ننسى أن الملك فؤاد كانت له مواقف حاسمة للحصول على الإستقلال المصري وكذا (76) في الدفاع عن العروبة جملة ، وليس هنا محل بسطها وشرحها ، رحمة الله عليه وجزاه سبحانه الجزاء الأوفى ، وفي المثل المطروق « النار تترك الرماد » .

وهو الذي عينني عضوا دائما في « مجمع اللغة العربية » أول (77) تأسيسه : آخر سنة 1932 — وأنا اليوم هذا آخر من بقي من الأعضاء الأولين للمجمع ،

---

(73) بـ : في الوصف .

(74) بـ : كان جوابي .

(75) بـ : سئل أبو العباس .

(*) لا يوجد في نص بـ .

(76) بـ : وكذلك .

وكنا في البداية عشرين عضوا لا غير ، عشر من المصريين ، وخمسة من الشرقيين ، وخمسة من المستشرقين – وقد شاركت بقدر الاستطاعة في الابحاث والمناقشات الدائرة في المجمع منذ التأسيس ، لا سيما عندما أثيرت الدعوة لإبدال الحروف العربية بغيرها .

أمّا اللّغات التي أحسنها فهي أولا وبالذات العربية لغة أهلي وقومي، ثم الفرنسية ، وقليلا من الإيطالية (*) فهما وتكلّما (*) وكذا من التركية .

أما عنايتي بالثقافة وبثّ وسائلها داخل البلاد التونسية فقد درّست التاريخ العام التونسي خاصة (78) في « الخلّدونية من سنة 1905 (79) إلى 1924 (80) بعد المرحوم البشير صفر ، وكذا (81) التاريخ الإسلامي في « المدرسة العليا للغة والآداب العربية » بسوق العطارين من سنة 1913 إلى آخر سنة 1924 .

ومنحتني « جامعة العلوم » بالقاهرة لقب الدكتوراه الفخرية في سنة 1950 (Dr. Honoris Causa) (*) بمناسبة مرور 50 سنة على تأسيسها (*)، كما منحت ذلك اللّقب من جامعة العلوم بالجزائر (82) ودعيت للحضور بنفسي (83) فلم أجب حيث كانت حرب التحرير قائمة على ساق حينئذ .

---

(77) بـ : لأول .

(*) لا توجد في نص بـ .

(78) بـ : وخاصة التونسي .

(79) بـ : 1915 ؛ م : 1910 .

(80) م : 1925 .

(81) بـ : وكذا في المدرسة العليا ...؛ م : وتدريس التاريخ التونسي في المدرسة العليا للغة والآداب العربية بتونس .

(*) لا يوجد في نص بـ .

(82) بـ : الجزائرية .

(83) بـ : بنفسي سنة 1960 .

وسميت عضوا مشاركا في المجمع الفرنسي للنقائش والفنون الجميلة (Inscriptions et Belles Lettres) (84) منذ سنة 1939 (85) ، وكذا في المعهد المصري(Institut d'Egypte) ، وعضوا مراسلا للمعهد التاريخي الإسباني (*) في مادريد (*) منذ أربعين عاما — وعضوا في كل من المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه (86) وكذا في المجمع العلمي العراقي في بغداد ، وغير ذلك .

وأما (87) اسفاري : فالى جميع القارة الأوروبية بإدخال البلاد الروسية حيث دعيت من مجمعها العلمي ، فزرت — علاوة على (88) موسكو وضواحيها — جمهورية الازبكستان : (تاشقند — وهي بلاد الشاس قديما — (وسمر قند) حيث ضريح الصحابي الفاتح (قثم بن العبّاس بن عبد المطلب) إبن عمّ الرسول ، و(بخارى) حيث ضريح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري) — وفيما عدا ذلك كنت (89) تجولت في ممالك الشرق الادنى وفي (90) سائر اقطار أروبا شرقا (91) وغربا وجنوبا وشمالا — كما أني (92) طفت في جميع اقطار شمال إفريقية من المحيط الأطلنطي إلى السويس .

---

(84) لا توجد الترجمة في نص بـ . أما م : فلقد ترجمتها بـ « مجمع الاداب والكتاب الفرنسي » .

(85) م : منذ 1914 .

(*) لا توجد في نص بـ .

(86) م : التأسيسي ؛ ولم تذكر عضويته في المجمع العراقي .

(87) بـ : أما .

(88) بـ : عن .

(89) بـ : ذلك تجولت .

(90) بـ : في .

(91) بـ : جنوبا وشمالا وشرقا وغربا .

(92) بـ : كما طفت .

وحججت ثلاث حجّات أولها في (93) سنة 1935 ، وتعرفت مليا بالملك المرحوم عبد العزيز آل سعود ، وقد أنابتني في الحجّة (94) الثانية الدولة التونسية لتقديم رسالة من الباي أحمد الثاني مع أوسمة مرصعة بالحجارة الكريمة ، وهدايا أهلية معتبرة ، فقبلني بحفاوة زائدة وأقمت ضيفا على السعودية واستفدت من محادثات الملك بكثير من أخباره وقيامه بالدعوة لأسرته وفتوحه وتوحيده للمملكة العربية الشمالية ، وكانت حجّتي الأخيرة في خلال سنة 1950 وأنا رئيسا (95) للأوقاف .

وفي أثناء إحدى تلك الحجج (96) تعرفت بالمستعرب الأنكليزي المسلماني (عبد الله فيلبي) (97) (*) الذي كان في الظاهر نائبا لبعض شركات السيارات وفي الباطن يخدم مصالح بلاده ومن الغريب أن الملك عبد العزيز كان مطلعا في نفس الواقع على ما يقوم به المستعرب من الإستعلامات الخفية ويجيز ذلك إذ ليس لدولته — كما كان يقول — ما تخفي عن الأنظار والمسامع (*) ،ولا أنسى ان (98) مسترفيلبي أفادني كثيرا عن جولته العلمية في (الربع الخالي والاحقاف) من الجزيرة العربية (99) .

---

(93) بـ : أولها سنة .

(94) بـ : المرة .

(95) بـ : رئيس للأوقاف في تونس .

(96) بـ : الحجات .

(97) بـ : جاء الإسم مرسوما بالأحرف الأعجمية .

(*) لا توجد في نص بـ .

(98) بـ : أنه كان أفادني .

(99) بـ : الجزيرة العربية تلك الجولة التي قطع معظمها (كذا) في سيارة وعلى الجمال وقد أدرج فيها كتابا مفيدا ، هو عمدة الباحثين عن خفايا الجزيرة وجهاتها المجهولة .

وإني لأعتذر كثيرا إذ أني أطلت في ذكر حياتي وملابساتها ، وما هي في الحقيقة بأحسن من غيرها .

لكنّ البـلاد إذا اقشعرّت وصوّح نبتها رعي الهشيم

ويعلم الله كم يخجلني أن أكون مثل بعض الأحبـاب — وهو الآن من الأموات (100) — إذ كان يكتب على « ورقة زيارته » أسماء كل (101) الجمعيات التي كان مشتركا فيها ، ويرسم با خر البطاقة (أنظر محوّله) لان وجه البطاقة غير كاف لاحتواء جميع الجمعيات والمؤسسات التي هو عضو فيها ولو أردت إحصاء الذوات البارزة وأعيان أحبابـي في الشرق والغرب للزمني دفتـر خاص ذو صفحات عديدة ، وفيما ذكرت كفاية — بل ربما كان من التطويل الممل .

وما أنزّه نفسي فإن النفس أمّارة بالسوء ، وإلى الله سبحانه أضرع أن يتغمّدني برحمة منه ، وان يستر عيوبـي ما ظهر منها وما بطن ، بفضله تعالى وكرمه .

مؤلفات باللغة العربية (102)

« بساط العقيق ، في حضارة القيروان وشاعرها إبن رشيق »

طبع تونس 1912

---

(100) بـ : كان .

(101) بـ : أسماء الجمعيات .

(*) جاءت هذه الفقرة في حاشية (1) وقد وضعها الفقيد للتعليق على كل كلامه السابق وقد رأينا من المفيد إدراجها في النص العام ولمقارنتها بنص بـ . ونحن لا نعلم إن كان ناسخ نص بـ قد نقلها من الحاشية إلى النص العام .

(*) لا توجد في نص بـ .

(102) م : لم تذكر تاريخ نشرها ولا مكانه .

« المنتخب المدرسي من الأدب التونسي » (103) ط. أولى 1908 بتونس ، وثانيه في المطبعة الاميرية المصرية (104) 1944

« خلاصة تاريخ تونس » ط. أولى : تونس 1918 — وثانيه وثالثه بتونس 1953

« الارشاد إلى قواعد الإقتصاد » طبع تونس 1919

« شهيرات التونسيات » — طبع تونس أولى 1934 — وثانية بتونس 1966

« ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (105) (جزء أول ط. تونس 1965

ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (جزء ثان) ط. تونس 1966

« الإمام المازري » (ترجمة حياته مع بحث عن تسلسل السند العلمي بتونس من لدن الفتح العربي) (106) 1955

نشريات محقّقة

« رسائل الإنتقاد » (مقامات في النقد الأدبي) لمحمد بن شرف القيرواني ط. دمشق 1912

« ملقى السبيل » (في الوعظ والحكم) لأبي العلاء المعري

ط. دمشق 1912

---

(103) ذكر في المرتبة الثالثة من نص بـ وكذا في م .

(104) بـ : العصرية .

(105) ذكر بعد ترجمة الإمام المازري في نص بـ ؛ ولم يذكر في م الذي لم يذكر ترجمة الإمام المازري .

(106) بـ : منذ الفتح ...

« أعمال الأعلام » (قسم تاريخ إفريقية وصقلية) لإبن الخطيب الأندلسي (107) — مهرجان ميكالي أماري— بلرمو بصقلية (108) 1910

« وصف إفريقية والأندلس » لإبن فضل الله العمري
ط. تونس 1920

كتاب « يفعول » (بحث لغوي للصاغاني (109)
ط. تونس 1924

« التبصّر بالتجارة » للجاحظ ، ط. (110) بدمشق 1933 ، وثانية بمصر 1935 ، وثالثة ببيروت 1966

« الجمانة في إزالة الرطانة » (111) (في لهجتي (112) الأندلس وتونس) لمجهول ، ط. المعهد العلمي بمصر

« رحلة التجاني » (113) (في البلاد التونسية وطرابلس سنة 707) لعبد الله التجاني ط. تونس 1958

« آداب المعلمين » مما دوّن محمد بن سحنون عن أبيه
ط. تونس 1350 (114) 1934

---

(107) م : لم يذكر هذا المؤلف وصاحبه .
(*) لا توجد في نص بـ .
(108) بـ : صقلية .
(109) م : تذكره بعد التبصرة بالتجارة للجاحظ .
(110) بـ : ط. أول بدمشق .
(111) م : لم يذكر هذا المؤلف بتاتا .
(112) بـ : في اللهجة الأندلسية والتونسية .
(113) بـ : قدمت في الترتيب على آداب المعلمين لسحنون .
(*) لا توجد في نص بـ .
(114) بـ : 1934 (1350) .

مصنفات وأبحاث باللغة الفرنسية (115)

— « La domination Musulmane en Sicile » — Tunis : 1905 (116)

— « Les apports ethniques étrangers en Tunisie » — Tunis 1917

— « Le développement (117) de la musique arabe » (en Orient, au Maghreb et en Espagne) (118) — Tunis 1918

— « Un témoin de la conquête arabe de l'Espagne » — Tunis : 1932

— « Un tournant de l'histoire aghlabite » (insurrection de Tombodhi) — Tunis : 1937 (119)

— « Deux dinars normands frappés à Mahdia » (120)

— « Villes arabes disparues de la Tunisie » (Mémorial W. Marçais)

— « La région des Steppes tunisiennes » (Gammouda) au moyen-âge — Tunis

— « Hommage à la mémoire de W. Marçais — Tunis : 1955 (121)

— « Le régime foncier en Sicile au moyen-âge (IXe et Xe s.) — Paris.

(*)هذا عدا ما نشر من الفصول في « دائرة المعارف الإسلامية » بالفرنسية ، وكذا من الأبحاث في المجلات العلمية والأدبية في المغرب والمشرق وفي أروبا(*).

---

(115) جاءت كلها بالعربية في نص بـ وباللغتين في نص م والغالب على الظن أن ح. ح. عبد الوهاب قد وضع العناوين باللغتين . فنقلها نص م كما وضعها واكتفى ناسخ نص بـ بعناوينها العربية . ومن المفيد أن نقارن بين ترجمتي بـ وم كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

(116) بـ : الإستيلاء الإسلامي على صقلية .
م : الإستيلاء على صقلية .

(117) بـ : تقدم ؛ م : تطور .

(118) م : En Tunisie وجاءت في نص بـ « الأندلس » .

(119) م : لا تذكر هذا المؤلف.

(120) بـ : بحث عن دينارين نرمانيين ضربا بالمهدية .
م : لم تذكره بتاتا .

(*) لا توجد في نص بـ الذي جاء فيه « ط باريس » دون ذكر تاريخ .

(121) بـ : لا تذكر تاريخه . أما « م » فإنه لا تذكره بتاتا .

(*) لا يوجد في نص بـ. ولا م .

مؤلفات باللغة العربية

"بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق" طبع تونس ١٩١٢

" المنتخب المدرسي من الادب التونسي" ط اولى ١٩٠٨ بتونس، وثانية في المطبعة الاميرية المصرية ١٩٤٤

"خلاصة تاريخ تونس" - ط أولى: تونس ١٩١٨ - وثانية ١٩٣٠ - وثالثة بتونس ١٩٥٣

" الارشاد الى قواعد الاقتصاد" ط. تونس ١٩١٩

" شهيرات التونسيات" - ط تونس أولى ١٩٣٤ - وثانية بتونس ١٩٦٦

" ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية (جزء أول) ط تونس ١٩٦٥

" " " " " (جزء ثان) " ". ١٩٦٦

"الإمام المازري" (ترجمة حياته مع بحث عن تسلسل العهد العلمي بتونس من فجر الفتح العربي) ١٩٥٥

نشريات محققة

" رسائل الانتقاد (مقامات في النقد الادبي) لمحمد بن شرف القيرواني ط دمشق ١٩١٢

" ملقى السبيل" (في الوعظ والحكم) لابي العلاء المعري " "

" أعمال الاعلام" (قسم تاريخ افريقية وصقلية) لابن الخطيب الاندلسي - مهرجان ميكالي أماري، بلرمو بصقلية ١٩١٠

" وصف افريقية والاندلس" لابن فضل الله العمري ط. تونس ١٩٢٠

" كتاب "يفعول" (بحث لغوي) للصاغاني " " ١٩٢٤

" التبصر بالتجارة" للجاحظ، ط بدمشق ١٩٣٢، وثانية بمصر ١٩٣٥، وثالثة ببيروت ١٩٦٦

" الجمانة في إزالة الرطانة" (في لهجتي الاندلس وتونس) لمجهول، ط المعهد العلمي بمصر

" رحلة التجاني" (في البلاد التونسية وطرابلس ٧٠٧هـ) لعبدالله التجاني ط. تونس ١٩٥٨

" آداب المعلمين" مادوّن محمد بن سحنون عن ابيه " " ١٣٥٠ (١٩٣٤)

مصنفات وابحاث باللغة الفرنسية

- "La domination Musulmane en Sicile" - Tunis : 1905
- "Les Apports Ethniques étrangers en Tunisie" " 1917
- "Le développement de la Musique arabe" (en Orient, au Maghreb et en Espagne) Tunis 1918
- "Un témoin de la Conquête arabe de l'Espagne" - Tunis 1932
- "Un tournant de l'histoire aghlabite" (insurrection de Tombodhi) Tunis 1937
- "Deux dinars normands frappés à Mahdia" " 1930
- "Villes arabes disparues de la Tunisie" (Mémorial W. Marçais)

تعليق على اقدم ترجمة لابن ابى الضياف ونصحيح لسنة ميلاد هذا الكاتب

بقلم : أحمد عبد السلام

قد تتم استفادة القراء من « أقدم ترجمة لإبن أبـي الضياف » التي نشرها الأستاذ المنصف الشنوفي في العدد الخامس من حوليات الجامعة التونسية بمعرفة ما يلي :

(1) إن محمد السنوسي قد كان في سنة 1873/1231 محرّرا بالرائد التونسي بالإضافة إلى وظائف أخرى كان فيها مساعدا لمحمّد بيرم الخامس . فليس من الضروري أن ينسب إلى هذا الأخير نقل الترجمة من « مجمع الدّواوين التونسية » .

(2) إن الترجمة المذكورة أفرغت في مقال نشر بالرائد التونسي المؤرخ بيوم الأحد 23 أكتوبر 1291/4 أكتوبر 1874 جاء فيه نعي ابن أبـي الضياف بالصورة الاتية :

« فجعت أهل الحاضرة في ظهرية يوم الثلاثاء الماضي بوفاة الهمام النحرير المفخم أمير الأمراء الشيخ أبـي العباس أحمد بن أبـي الضيـاف وشيعت جنازته بالإحتفال اللائق بمقامه وفضائله صبحية أمس في الساعة الرابعة قبل الزوال

ودفنت في تربة اباثه الكائنة في جوار جامع صاحب الطابع وقد شرف منزل المتوفى رحمه الله جناب المعظم الارفع سيدنا ومولانا أدام الله تعالى حفظه وأورثه من طول العمر أوفر حظه وشيع الجنازة جناب المولى الوزير الأكبر وسائر الوزراء وأعيان أمراء العساكر ورجال الدولة وهم الذين باشروا تلحيده برد الله ثراه وجعل الجنة مثواه والمشهور عنه رحمه الله أنه تجاوز سنّ الاثنتين وسبعين سنة بلغها الله وزيادة كلا من مطالعي هذه الأسطر ولما كانت سيرة هذا الشهم الذي تتفاخر بأمثاله الامم وتأسفت على فقده قلوب ذوي الهمم مما ترتاح إلى معرفته كلّ نفس ذكية وعثرنا على ترجمة له في مجمع الدواوين التونسية الخ ...

(3) تصحيح لتاريخ وفاة ابن أبي ضياف .

ولتكن هذه مناسبة لتصحيح تاريخ ميلاد ابن أبي الضياف فالمشهور أنه ولد في عام تسعة عشر ومائتين وألف » كما جاء في المقال المذكور . وهو ما نقله سائر مترجمي المؤرخ التونسي . غير أنّ جميعهم غفلوا فيما أعلم عن تصويب جاء في العدد الموالي من الرائد التونسي المؤرخ بيوم الخميس 12 رمضان المعظم 1291 (22 أكتوبر 1874) ونصه :

تنبيه : وقع خطأ في تاريخ ولادة المرحوم الشيخ أبي العبّاس أحمد بن أبي الضياف المذكور في السطر الرابع عشر من أوّل ثالث صفحات الرائد الأخير وهو أن ولادة الشيخ برد الله ثراه كانت في عام سبعة عشر ومائتين وألف لا تسعة عشر كما هو مرقوم في الموضع المشار إليه فرأينا من الواجب أن ننبه على ذلك لأنه ينتج منه أن الشيخ شمله الله بواسع رحمته توفي وقد دخل في سن الأربع والسبعين .

(4) ولنا فيما يتصل بتراجم ابن أبي الضياف تنبيه نريد أن نقدمه للباحثين مجملا بهذه المناسبة . وهو أن لا يكتفوا بالتراجم التي يجدونها هنا وهناك وأن يستفيدوا من تاريخ ابن أبي الضياف لمعرفة المؤلف وتفاصيل حياته . فهو لم

يبخل علينا بالحديث عن نفسه . ثم إن الوثائق المحفوظة بخزينة الدّولة التونسية وفي غيرها تلقى أضواء أخرى على شخصية هذا الكاتب وتفكيره . وقد نشرت رسائله لخير الدين وسنقوم بنشر رسائله لمصطفى خزنة دار إن شاء الله .

(5) جاء في مقال السنوسي خطأ فيما يتصل بتاريخ تعيين ابن أبـي الضياف كاتبا بديوان الانشاء وقد كان ذلك في شوال 1242 (أفريل 1827) لا في ذي القعدة 1241 (أنظر إتحاف أهل الزمان ، طبعة كتابة الدّولة للشؤون الثقافية ، ج 3 ، ص 159) . والله ولي التوفيق .

أحمد بن عبد السلام

شعر ابن رشيق

بقلم : الشاذلي بو يحيى

حظيت دراسة ابن رشيق وشعره منذ عشر سنين تقريبا بكتابين للدكتور عبد الرحمان ياغي كنّا تناولنا أحدهما بالنقد (1) وهو « حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها » ووعدنا إذّاك بالتعريف بالثاني منهما وهو مجموعة لشعر ابن رشيق بعنوان « ديوان ابن رشيق القيرواني » (2) .

ولعلّ مؤلّفهما أخرجهما معاً إذ هما ثمرة مجهود واحد في دراسة ابن رشيق وعصره وتراثه الأدبيّ مع جمع ما تيسّر للمؤلّف من شعر شاعر القيروان زمن المعزّ بن باديس .

ولقد بسطنا في نقد كتاب « حياة القيروان ... » ما بدا لنا فيه من نقص وتقصير في البحث وتحامل على ابن رشيق وسوء فهم لنفسيّته ومذهبه في الشعر مع إنصافنا المؤلّف لما بذله من جهد في مراجعة جلّ مصادر دراسة ابن رشيق وما يحيط به . وهذا الجهد هو الذي مكّنه من جمع شعر كثير لابن رشيق كان مبعثرا ما بين المخطوطات والمطبوعات من كتب الأدب .

---

(1) بالعدد الثاني من « حوليات الجامعة التونسية » سنة 1965 ص 233—244 .

(2) ط. دار الثقافة . بيروت . بلا تاريخ . في 232 ص .

فلقد احتوت هذه المجموعة ــ حسب حصر المؤلّف (3) ــ اثنين وأربعين وسبعمائة 742 بيت في ثلاث عشرة ومائتي 213 قصيدة ومقطوعة (4) بينما بلغ عدد ما كان جمعه عبد العزيز الميمني الراجكوتي في كتاب « النتف » (5) ستة وتسعين وأربعمائـة 496 بيت في خمس وخمسين ومـائة 155 قصيدة ومقطوعة (6) . وجلّ هذه القصائد والقطع في كلتا المجموعتين مقتضب لم يروه الرواة كاملا بل اقتصروا منه على أبيات منفردة أو نتف أو قطع قد تطول وقد تقصر إلا أنها في معظمهـا ناقصة فتلف بذلك من شعر ابن رشيق أكثره .

والحقّ أنّ أوّل من اعتنى بجمع بعض شعر ابن رشيق ــ بعد فقدان ديوانه ــ هو شيخنا المرحوم حسن حسني عبد الوهّاب في « بساط العقيق » (7) ثم تلاه عبد العزيز الميمني في كتاب « النتف » على أنّ الذي قصد إلى الاستقصاء في ما هو موجود من شعر ابن رشيق إنما هو الدكتور ع.ر. ياغي في مجموعته التي نشرها بعنوان « ديوان ابن رشيق القيرواني » . ولئن هو زاد على ما جاء في « البساط » وفي « النتف » عددا كثيرا من أبيات ابن رشيق فإنّه لم يستقص كلّ ما هو موجود من هذا الشعر في كتبٍ منها ما لم يزل مخطوطا ومنها ما هو مطبوع . وسنثبت ها هنا في نهاية هذه العجالة في التعريف بما نشر من شعر ابن رشيق ما عثرنا له عليه عرضا من شعر أثناء بحثنا لإعداد الكتاب الذي خصّصناه لدراسة « الحياة الأدبيّة بإفريقية زمن بني زيري » (8) .

(3) ع. ر. ياغي في مقدمة « الديوان » ص 11 .

(4) 743 بيت و214 قطعة حسب المؤلف . إلا أن عدد 125 أعيد ثانية في عدد 154 .

(5) « النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين » ط. القاهرة سنة 1343هـ .

(6) ع. ر. ياغي في مقدمة « الديوان » ص 11 .

(7) « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ط. تونس 1330هـ . خاصة من ص 64 إلى ص 77 .

(8) أطروحة دولية بعنوان : « La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides » تمت مناقشتها أمام جامعة باريس في جوان 1969 وهي جاهزة للطبع .

ثمّ إنّ الجدير بالملاحظة أنّ ابن رشيق كان له ديوان هو مفقود اليوم ذكره ابن خلّكان في ترجمة ابن يعيش النحوي (9) – لا في ترجمة ابن رشيق كما يزعمه الدكتور ياغي خطأً – (10) . ويستفاد من كلام ابن خلّكان أنّ ديوان ابن رشيق الذي كان بين يديه ناقص هو الآخر . فقد جاء في هذا الحديث من كتاب الوفيات ما نصّه : « وكان الشيخ موفّق الدّين المذكور [يعني ابن يعيش] كثيرا ما ينشد منسوبا إلى أبي علي الحسن ابن رشيق المقدّم ذكره ثم كشفت ديوانه فلم أجد هذه الأبيات فيه والله أعلم وهي : [ثمانية أبيات من جملة أحد عشر بيتا وردت في كتاب « العمدة » – ج 2 ص 162 – وفي مصادر أخرى ممّا لا يترك مجالا للشك في كونها لابن رشيق وفي نقص الديوان المذكور] .

ولسنا ندري بالضبط حجم الديوان الأصليّ ولكن لا شك في أنّه ديوان ضخم لِـمَا نعلم من كثرة ما كان ينظمه ابن رشيق من الشعر منذ الصبى أثناء حياته الطويلة الخصيبة حيث كان اشتهاره بشعره أكثر منه بنثره وهو شهير (11) . فلا غرو إذن أنّ ما بين يدينا من هذا الشعر قليل من كثير .

وقد اجتهد ع . ر. ياغي في تخريج أبيات مجموعته بأن أشار إلى المصادر التي وردت فيها غير أنّ ذلك جاء في شيء غير قليل من الاضطراب والإهمال . فمن ذلك مراجع إلى كتب لم يذكر صفحاتها (12) وأخرى غالطة (13) أو

(9) « وفيات الأعيان » ج 6 ص 50 من ط. القاهرة سنة 1948 .

(10) مقدمة « الديوان » ص 10 تعليق عدد 3 .

(11) خصصنا في كتابنا المشار إليه دراسة ضافية لابن رشيق ولشعره ولشتّى ألوان إنتاجه الأدبي . انظر أيضا فصل « ابن رشيق » بدائرة المعارف الإسلامية Encyclopédie de l'Islam بالفرنسية (والإنقليزية) الطبعة الجديدة ج 3 ص 927–928 بقلم الشاذلي بويحيى .

(12) مثلا ص 150 : البساط . وص 154 : العمدة ج 2 بدون تحديد الصفحة منهما .

(13) مثلا ص 219 : « القراضة ص 13 » والصحيح ص 29 ؛ ص 220 : « القراضة ص 2 » والصحيح ص 13 .

لا جدوى من ورائها (14) . وأهملت مراجع كثيرة إلى كتب يجهلها المؤلف وأخرى يعرفها فاستعملها أحيانا ولم يفد منها أحيانا أخرى كإهماله مثلا ذكر «الوافي بالوفيات» للصفدي في تخريجه القطعة 68 حيث تختلف رواية هذا الرجز وتعليق الصفدي عليه اختلافا جوهريّا عمّا ورد في الديوان وهو (15) :

« وقال رجزا في الصبح :

كأنّما الصبح الذي تفرّا ضمّ إلى الشرق النجوم الزهرا
فاختلطت فيه فصارت فجرا »

بينما جاء في « الوافي بالوفيات» (16) :

« ... قول ابن رشيق يصف ليلا :

كأنّما ضمّ النجوم الزهرا فاجتمعت فيه فصارت فجرا » (17)

فلا يتّفق مثل هذا النقص – وهو غير قليل – وما يدّعيه المؤلّف من عمل جليل في ذكر المراجع واختلاف الروايات (18) . خذ لذلك مثلا القطعة الرابعة من « الديوان » (19) حيث جاءت كما يلي :

« وقال في ركوب البحر :

أمرتني بركوب البحر مجتهـدا وقد عصيتك فاختر غير ذا الداء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته ولا المسيح أنا أمشي على الماء »

(14) مثلا ص 220 قوله : « انظر شعر ابن المغلس في صفة الدستنبوبة » بلا تحديد لموطن هـذا الشعر . وإنما اقتصر المؤلف على استعمال قول ابن رشيق نفسه في القراضة وقد أشار إلى الشبه بين بيتين له وأبيات لابن المغلس (قراضة الذهب ط. الخانجي ص 12–13) . والحق أننا كنا بحثنا أيضا عن أبيات ابن المغلس هذه عند إعدادنا قراضة الذهب للطبع فلم نعثر عليها واعتذرنا لذلك .

(15) ص 76–77 .

(16) ج 3 ص 265 من المطبوع . ويبدو أن المؤلف لم يرجع إلى ما لم يزل مخطوطا من الوافي وهو أكثره .

(17) وجاء هذا الرجز على ما عليه رواية « الديوان » في « بساط العقيق » ص 65 ولم يذكره المؤلف في تخريجه .

(18) المقدمة ص 11 . وفي كتابه : « حياة القيروان ... » ص 329 .

(19) ص 24 .

وذكر المؤلّف في تخريجها « طراز المجالس » و « معجم السلفي » ولم يذكر « المطرب » لابن دحية وهو من الكتب التي اعتمدها (20) . ورواية « المطرب » تختلف اختلافا كبيرا عمّا ورد في هذا « الديوان » . فهي (21) :

« وأمر بعض الملوك ابن رشيق بركوب البحر فخاطبه بهذا الشعر :

أَمَرْتَنِي بِرُكُوبِ البَحْرِ فِي عَجَلٍ
غَيْرِي فَدَيْتُكَ فَاخْصُصْهُ بِذَا الرَّاءِ (22)
مَا أَنْتَ نُوحٌ ... (البيت) » (23) .

ولئن جاءت أبيات هذه المجموعة مرتّبة على القوافي فإنّ المؤلف لم يضبط ترتيبها داخل القافية الواحدة حسب الحركات . كما يلاحظ فيها أيضا بعض الخلل كأن يجمع المؤلّف بين قطعتين من قصيدة واحدة مُوهِماً بذلك أنهما تتتابعان وهما منفصلتان وفصلُهما كما جاء في الأصول المعتمَدة يفيد أن القطعة ناقصة وأنّ المعنى غير متسلسل (24) . وكان يقطّع البيت على غير مصراعيه (25) وكان يتكرّر ذكر البيت الواحد في موضعين (26) . وقد اجتهد فشكل الأبيات شكلا تامّا صحيحا في أغلبه رغم غموض المعنى الناشىء أحيانا

---

(20) انظر ص 229 في ما سماه « توضيح المصادر » حيث يشير إلى نسخة مصورة بينما كتاب المطرب مطبوع منذ سنة 1954 بالقاهرة .

(21) « المطرب » ط. القاهرة ص 65 .

(22) تعليق بالمطبوعة : الراء هو الرأي .

(23) تختلف كذلك رواية آخر بيت من القطعة التي ختم بها إبن رشيق كتاب العمدة (ط. القاهرة 1955 ج 2 ص 316) مخاطبا ولي نعمته ابن أبي الرجال عما اختاره جامع « الديوان » (في عدد 160 ص 174) . ورواية كتاب العمدة : « لا تحسب » أصح من روايته : « لا تحسن » كذلك في البيت السابق نفضل شكل ناشر العمدة للفعلين : « أشدت » و« نسخت » على ما رسمه جامع الديوان من صيغة المتكلم عوض صيغة المخاطب : « أشدت » و« نسخت » .

(24) عدد 142 ص 154—155/العمدة ج 2 ص 169 .

(25) عدد 108 ص 118 :

ربما هاجر الفتى من يصا   فيه ولاقى بالبشر من لا يصافي

والصواب :

ربما هاجر الفتى من يصافيـ   ـه ولاقى بالبشر من لا يصافي

(26) يحذف البيت عدد 125 ص 136 لأنه أثبت في عدد 154 ص 168 وهو محله . فيكون عدد ما بالديوان من القطع 213 لا 214 . انظر التعليق عدد 4 أعلاه .

عن فصل البيت أو الأبيات المرويّة عن بقيّة القطعة كما أنّه وفّق غالبا في تحقيق النصّ (27) .

وفي ما يلي شعر لابن رشيق عثرنا عليه أثناء مطالعاتنا لم يَحْتوِ عليه « الديوان » الذي جمعه الدكتور ع. ر. ياغي . نرتّبه على حروف المعجم ونذكر بحوره وتخريجه من المصادر المخطوطة والمطبوعة الوارد فيها . وهو ستّة وخمسون 56 بيتا في ثماني عشرة 18 قطعة (من بينها ثلاثة أشطر) (28) :

قافية الباء

— 1 —

(قال في هجاء ابن شرف) :

[متقارب]

1 بَنُو شَرَفٌ أُمُّهُمْ وَلَيْسَتْ أَبَاكُمْ فَلَا تَكْذِبِ
2 وَلَكِنَّهَا الْتَقَطَتْ شَيْخَكُمْ فَأُثْبِتَ فِي ذَلِكَ الْمَنْصِبِ
3 أَبِينُوا لَنَا أُمَّكُمْ أَوَّلاً وَنَحْنُ نُسَامِحُكُمْ بِالأَبِ

الوافي بالوفيات للصفدي ط . دمشق 1953 ج 3 ص 97 .

---

(27) مع بعض الملاحظات :
في البيت الأول من القطعة الأولى ص 16 : تفخَــر لا تفخُــر وكذلك في البيت الأول من القطعة عدد 4 ص 24 : عصيتك لا عصيتك (وظاهر أنهما من الأغلاط المطبعية . فنبهنا إلى ذلك) . ونفضل في البيت الثاني من عدد 16 ص 32 : « خلونا بها ننفي الكرى عن عيوننا » عوض : « ننفي القذى » . وفي المطرب : « الكرى » وهو من مصادر المؤلف .
ونقترح في البيت الثاني من عدد 26 ص 41 : « فلأمنعن جفونه طيف الكرى » عوض : « فلامتعن » (ولعله غلط مطبعي أيضا) و« طيف » عوض « طيب » .
وفي البيت الثاني من عدد 28 ص 42 نقترح : « وما اللهو إلا حلم يقظان صادق » عوض « وما اللهو إلا حلم يقظان صادق » .
وفي البيت الأول من عدد 40 ص 54 : « أيها الليل طل بغير جناح » نقترح جناح بضم الجيم عوض جناح بفتحها .
وفي البيت الأول من عدد 82 ص 90 نقترح : « سقى الله أرض القيروان وصبرة » عوض : « وقبره » .
وفي البيت الأول من عدد 103 ص 112 :
« موز سريع أكله من قبل مضغ الماضغ »
نقترح « من قبل » عوض « من قبل » .

(28) فيصير بذلك عدد المعروف من شعر ابن رشيق ثمانية وتسعين وسبعمائة 798 بيت .

— 2 —

وقال [عبد الله بن محمد الجراوي] يوما وقد تعدّى المعزّ في موكبه بالقيروان :

[بسيط]

لله درّك من ابن لخير أب

فقلت (أي ابن رشيق) :

4 مَا أشْبَهَ الشِّبْلَ بِالضِّرْغَامَةِ الدَّرِبِ

فقال :

هذا المعزّ لدين الله محتسب

فقلت (أي ابن رشيق) :

5 لاَ مَنْ سِوَاهُ وَلَيْسَ الْإسْمُ كَاللَّقَبِ

الوافي بالوفيات . مصوّرة كايطاني . رومة . ج 15 ص 127 .

قافية الدال

— 3 —

[رجز مجزوء]

6 وَنَسِـيَ الْحَمْدَ فَمَا مَرَّتْ لَهُ عَلَى خَلَدْ

العمدة ط . القاهرة 1955 ج 2 ص 92 (29) .

(29) فيما يلي نص العمدة الذى استنبطنا منه ان البيت لابن رشيق [قال فى كلامه عن التمليط] :
« وربما ملط الأبيات شعراء جماعة كما يحكى أن أبا نواس والعباس بن الأحنف والحسين بن الضحاك الخليع ومسلم بن الوليد الصريع خرجوا فى متنزه لهم ومعهم يحيى بن المعلى فقام يصلي بهم فنسي الحمد وقرأ (قل هو الله أحد) فأرتج عليه فى نصفها فقال أبو نواس :
أجيزوا : أكثر يحيى غلطا في قل هو الله أحد
فقال عباس :
قام طويلا ساهيا حتى إذا أعيا سجد
فقال مسلم بن الوليد :
يزحر فى محرابه زحير حبلى بولد
فقال الخليع :
كأنما لسانه شد بحبل من مسد
وأنشدني بعض أصحابنا هذه الأبيات على طريق الاستملاح لها والاستطراف بها وقال : هذا الذي يعجز الناس عنه فقلت : فما بال عباس وأبي نواس لم يقولا بعد البيت الأول :
ونسي الحمد فما مرت له على خلد
ولا سيما وقد كان ذلك حقيقة وكذلك جرت الحكاية . فقال : ولمن البيت ؟ فقلت : لابن وقته » (العمدة ج 2 ص 92) .

— 4 —

[خفيف]

7 قَدْ خَرَجْنَا بِنِيَّةِ الْغَيْثِ نَسْتَسْـ
ـقِـي وَقَدْ أَوْحَشَتْ وُجُوهُ الْبِلاَدِ

قراضة الذهب ص 50 من ط . الخانجي . القاهرة 1926 . و168 ظ . من مخطوطة باريس الّتي أعددناها للطبع (30) .

— 5 —

قال ابن رشيق : « أنشدته (31) لي في أبخر :

[طويل]

8 وَأَخْشَمَ إنْ مَثَّلْتَ فَاهُ وَأَنْفَهُ
فَإِنَّهُمَا ضِدَّانِ لِلْمِسْكِ وَالنَّدِّ

9 لَهُ نَكْهَةٌ بَخْرَاءُ بَعْدَ انْتِشَاقِهَا
تَصَدَّعَ مُجْتَازُ الذُّبَابِ عَلَى بُعْدِ

الوافي بالوفيات مخطوط عدد 4849 بجامع الزيتونة . تونس . ج 17 ص 174

— 6 —

[بسيط]

10 اللَّهُ بَاقٍ وَكُلٌّ هَالِكٌ مُودِي
وَالْمَوْتُ لَيْسَ عَلَى حَالٍ بِمَرْدُودِ

(30) هذا البيت أول أبيات ثلاثة لم يذكر منها ياغي في الديوان إلا الثاني والثالث (عدد 60 ص 69) نقلا عن القراضة ! والذي أوقعه في هذا السهو هو أن ناشر القراضة (ط. الخانجي) لم ينتبه إلى أن هذا البيت شعر فظنه بقية كلام ابن رشيق المنثور وضمه إليه لا إلى البيتين الذين أوردهما بعد ذلك .

(31) يعني الشاعر القيرواني المعروف بالدركادو . انظر دراسة حياة الدركادو وشعره في كتابنا « الحياة الأدبية بإفريقية زمن بني زيري » (تحت الطبع بالفرنسية) .

11 فَانْظُرْ وَإِنَّكَ فِي الدُّنْيَا عَلَى خَطَرٍ
مَا يَفْعَلُ الدَّهْرُ فِي صُمِّ الْجَلاَمِيدِ

12 [وَقَدْ] رَمَاهَا الْعَنَا فِي دَارِ غِبْطَتِهِ
إِذَا اسْتَفَادَ بِلَى مِنْهَا بِتَجْدِيدِ (32)

13 هَذَا مُحَمَّدٌ الْمَحْمُودُ أَجْمَعُهُ
قَدْ خَلَّفَ الدَّهْرَ فِينَا غَيْرَ مَحْمُودِ

14 فَأَيُّ حَظٍّ مِنَ الْمَعْرُوفِ مُنْقَطِعٍ
وَأَيُّ رُكْنٍ مِنَ الْإِسْلاَمِ مَهْدُودِ

15 أَوْدَى ابْنُ عَبَّاسٍ الثَّانِي وَوَارِثُهُ
دُنْيَا وَعِلْماً وَفَضْلاً غَيْرَ مَجْحُودِ

16 أَوْدَى وَلَمْ يُبْقِ شَيْئاً كَانَ يَمْلِكُهُ
إِلاَّ بُيُوتاً كَأَمْثَالِ الْمَسَاجِيدِ

17 مَنْ لاَ يَرُدُّ ضَعِيفاً عِنْدَ مَسْأَلَةٍ
وَلاَ يُرَى وَهْوَ ثَانِي الْعِطْفِ وَالْجِيدِ

18 فَلْيَبْكِهِ كُلُّ مَلْهُوفٍ لِحَاجَتِهِ
وَكُلُّ مُعْفًى عَنِ الأَبْوَابِ مَطْرُودِ

19 لَهُ التَّقَدُّمُ فِي فَرْضٍ وَنَافِلَةٍ
عَلَى أَيِمَّتِنَا الْغُرِّ الصَّنَادِيدِ

20 فَمَا رَأَيْتُ مَصَابِيحَ الْهُدَى اجْتَمَعُوا
إِلاَّ وَأَلْقَوْا إِلَيْهِ بِالْمَقَالِيدِ

المدارك للقاضي عياض . ط. الدكتور أحمد بكير . بيروت 1967 ج 4 ص 710–711 في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبّاس الأنصاري المعروف

(32) « وقد » مفقود في نص المدارك فرأينا زيادته ليستقيم الوزن .

بالخوّاص . قال عياض : « ... وتوفي سنة 28 [4] ورثاه أبو علي بن رشيق بقصيدة أوّلها : الله باق ... [الأبيات] » .

— 7 —

[رمل]

21 أَنْتَ فِي حِلٍّ وَفِي سَعَةٍ   مِنْ دَمِـي يَا مَنْ تَقَلَّدَهُ

الوافي بالوفيات . مخطوط عدد 4843 بجامع الزيتونة . تونس . ج 2 ص 193 .

قافية الراء

— 8 —

[رجز]

22 يَذْهَبُ مَوْجاً وَيَجِـيءُ بَدْراً

حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص 84 .

— 9 —

[مجزوء الكامل]

23 يَـا مَنْ يَتِيـهُ بِعَارِضَيْـ
ـهِ يُرِيدُ بِالْعُشَّاقِ شَـرّاً
24 مَا كُنْتَ تَصْلُحُ فِي الْجَدِيـ
ـدِ فَكَيْفَ تَصْلُحُ فِـي الْمُطَرَّى

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري . مخطوط باريس عدد 2327 ج 17 ورقة 40 و .

— 10 —

[خفيف]

25 مَلِكٌ بَلَّ بِالدِّمَاءِ ثَرَى الْأَرْضِ
فَمَا لِلْجُيُوشِ فِيهَا غُبَارُ

الوافي بالوفيات . مخطوط عدد 4849 بجامع الزيتونة . تونس . ج 17 ص 23 .

— 11 —

[سريع]

إِنْ قَصَّرَتْ عَنْ غَرَضٍ رَمْيَةٌ أَوْ زَلَّ فِكْرٌ أَوْنَبَا خَاطِرُ
27 لَإِنَّنِي فِيهِ عَلَى نِيَّةٍ يُخْبِرُ عَنْ بَاطِنِهَا الظَّاهِرُ

العمدة ج 1 ص 17 حيث : « لِأَنَّنِي فيه ... » . وظاهر من السياق أنّ البيتين لابن رشيق ضمّنهما في كلامه في خطبة الكتاب وإن لم ينصّ على ذلك صراحة .

— 12 —

[وافر]

28 أَقُولُ لِمَنْ يُسَائِلُ عَنْ مَحَلِّي
تَقَدَّمْ وَامْشِ مِنْ خَلْفِ السَّوَارِي (33)
29 وَمُرَّ فَحَيْثُ مَا تَلْقَى حِكَاكاً
بِسُرْمِكَ لاَ تَعَدَّ فَثَمَّ دَارِي

الوافي بالوفيات مخطوط عدد 4849 بجامع الزيتونة . تونس ج 16 ص 165

(33) بالأصل : « يسال » . والراجح ان البيتين لابن رشيق لا للصفدي رغم غموض عبارة النص .

قافية الغين (أو العين ؟)

— 13 —

[طويل]

30 سُرِرْتَ بِلَيْلٍ كَالْحِدَادِ لَبِسْتَهُ
وَسَاءَكَ صُبْحٌ كَالرِّدَاءِ الْمُصَبَّغِ (34)
31 وَمَا ذَاكَ إلاَّ لِلشَّبَابِ وَحُبِّهِ
وَكُرْهِ مَشِيبٍ نَاصِلٍ وَمُصَمَّغِ (35)

الوافي بالوفيات . مخطوط عدد 4851 بجامع الزيتونة تونس ج 24 ص 209 .

قافية اللاّم

— 14 —

[خفيف مجزوء]

32 اشْتَرَى خَنْجَراً لِقَتْـ ـلِي وَمَا ذَاكَ يَجْمُلْ
33 كَيْفَ يَمْشِي بِخَنْجَرٍ مَنْ بِعَيْنَيْهِ يَقْتُلْ

مسالك الأبصار للعمري . مخطوط باريس عدد 2327 ج 17 ورقة 40 و .

قافية الميم

— 15 —

(وافر)

34 أبَا مُوسَى شَهِدْتَ وَكُنْتَ عَدْلاً
مُزَكًّى حَيْثُ تَشْتَجِرُ الْخُصُومُ

(34) بالأصل : « المصبع » .
(35) بالأصل كلمة غير واضحة كأنها « مصمع » أو « مشمع » .

35 فَإِنَّكَ أَفْحَلُ الشُّعَرَاءِ طَبْعاً
إِذَا نَفَخَتْ شَقَاشِقَهَا الْقُرُومُ
36 صِرَاطُكَ مُسْتَقِيمٌ وَهْوَ صَعْبٌ
كَمَا صَعُبَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ

الوافي بالوفيات . مخطوط عدد 4850 بجامع الزيتونة تونس ج 21 ص 59 .

قافية النون

— 16 —

[مديد]

37 أَيُّهَا [ذَا] الْمُدَّعِي لَسَنَا
كُفَّ مِنْ عَذْلِي (؟) أَنَا وأَنَا (36)
38 أَرَأَيْتَ الضِّغْنَ كَيْفَ بَدَا
وَرَأَيْتَ الشَّرَّ كَيْفَ رَنَا
39 بِعْتَنِي وَكْساً بِلاَ ثَمَنٍ
كَيْفَ لَوْ أُعْطِيتَ بِي ثَمَنَا
40 لاَ تَزِدْ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي
إِنَّمَا الْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَا

الوافي بالوفيات . مخطوط عدد 4849 بجامع الزيتونة . تونس .ج 17 ص 206 .

— 17 —

[بسيط]

41 عَيْنَاكَ أَمْكَنَتِ الشَّيْطَانَ مِنْ خَلَدِي
إِنَّ الْعُيُونَ لَأَعْوَانُ الشَّيَاطِينِ

(36) البيت قليل الوضوح بالأصل . زدناه « ذا » للوزن . أما « عذلي » فكأنها « غربي » بالأصل . ويبقى العجز غامضا .

42 كَمْ لَيْلَةٍ بِتُّ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقٍ
أَشْكُو إِلَى النَّجْمِ حَتَّى كَادَ يَشْكُونِي

43 يا مَا أُمَيْلَحَهُ ظَبْيٌ فُتِنْتُ بِهِ
وَأَيُّ خَلْقٍ بِظَبْيٍ غَيْرُ مَفْتُونِ

44 يَجْلُو نَبَاتَ أَقَاحٍ مِنْ بَنَاتِ فَمٍ
يُسْمَى بِمِثْلِ بُنَيَّاتِ الزَّرَاجِينِ

45 وَوَجْنَتَيْنِ هُمَا تُفَّاحَتَا قُبَلِي
فَاتْرُكْ سِوَايَ وَتُفَّاحَ الْبَسَاتِينِ

46 فُتُونُ عَيْنَيْكَ تَنْهَانِي وَتَأْمُرُنِي
وَوَرْدُ خَدَّيْكَ يُغْرِي بِي وَيُغْرِينِي

47 أمَا لَئِنْ بِعْتُ دِينِي وَاشْتَرَيْتُ بِهِ
دُنْيَا لَمَا بِعْتُ فِيكَ الدِّينَ بِالدُّونِ

48 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لاَ وَاللَّهِ مَا نَفَعَتْ
فِي سِحْرِ مُقْلَتِهِ آيَاتُ يَاسِينِ

49 سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ قَاطِبَةً
تَرَاهُ صَوَّرَ ذَاكَ الْجِسْمَ مِنْ طِينِ

50 يَا أَهْلَ «صَبْرَةَ» وَالأَحْبَابُ عِنْدَكُمُ
إِنْ كَانَ عِنْدَكُمُ صَبْرٌ فَوَاسُونِي

51 إِنِّي أَدِينُ بِدِينِ الْحُبِّ وَيْحَكُمُ
وَاللَّهُ قَدْ قَالَ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ

52 مَوْلاَيَ لاَ تُشْمِتِ الْأَعْدَاءَ بِي وَإِذَا
نَسِيتَ قَوْلِيَ فَاذْكُرْ قَوْلَ هَارُونِ

53 حَاسِبْ هَوَاكَ بِمَا أَنْفَقْتُ مِنْ عُمُرِي
وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عُمْرِي كَنْزَ قَارُونِ

54 لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ نَفْسِي يَا مُعَذِّبَهَا
قَرَّبْتُهَا لَكَ فِي بَعْضِ الْقَرَابِينِ

من مجموعة بخطّ المقّري في مكتبة المرحوم حسن حسني عبد الوهّاب الخاصّة ص 137 .

ولا شكّ أنّ هذه القصيدة هي التي يشير إليها ابن بسّام في القسم الرابع – المجلّد الأول – من الذخيرة ص 224 عند الحديث عن أبيات قالها الشاعر القيرواني ابن فضّال الحلواني (37) . يظهر ذلك من مقارنة القصيدتين فلهذا رأينا أن نثبت هنا كلام ابن بسّام وأبيات الحلواني نقلا عن الذخيرة : ص 223 : « وقال [الحلواني] :

رُضابُ ثغرك يُضنيني ويَشفيني وسحرُ عينيكَ يُغويني ويغريني
وفي تثنّيك معنًى لا يَقوم به ما في الغصون من الإرهاف واللين

(وبعد استطراد قصير يقول ابن بسّام) :

ص 224 « وفي هذه القصيدة يقول الحلواني :

إذا وصفتك باللّحظ الفتور فمَن
قَدَّ القلوبَ بأطراف السكاكين ؟

وإن نعتُّك بالغُصن الرطيب فمَا
في الغصن ما فيك من كل الأفانين

جسمٌ من الماء لكن قلبُه حجرٌ
أستغفرُ اللهَ لم يُخلَق من الطين

(37) انظر ترجمته ودراسة شعره ونشره بكتابنا المذكور « الحياة الأدبية بإفريقية زمن بني زيري » تحت لفظ : الحلواني .

وما سمِعنا بغُصن مُثمرٍ قمـراً
تجمّعت فيه أشتاتُ الرياحيـن

الوردُ والآسُ والنِسرينُ مجتمـعٌ
فيـه وفيـه بنيّاتُ الزّرَاجيـن

لم يَرضَ عنّـي فؤادي من ضَنانتـِه
حتّـى مَسَحتُ به في كفّ ضِنّين

في حُبّ مَن لو رآني مِتّ من عطش
والنيلُ في يده ما كان يَسقيني

طمِعتُ فيـه وغَرّتني لواحظُـه
إنّ المطامعَ أسبـابُ الشياطين

قل لابن عشْرٍ وخُمْسَيْهَا من اين جرَتْ
سِهَامُ عينيك في قلبِ ابنِ سَبْعِينِ

ما حُجّتي عند من في الحبّ يَعذِلني
وآيـتي في نُبُوّات المجانيـن

إن كنتَ في الحبّ سلطاناً على كبدي
فَخَفْ عقوبةَ سُلطانِ السلاطين

أو كانَ عندك للمسكيـن مرحمـةٌ
فإنّ عبدَك مسكينُ المساكيـن

[قال ابن بسام] : وأراه عارض بهذه قصيدة ابن رشيق فضلّ عن الطريق . هذا وقد قلت إن له في النسيب أوفر نصيب ... » انتهى كلام ابن بسّام . والمعارضة ظاهرة في قصيدة الحلواني كلّها لفظا ومعنى ووزنا وقافية .

قافية الواو

— 18 —

قال أبو العباس الجرجاني بعد أبيات لأبي الفرج الاصفهاني في هجاء قاض : « وأحسن من هذا كلّه قول أبي علي بن رشيق القيرواني يهجو معزّ بن باديس [كذا] .

[منسرح]

55 سَيِّدُنَا لاَ يَنِي... حَتَّى   يُنَا... نَيْ... فِيهِ حَلاَوَه

56 كَالْفَأْسِ لاَ يَسْتَجِدُّ قَطْعاً   إِلاَّ وَفِي عَيْنِهِ هِرَاوَه

كتاب المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء . لأبي العباس الجرجاني . ط. القاهرة 1908/1326 ص 37 .

هذا ما عثرنا عليه عرضا من شعر لابن رشيق لم يُثبت في « ديوانه » . غفر الله له .

الشاذلي بويحيى

قصائد لابن هانى لم تنشر

بقلم : محمد اليعلاوي

يوجد في قسم المخطوطات من مكتبتنا الوطنيّة أربع نسخ من ديوان ابن هانىء الأندلسي ، إلى جانب مخطوطين يتضمّن الأوّل منهما نتفا ومتفرقات من شعره ، ويقتصر الآخر على إحدى قصائده المشهورة ، وهي القصيدة « الفلكيّة » :

أليلتَنا إذ أرسلَت واردا وحفا وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

وقد أضيفت إلى هذه النسخ نسخة أخرى كانت من ممتلكات المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ضمن مجموعة من الرسائل والمختارات الشعريّة .

وأهمّ هذه المخطوطات التونسيّة هو المخطوط عدد 13746 الذي أطلقنا عليه اسم : تونس 1 — ذلك أنّه أقدمها في التاريخ : فقد نقل في عام 1004 هـ/1594 م عن أصل كان نسخ — حسب ما جاء في ذيل المخطوط — سنة 608 هـ/1211 م. فهذا الأصل المنقول عنه أقدم نسخة مذكورة من ديوان الشاعر ، بجانب نسخة المتحف البريطانيّ التي يرى الدكتور زاهد علي ناشر الديوان أنّها كتبت في القرن السابع . فنسختنا إذن منقولة عن أصل قديم ، ولكنّه مفقود .

ونسخة « تونس 1 » هذه نفيسة من ناحية أخرى : ذلك انّها احتوت على عدد من القصائد والمقطوعات لم تنشر في أيّة طبعة من طبعات الديوان ، ولا

حتّى في أكمل طبعة ظهرت إلى اليوم ، ونعني طبعة الدكتور زاهد علي الحيدرابادي بالقاهرة سنة 1352هـ/1932م التي استندت إلى كلّ النسخ الموجودة في المكتبات الأوروبيّة وإلى نسخ خصوصيّة على ملك بعض شيوخ الإسماعيلية بالقارّة الهنديّة . وعنوان هذه الطبعة : « تبْيِينُ المعاني في شرح ديوان ابن هانىء » . وقد اطّلعنا على نسخ المتحف البريطاني ، والمكتبة الوطنيّة بباريس ، ومدريد ، ومكتبة الاسكوريال ، فلم نعثر عليها . فهي إذن قصائد تتفرّد بها نسخة تونس I عن نسخ أوروبا ، وحتّى عن بقيّة نسخ تونس التي يظهر أنّ أصلها واحد ، وهو مخطوط رقّمناه بـ« تونس 3 » .

ونهتمّ بهذه النسخة من ناحية ثالثة : خلوّها من القصيدة المشهورة بغلوّها وإفراطها في تقديس المعزّ الفاطميّ :

« ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار »

إلاّ أنّ مخطوطنا لم يتفرد بإهماله لهذه الرائيّة ، فقد خلت منها أيضا نسخة باريس ، ونسخة المرحوم ح. ح. عبد الوهاب . ونجد في هذه النسخة الأخيرة ملاحظة تبرّر ترك القصيدة وإهمالها . يقول الناسخ في مخطوط ح. ح. عبد الوهاب عدد 18624 — الورقة 7 — الوجه الثاني : « ... فمن قصيدة نسبت لابن هانىء الأندلسي : ما شئت لا ما شاءت ... البيت ومن قصيدة أخرى : ... ولطالما زاحمت تحت ركابة جبريلا . إلى غير ذلك ممّا يُستغفَر الله من ذكره ، ولا حاجة به . » فتركُها حينئذ مقصود لتطهير الديوان من الغلوّ الشيعي . وإنما هي عمليّة خاسرة لأنّ نسخا أخرى كثيرة أوردتها ، ومن جهة أخرى لأنّ الديوان يتضمّن أبياتا بل قصائد أكثر غلوّا من هذه .

خطّ نسختنا مغربيّ لا اعتناء فيه ولا تنظيم ، يعسر فهمه في كثير من الأحيان ، قد حلاّه الناسخ بحركات وعلامات لا علاقة لها بالنّصّ في الغالب ، والفصل بين الصدر والعجز في البيت نادر . تتألّف كلّ صفحة وحجمُها 26×19 من اثنين وعشرين بيتا ، ما عدا العناوين التي كتبت بخطّ

غليظ . القصائد مرتبةٌ بحسب الرويّ على النظام الأبجدي : أ ــ ب ــ ت ــ ث الخ ... والقصائد التي رأينا أنْ ننشرها يحمل بعضُها في نصّ التقديم عبارة : « وقال من غير الأصل المنقول عنه » . فنستنتج منها أنّ الأصل الذي نقلت عنه نسختنا لم يكن حاويا لجميع ما قاله ابن هانىء ، وأنّ هناك قصائد ومقطوعات ضاعت عن أوّل جامع للديوان ، ولعلّه الشاعر نفسه . ولا يخفى علينا أنّ هذه الإضافات تحمل على التساؤل في صحّة نسبتها إلى الشاعر . غير أنّ اللهجة والأسلوب ، وأسماء الممدوحين ، والإشارات التاريخيّة ، بالمقارنة مع قصائد الديوان المطبوع ، لا تدع شكّا في أنّ قائلها هو شاعرنا . وإنّما الشكّ والتساؤل في المقطوعات والأبيات المتفرّقة التي ننوي نشرها في عدد مقبل من الحوليّات إن شاء الله تعالى .

محمد اليعلاوي

I

القصيدة عدد 66 من مخطوط تونس 1 . الورقات 68 ب إلى 70 ب . قد نشر منها زاهد علي في ديوان « تبيين المعاني » عشرة أبياتٍ نقلها عن المطمح لابن خاقان .

تمتاز القصيدة بوصف مُطوّل مدقّق للخيل ، وهو غرض كثيرا ما طرقهُ الشاعرُ (انظر القصائد 23 — 37 — 41 — 53 — 58 من طبعة زاهد علي) ويظهرُ أنّ جعفراً أميرَ الزاب كان شغوفاً بالخيل الأصيلة ، فأهدى إليه أخوه — وكان يحارب بعض القبائل الخارجة على الفاطميّين — نماذجَ منها . وجعفر ويحيى ابنا الأندلسيّة هما أميرَا المسيلة وولاية الزّاب من قِبل الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين الله .

وقال من غير الأصل المنقول منه يمدَحُ جَعْفَراً : (طويل 3)

ألا أيّها الوادي المقدّس بالندى
وأهل الندى ، قلبي إليك مشوق

ويا أيّها القصر المنيف قبابه
على الزّاب ، لا يُسْدَدْ عليك طريق

ويا ملِكَ الزّاب الرّفيعَ عمادُه
بقيتَ لجمع المجد ، وهو فريق

على مالك الزّاب السلام مردّدا
وريحان مسك بالسلام فتيق

5 خليليّ من يهدي إليه تحيّتي
سقاه الحيا الوسميّ ، وهو غريق

فما أنس لا أنسَ الأمير إذا غدا
يروع بمرأى ملكه ويروق

ولا الجودَ يجري في صفيحة وجهه
إذا لاح من ذاك الجبين شروق

وهزّتَه للمجـد حتى كأنما
جرت في سجاياهُ العِذَابِ رحيق

كثيرُ دليلِ الخيرِ في الوجهِ واضحٌ
جميلُ المحيّا ، واللسانُ طليق

أما وأبـي تلك الشّمائـل ، إنـّها
دليل على أنّ النِّجَارَ عتيـقُ

فكيف بصبر النفس عنه ، ودونه
من الأرض مغبرّ الفجاج عميق

وموحشة الأقراب (1) يبدو سرابها
كما قُيِّدْت بين الفِحَالَةِ (2) نوق ؟

حلفت له بالرّاقصات يهزُّها
إلى الله وخْدٌ دائم وعنيق (3)

لقد بات يسري في جنوبك لابسا
لعزمك ، طَبُّ بالجياد رفيق

فسار وسارت خلفه وأمامه
غمائم نصر تحتهنّ شروق

وتسعةُ آلاف عليهـا عجاجة
مسوّمة راياتهـنّ خفوق

(1) الأقراب ج قرب وهو البئر القريبة الماء .
(2) الفحالة ج فحل : الذكر من الحيوان .
(3) العنيق نوع من سير الإبل .

شهاب من الهيجا بكفّك ثاقب
له خلف أفواه الدروب طريق

إذا كذب الناس اللقاء ، فعنـده
يقين كفرقان الكتـاب صدوق

عجبت لمن حال الرجـال بقربـه
ومن ظنّ أنّ العائقـات تعــوق

إذا طاعة الأعداء لم تشف صدره
شفاه صبوح مــن دم وغبـوق

به عرفت تلك الأعاريبُ قهرَهَا
فلا مارق يُخْشَى عليه مَرُوق

فقد غدتِ الآجام وهي حدائــق
وعاد زئير الليث وهو شهيـق

سننتَ ليحيى سُنَّةً يقتدى بها
فَفُتّ ، ومنه في الأمور لحوق

كأنّك منه قيدَ مرأى ومسمَعٍ
وإن هزَّهُ قلبٌ إليك خفـوق

يراك أمـام الجيش حتى كأنّه
حُذَيَّاكَ ثاوٍ أو إلَيْكَ لصيق

فلا هو عن مرآك فيـه مغيَّبٌ
ولا هو عن ذكراك فيه مُفيق

ويرضيك منه قُلَّبُ الأمر حُوَّلٌ
فَتوق لما يُعيي الأنــامَ رَتُـوق

أمنت على يحيى العدوّ ، ولم يكن
ليُرْفَعَ في ربّ العُقَابِ أَنُوقُ (4)

هو المرء لا ينفكّ يرحب ذرعه
لذا الرّوعِ ما دام المِكرُّ يضيق

فتى لا يصير الغمضُ بين جفونه
ولا طعمُه في ناظرَيه يروق

إذا الدّرعُ ذابت في الهجير ، حسبتَه
بفَيْءٍ له بين الفُرات حديق

كأنّ عليه من أذى القيظ كِلّةً
تُزَرّ إذا ما اشتدّ منه ودوق

تفوقُ وتعلو أنت بالله وحدَه
وباسمك يعلو قدرُه ويفوق

إليك أجاب الشرق عن صافناته
وعنه جوادٌ في الجياد عريق

من الدّهم ورد اللون شيبَ بكمتةٍ
كما شِيب بالمسك الفتيق خَلوق

فلو ميز منه كلُّ لون بذاته
جرى سَبَجٌ (5) منه وذاب عقيق

تهلّل مصقول النواحي كأنّه
إذا جال ماء المسك فيه غريق

---

(4) الأنوق : النسر وطير مثل الغراب .
(5) السبج : خرز أسود .

إذا جئتـــه من خلفـه وأمامه
تثاءب ضرغام وشال فنيق (6)

له منخر لا يملك البُهْرُ (7) أمـره
ولا مسرح الأنفاسِ فيه يضيق

وينصب للهيجاءِ سمعا كأنّه
سنان عتيد للطّعـان ذليـق

وينظر من عينَيْ رؤوم على طلا
تراعيه بالوعسـاء فهوَ يروق

ويخطو على صمّ خفاف ، وقوعها
ثقيلٌ يرُدّ الصّخرَ وهو فليق

تَنَافَسُ فيه أعينٌ ومسامعٌ
وتكبو رياح خلفـه وبُروق

فإمّا تشاهِدْه يجـارى فإنّــه
سينشقُّ عنه النقـعُ وهو سَبُوق

أما وأبـي الطّرفِ المجنّبِ إنّـهُ
حريٌّ بأن يَحْظَـى لديك خليق

فلا يشرَبَنّ المـاءَ وهو مكدّرٌ
ولا لبنَ الكَوْمَـاءِ (8) وهو مَذيقُ (9)

أأوصي به من علّم الناسَ بِرّها
ولا يتقفّى البِرّ منه عُقوق ؟

(6) الفنيق : الفحل من الخيل .
(7) البهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(8) الكوماء : الناقة إذا عظم سنامها .
(9) لبن مذيق : ممزوج بماء .

هو المـُكرِمُ الخيلَ الكريمَ نجارُها
وفارسـُها والمشرفِـيُّ دَلـوق (10)

ومـُسكنُها الآطامَ (11) وهي مـَشِيدَةٌ
ومـُلحفُها القُومـيَّ (12) وهو أنيق

وناتجـُها تـُعزَى إليه إذا اعتزت
عناجيـج (13) جـُردٌ كلـّهنَّ عتيق

ألا أيها الحقّ المبين الذي انتحى
على باطـل الأيـّام فهو زهوق

تعودتَ عاداتٍ من الخيـر ، كلُّها
بعيد على من أمـَّهُنَّ سحيق

فمنهنّ : منعُ الجار حتّى كأنـّما
له في ذرى المزن الكنهـْوَرِ (14) نيق

ونصرك للحقّ الـذي أنت أهله
وعونك للملهوف وهو رهيـق

وإن سـَبَقَتْ منك المواعدُ أُنجزَتْ
وإن أُخـِذ الميثـاق فهـو وثيق

إذا فارق المرءُ الرفيـعُ مكـانـُه
فليس له إلاّ عليك طريـق

(10) سيف دلوق : سهل الخروج من غمده .
(11) الآطام : الحصون ج أطم .
(12) القومـي لباس ثمين .
(13) العناجيـج ج عنجوج : الفرس الطويل العنق .
(14) الكنهور : العظيم من السحاب . والنيق أرفع موضع في الجبل .

فمن كان لا يرعى بقربه ذِمّةً
فأنت أخٌ للأبْعَدِين شقيق
رأيتُ جميعَ الناس عندك أسوةً
وإن كان فيهم كاشح وصديق
كأنّك من كلّ الطباع مركّب
فأنت على كلّ العباد شفيق
وكنت يَدَ المنصور منصورِ هاشمٍ
لذا البطش إذ أيدي الفوارس سوق
حسامَ وغاه إذ غدا ومِجَنّه
إذا خيف من ريب الزمان طروق
وما كنتَ إلاّ البدر يوري بك الدجَى
وقد عمّ آفاق البلاد غسوق
رمى بك آسادَ الأسنّة والقنا
وقد فغرَتْ مِنْهُم إليك شُدوق
هو الشعب إذ لم تملكِ القولَ ألسن
وإذ لم تَسِغْ بَرْدَ الشراب حُلوق
فكن كيف شاء الناس أو شئت كائنا
فليس لسهم المُلْكِ غيرَك فوق
ولا تشكر الدنيا على نيل رتبة
فما نِلتَها إلاّ وأنت حقيق
رِضَى اللهِ في ذا السخط منك على اللهى
فلا شيءَ في الدنيا أراك تُليق (15)

(15) ألاق : لا يليق السيف شيئا : لا يمر به إلا قطعه .

وآليت لا آلوك شكرا على التي
غدت ليَ وَسْقا زيد فيه وُسوق

وإن أكفر النعمى وألقاك مثقلا
بأعبائها ، إنّي إذن لسروق

أأنساك إذ لا يسمع الصوت نبأة
وإذ أنا مغشيّ عليّ صعوق

وإذ أنا لم تنهض بجسميَ قوّة
وَإذ لم يُبَلّلْ مِنْ لسانِيَ ريق ؟

وأخلفتني إذ لا يد المُزْنِ سمحةٌ
عليّ ، ولا قلب الزمان رفيق

وكم لك عندي من يد يمنّية
لها حسَبٌ في المكرمات عريق

وما عابَها من نائبات وعُوّد
سوى انّني في بحرهنّ غريق

فإن كنتَ بالإحسان لابدّ مُغرقي
فلا يلقينّي البحرُ وهو عميق

يكلّ لساني عنكمُ وهو صارم
حسام ، وينبو الفكر ، وهو دقيق

بحقّكمُ أن تملكوا الناس أعبُدا
سواء رقيق منهمُ وعتيق

فأنتم نقلتم شيمةَ الدهر راغما
وشُدّ بكم فيه ثأّى (16) وفتوق

(16) الثأي والثأى : آثار الجرح والخرق .

فثُقِّفَ حتى ليس فيه تأوّد
وطهّر حتى ليس فيه فسوق
لكم أحْكَمَت حوكَ الجلابيب عبقَرٌ
ونَسْجَ سَلُوقِيّ الحديد سَلُوق (17)
ولا ضَيْرَ في أن تحسدوا إنّ ذلكم
ليجمل في عليائكم ويليق
وما ضرّكم من حاسديكم على العلى
وأيّامكم تحدو بهم وتسوق
قَضَى الله أن يرعى الأنامُ حقوقَكم
وليس عليكمْ للأنام حقوق
لقد كرُمَتْ أحسابُكم ونفوسُكم
وطابت فروع منكمُ وعروق

(17) الدروع السلوقية منسوبة إلى سلوق باليمن وكذلك الكلاب المعروفة .

II

القصيدة عدد 81 من مخطوط تونس 1 . الورقات 91 أ إلى 92 ب . يحيى ابن عليّ وأخوه جعفر هما أوّل من مدحَ الشاعِرُ حَالَمَا ترك الأندلس . وقد بقي مدّةً عِندَهُما بالمسيلة قبل أن يُوفِدَهُ جعفر إلى الخليفة المعزّ .

في الأبيات الأولى نسيبٌ تقليديّ بحبيبةٍ تميميّة ؛ وفي البيت 57 معنىً شيعيٌّ كثير الوقوع في شعره ، وهو أنّ جيوش الفاطميّين ، مهما كان العَدُوُّ الذي تحاربُهُ ، فهي في جهادٍ في سبيل الله والدّين .

وقال من غير الأصل المنقول منه يمدح يحيى بن عليّ : (طويل 2)

بأكثبة الدهناء منهم منازل
وأندية يَغْدُو عليها المُقَاوِل (1)

تنافس أيّام المكارم بينها
بألسنة يهتزّ منها مناصل

ندامى الندى والخمر تسعى عليهمُ
بأزلامهم لُعْس الشفاه عقائل

وفي الحيّ بيضاء التراقي كأنّها
صفيحة هنديّ جلاها الصّياقل

تميميّة لم يعرف الذلّ قومُها
ولا نكباتِ الدهر وهي غوائل

وفي قضُب الخطّيّ يهتزّ حولها
مَشابهُ من أعطافها وشواكل

(1) المقاول : المباحث والمجادل .

أبِيت لها في مثل همـيّ وشَعْـرِها
من الليل ، أسرِي والمطايا ذوَامِـلُ (2)

ومن حبّهـا أنـي أكتّم حبها
وأنّـي بهـا صبٌّ كأنّـيَ ذاهل

أُداري الهوى عنها وأخضع للعدى
وأخشى عليهـا ما تجرّ الغوائـل

وقد جعلت تبأى (3) عَـلَـيْنَـا بقومها
وفي وجهها شغل عن الفخر شاغل

فقلت لها : صه يا ابنة القيل إنّنا
بنو المجد نرمـي دونه ونناضل

وإنّا لمن قوم همُ ورثوا العلى
على حين لم تُخلَق تميـمٌ وَوائلُ

ألم تر أنّ الناس في كلّ موطن
تحلّ حلول الموت فيها الصّواهل

إذا ما كَمـيٌّ لم يجد طـرقَ دِرْعـه
ولم يدر يومَ السيف أين الحمائل

وإنّا لنعطي يعربًا حـقّ يعرب
وإنّا سوانـا من سواهـا الأباطل

وهبنا تركنا أن نعدّد مـا خلا
وسارت به منّا القرون الأوائـل

(2) ذوامل : الإبل تمشي ذميلا .
(3) بأى : [باب فتح] بأوا : فخر .

أليس لنا في عصرنا من ملوكنا
من الفخر ما نعلو به ونطاول ؟

لنا مثل يحيى ، والبريّة كلّها
له خوَل حتّى الملوك العباهل

فتى لو ترى الأنواء في الجود رأيه
لما انجاب غيمٌ عن قرى الأرض هاطل

ولو صالت الأسدُ الغضاب مَصَالَهُ
لما امتنعت منها الجيوش الجحافل

ولو فصل الله الحكومةَ فصلَه
لما اختلفت بالمشكلات الأقاول

ولو علم الناس الخفيّاتِ مثله
لما كان في الأرض العريضة جاهل

به نصرةُ الأحساب إن قام داغِلٌ
يفاخره أو ذو لسان يجادل

فلو لم يكن في مفخر غيرُ حبّه
كفاني ، إذا التفّت عليّ المحافل

وإنّي له من أسعد الناس كلهم
لئن لم تحاربني عليه القبائل

ستنظم لي فيه نزارٌ مكايدا
ويحسدني عاف عليه ونائل

إذا كنتَ مدّاحَ الملوك فمثله
وإلاّ فلِمَ تَلْهَجْ بما أنت قائل

فما الصدق كلّ الصدق إلاّ مديحه
وإلاّ فإنّ القولَ إفكٌ وباطل

ولا الناس في كنه الحقيقة غيرُه
ولا بعده إلاّ السّوام القلائل

فمن كان منهم عاجزا فهو قادر
ومَنْ كان منهم ناقصا فهو كامل

فلا جالت الفرسانُ إلاّ لنَصْره
ولا حملَتها المُقَربَاتُ الصّواهل

ولا قلّبَت تلك السلاحَ (4) أكفُّها
ولا وصلت تلك ألأكفَّ الأنامل

ألا إنّما أنت الحياة لعاقل
وإلاّ فما للعيش بعدك طائل

وكلّ مليك غيرَك اليومَ سُوقةٌ
وكلّ جواد غيرَك اليوم باخل

لقد جمع الله العلى لك كلَّها
وتمّت لعصر أنتَ فيه الفضائل

وأدرك راج منك ما هو طالب
وأعطيَ دهرٌ منك ما هو آمل

ودارت رحى الهيجا عليك بأسرها
ولاذت بحِقوَيك (5) القنا والقنابل

---

(4) السلاح يؤنث (القاموس) .
(5) الحقو : الإزار .

فتضربهم ما دام للسيف قائم
وتطعنهم ما دام للرمح عامل

كأنّك تعتدّ الوشيجَ (6) حدائقا
مفوّفة تَسْتَنُّ (7) فيها جداول

أو الخمرَ صرفا ما يمجّ لك الطّلى
أو المسكَ ما تسفي عليك القساطل

وأنت ربيع الناس ، والجيش نازل
وأنت قريع الجيش ، والجيش راحل

فلا حيّةٌ إلاّ لها منك قاتل
ولا أسدٌ إلاّ له منك آكل

لقد دام مَن والاك في ظلّ غبطة
وأُمُّ الذي يشقى بسُخطك هابل

وما لامرئٍ من خوف بأسك مهرب
ولكنّما الدنيا عليه حبائل

رضاك رضى الدنيا إذا هي أقبلت
وسخطك سخط الدهر والدهر غائل

وحربك حربٌ ليس يصلى بنارها
وأمرك أمر للفرائص هائل

نظرت فما للملك غيرَك حازم
لبيب ، ولا في الناس غيرَك عاقل

(6) الوشيج : الرماح أو اشتباكها .
(7) استن الماء : جرى واضطرب .

ولا في بلاد الله غيرَك معقل
لحُرٍّ ، إذا ما قيل أين المعاقل ؟

وأقسم ما في غير نفسك منّة
لمجد ولا في طبع غيرك نائل

بهذا ألاقي الله يوم لقائه
وهذا هو الحقّ الذي أنا قائل

وإن كنتُ قد حسّنت ظنّيَ بالورى
وغير الورى من حسن ما أنت فاعل

تريع ولم يعطفك غيرَك عاطف
وتعطي ولم يسألك غيرَك سائل

وما يبتغي العافي لديك وسيلة
إذا ابتُغيَتْ عند الملوك الوسائل

شهدت ولم أَكْتُمْكَهَا من شهادة
بأنّك للدنيا وللدين كافل

وأنّك أوفى العالمين بذمّة
وأطولهم باعا إلى ما تحاول

وأسمحهم كفّا إذا جاد جائد
وأربطهم جأشا إذا صال صائل

فما للواء الدين غيرك رافع
ولا لقناة الدين غيرَك حامل

ولا بارق من غير بشرك لامع
ولا عارض من غير كفّك هامل

فمن كان مسبوقا فإنّك سابق
ومن كان مفضولا فإنّك فاضل

إذا طلب الجهّالُ يوما دلائلا
على الشّمس ، لم تُطلب عليك دلائل

III

القصيدة 83 من نسخة تونس 1 . الورقات 93أ/94أ .

لا نعرف شيئا عن هذا الممدوح سوى أنّه كاتبٌ وأنّهُ قائدُ جيش . ولعلّهُ من قوّاد المعزّ مثل جوهر الصّقلّي الذي يُدْعى أيضاً جوهراً الكاتب . ولكن لا حديث عن أحمد بن زائدة هذا في كتب التراجم ولا في التواريخ الخاصّة بالفاطميّين ، وقد ذكر في عنوان مقطوعة تافهة وردت في هذه النسخة .

قال يمدح أحمد بن زائدة الكاتب : (منسرح)

هل تملك الدار رجعَ سائلها ... وتقبلُ النفس عذل عاذلها ؟
دار لِوَحْشيَّةُ النصيف (1) إذا ... فؤاديَ السِّرْبُ (2) من عقائلها
غبينةٌ بُدّلت بخُرَّدها ... أوالف الرحل من خوَاذلها (3)
فأخرسَت من ضجيج(4) سامرها ... وأوحشت من رُغاء جاملها
كأنّما حرب أحمدٍ وَقَدَتْ ... ما بين مأهولها وآهلها
من ساور الرُّقشَ (5) في مكامنها ... واستنزل العصم (6) من معاقلها
من يعرُبَ الأكرمين في نسب ... يشارك الشمسَ في منازلها
من أبحر المكرمات حيث طمت ... وسائرُ الناس من جداولها
حذار من أن ترى فوارسها ... مقنّعات على صواهلها
إذ لا رعودَ سوى هماهمها ... ولا بروقَ سوى مناصلها
أهلُ السيوف اليمانيات إذا انتَمَتْ تميمٌ إلى صياقلها

(1) النصيف : كل ما غطى الرأس من خمار وغيره .
(2) السرب : الحر .
(3) الظبية الخاذل المتخلفة عن القطيع .
(4) سامرها : جمع السمار . أو الناقة ترعى النبات . والضجيج قراءة نقترحها .
(5) الرقش ج الرقشاء وهي الحية المنقطة ببياض وسواد .
(6) العصم ج أعصم وعصماء : الغراب أو ظبي الجبال .

فمن جياد أحْفَوْا سنابكهــا   حتّى تمشّت على مراكلها
ومن قنا أكرهوا أسنّتها   حتّى تشكّت إلى عواملها
فقل لأهل الغيطــاء والإبل الــــجَرْبَاء من برْكها وشائلها :
فَهَلْ لكم فارسٌ كفارسها ؟   وَهَلْ لَكُمْ نائل كنائلها ؟
إنّــي وإن لم أفُز بنسبتهــا   ولم أوَرَّثْ على أوائلهــا
فلا أرى قــائلا كقائلها   مجْدا ولا فاعلا كفاعلها
ولا أرى أحمـدا كأحمدها   لمرتقي بأسهـا ونائلها
الضارب الأسد في بآدلها (7)   والطاعن الخيل في فَوَائـلها (8)
والرائد الرّادّة العصاة إذا   زالت عرى الهـام عن معاقلها
أرماحه لا تزال عالمــة   أن ليس بأس كبأس حاملهـا
والخيـل لا تُعتَزَى إلى بطل   سواه في ملتقى قنابلهـا
يقودها والنجيع يفهق (9) ما   بين شواهــا إلى كلاكلها
مسوّمات إلى قوانسهــا (10)   مخضّبات إلى كواهلها
حتّى إذا استعجم الجواب ولم   تَرُدَّ نفسٌ جوابَ سائلها
وأعيت القومَ كلّ مشكلـة   ملتبسٌ حقّهـا بباطلها
تكشّفَتْ منـه عن سُميدعها   وضَرَّحتْ منه (11) عن حُلاحلها
هذا وإن ضنّت السمـاء على   الأرض بما ضنّ من هواطلها
فهو الذي لا تزال راحتـه   تهمـي على المزن من نوافلها
يد قضى الله أنّها خلقـت   حتفَ عداها ويُسرَ آملها
ينفجر الموت مـن صوارمهـا   والعسجد النضر من أناملها

(7) البآدل ج بأدلة وهي لحمة الثدي .
(8) الفائل : لحم من فخذ الخيل أو عرق لها .
(9) فهق الدم : تصبب .
(10) قوانس ج قونس وقونوس : عظم ناتىء بين أذني الفرس .
(11) ضرحت الدابة : رمحت .

إن سخطت بالرّدى لشانئها   ردّت نفوس إلى شمائلها
دونكها لا أقول دونكها   عُجْباً ولا مَفْخَراً لقائلها
فخرا بمدحك(12) لا بسالف قَحْطانَ، وإن كنت من مَقَاوِلِهَا
كلتا يمينَيْكَ يا ابنَ ذي يَمَنٍ   تكرّما عمّ من فواضلها
أقرب رُحْمَى إلى البريّة من   أنسابها في ذُرى قبائلها
تغدو نفوس رأتك واثقة   قد فرغ الله من وسائلها

(12) في هذا الشطر زحاف من نوع الخبل : فعلات .

IV

القصيدة عدد 84 من مخطوط تونس 1 . الورقة 94

نظم ابن هانىء في أبي الفرج الشيباني قصائد كثيرة (عدد 4 ــ 20 ــ 33 ــ 42 ــ 60) . وهو قائدٌ من قواد المعزّ ضدّ البرابرة الثائرين على الحكم الشيعيّ . والشاعر على عادته يفخَرُ بالانساب ويصعّدُ بالشيباني إلى جسّاس بن مرّة وحرب البسوس :

« لِلّهِ من علَويّ الرّأيِ مُنتسِبٍ إلى العُلَى وَائِلِيّ الأصْل مُرّيّ »
(القصيدة 60)

وقال يمدح أبا الفرج محمد بن عمر الشيباني : (بسيط 1)

قد أدبر الليل عنا فا حدُ بالإبـل وإن كفاها صرير البيض والأسل
يخرجن من أيمن الوادي وأشمله وما الأراك به غيرُ القنا الذُّبُل
إنّا إذا صحصحانٌ خلته شبَحًا وأشبه الليلُ درعَ الفارس البطل
لنُذعرُ الحيّ قد نامت صوارِمُهُ في مضجع الأمن بين الهام والقُلَل(1)
فلا أباكِرُنا تحدو على عجل ولا سوابقنا تجري على وجل
وقد ينمّ علينا المنزليُّ (2) ضحى من القباب التي فيهنّ والكللِ (3)
مستخفيات من الأسرار مثقلة من زاد مثليَ في التوديع والقُبَل
يحملن زولاً (4) خفيفا في مضاجعه إذا تنقّل جنب الرُحّل الذُّبُل
ما أنس لا أنس ما ظنّ الغيور بنا وقولَها وقدِ احمرّت من الخجل :
شقيتَ بالبين من زوْرٍ (5) ألمّ بنا وحاربَتْكَ بنو شيبانَ من رجل

(1) ج قلة : حديدة على طرف مقبض السيف .
(2) لم نهتد إلى معنى لهذه الكلمة .
(3) ج كلة : الستر الرقيق .
(4) الزول : الشجاع .
(5) الزائر .

قومٌ همُ ذلّلوا الدنيا لساكنها ... والإنسُ فيها لهم والجنُّ كالخوَلِ
همُ استبدّوا بأسلاب الملوك وهم ... حزّوا نواصيَ أهلِ الخيل والخللِ
وهم أجاروا على الأيّام واحتكموا ... على المقادير وابتاتوا على الدّول
من أوّل الدهر موصولا بآخره ... وإن تسَل عن علاهم فهي لم تزل
وما لحيّ من الأحياء غيرِهمُ ... طول السواعد والقضبان والأسَلِ
المكرمين القنا حتى إذا انكسرت ... صدورها طعنوا بالأكعب الفُضُلِ
ودّت أسنّتهم من طول ما فُصِلت ... لو ركّبت منهمُ في الأدرعِ الفُتُلِ
فضربهم في فراش الهامِ ملتهبٌ ... من قبل موقعه، والطعن في المُقَلِ
لا يفزعون غداة الروع إن فزعوا ... إلاّ إلى جلل في الحادث الجَلَلِ
والحرب ما لم تكن منهم فوارسها ... فالجيش كالنقع والأسياف كالخلل(6)
الباسطين إلى العافي أكفّهمُ ... بمثل ما تسع الدنيا من النّفَلِ
فقلّ ما استهضموا يوما ولا اهتضموا ... إلاّ إذا شبّهوا بالعارض الهَطِلِ
وقد دري الغيث أن لو كان أشبههمْ ... لشاب جودَهُمُ شيءٌ من البَخل
سمعت عن سيّد الدنيا وسيّدِ هم ... فكان في كلّ جود غايةَ المُثُلِ
حتى إذا ما أراد الله يُسعِدُني ... رأيتُه فرأيتُ النّاس في رَجُلِ
الأريَحيُّ فما يعطي سوى أملٍ ... والهبرزيُّ فما يرْدي سوى بطل
ولست من سُخطه المردي على خطر ... ما دمت في عفوه المحْيِي على أمل
يُفكّهُ السمع بالعذّال تَعْذِلُه ... وليس يسعى الندى إلاّ على العذّل
تخفى الجليّةُ إلاّ عن بصيرته ... حتّى يكون صواب القول كالخطل
مؤيّد باختيار الله يصحَبُه ... ولن ترى في اختيار الله من خلَل
فلو تقدّم في عصر الفلاسف أو ... لو أبصروه لقالوا : علّةُ العلَل
تدبّ في نفس من عادى مكايدُه ... كالسُّمّ يقتل في رَيث وفي عَجَل
فتى شهدتُ له بالمعلوات كما ... شهدتُ لله بالتوحيدِ والأزل
من آل شيبانَ والموفين إذ عقَدوا ... لجار بيتِهمُ في الأعصر الأول
الضاربين كُليبا فوق مفرِقهِ ... بالمشرفيّ على نابٍ من الإبل

(6) ج خلة : غمد .

V

القصيدة عدد 94 من نسخة تونس 1 . الورقة 107 ب ــ 108 ب

نسبة القصيدة إلى الشاعر وإلى ممدوحـه الخليفة المعزّ لا شكّ فيها ، لأن المعاني الشيعيّة المتداولة في معزّيّاتـه ظاهرةٌ هنا أيضاً ، ولأنّ فيها إشارةً إلى الوفد البيزنطيّ الذي قـدِمَ إلى المهديّة في طلب الصلـح . وفيها أيضا تحريضٌ للمعزّ على فتح مصر ؛ فتاريخ القصيدة قبل سنة 358 وهو العام الذي تحرّك فيه جوهر الصقليّ .

وقال من غير الأصل المنقول منه يمدح المعزّ لدين الله تعالى : (طويل2)

صغائر أفعال الملوك عظائم ... وأعراسها في الناكثين مآتِمُ
هو المُلْكُ ما أدراك ما المُلْكُ ، دونه ... تمرّ حلاوات وتحلو علاقم
ولولا ركوب الليل لم يبلغ الضحى ... ولولا الرزايا لم تَصِحَّ المكارم
بلى ، ربّما ساد امرؤ من يسوده ... وقام بأمر القوم من لا يقاوم
ولكن يبين الصبح من حالك الدجى ... ويغرفُ من نزر المياه الخضارم
ويخشى الفتى من بأسه قبل بأسِهِ ... وقد تُتّقى قبل العضاض الأراقم
وما كلٌّ من هزّ السيوف مُضاربٌ ... ولاكلٌّ من لاقى الكماة مصادم
وكلّ امرىء كان المعزّ إمامَهُ ... يضيم ولا يهدي له الضيمَ ضائمُ
فقل لبني العبّاس ردّوا مظالما ... فقد آن منكم أن تردّ المظالم
وإلاّ فردّوا للمعـزّ وسالمـوا ... فأسلم أعداء المعزّ المسالم
وما ينقضي حلي الخواتـم منكم ... وليس لمقطوع اليدين خواتم
لبستم ثياب الملك وهي عمائـم ... وكيف على الأقزام تلوى العمائم ؟
ألم تأتكم أنباؤه وسماتـه ... على أوجه الأيّام منها مياسم ؟
وحسنُ معانيه التي لو تجسّمت ... غدت وهي من حسنٍ خرود نواعم
وما هدّ أرض الروم منه وقلقلت ... بنا ملكهم من خوفه والدعائمُ
فجاؤوه من شتى مقرٌّ ومرسلٌ ... وفادٍ ومفديٌّ وراض وراغمُ

فألفوه لا الدنيا تميل به ، ولا　　كرائم ما تحوي (1) عليه كرائم
وأشجعهم في مجلس الملك ناطق　　وأبينهم في هيبة الملك سالم
وأشجع من عين رأته فلم تَجُدْ　　حشاشةُ نفس أمسكتها الحيازم
ولولا دفاع الأصرْ(2)عن مهجاتهم　　لخانتهمُ أقدامهم والقوائم
فما ظنُّكم ان أيقظ العرض سيفه　　إذا كان هذا فعلَهُ وهو قائم ؟
وقالوا : بهم، فاغمد حسامك، جُنّة　　فقلت لهم إنّ السيوف تمائم
وما ضرّ ذا حقّ أباطلُ خصمه　　إذا كانت الأقدارُ عنه تُخاصم
وكلّ بناء أسّس البغيُ أسّه　　يتاح له من كفّ بانيه هادم
بني الدولة الغرّاء شيموا سيوفكم　　فإنّي لها الملكَ العراقيَّ شائم
وعزما فقد تعمى عيونٌ بصيرة　　إذا لم يكن كحلَ العيون العزائمُ
فعن معصم الرأي المعزّيّ بطشُكم　　وهل تبطش الراحات لولا المعاصم؟
ولولا هرقل لم يعد ساطعُ الهدَى　　ولا زال ليليٌّ من الكفر فاحم
فليس الورى منه ولا هو منهمُ　　وإن جمعت بين الفروع الجراثم
وقد يدرك الشيئين مشتبهين من　　جهات ، ومنها قائم البَغي نائم
وليس من الإنس البهائم إن جرت　　مع الإنس، في معنى الحياة، البهائم
أألله لا تنفكُّ هادمَ عسكر　　كأن الذي عبّوا إليك الهزائم ؟
بكلّ بلاد جرّ جيشُك ذيلَه　　معالم من أحوالها لا عوالم
كأن لم يروا فيها لغيرك رايةً　　ولا سُمِعت فيها لجيش هماهم
وما من قليل سُدتَ أبناءَ هاشم　　وإن كان منهم سادةٌ وأكارم
وفي الجسم أشياءٌ حسانٌ وإنّما　　تُخَصُّ بحُسن اللثم منها المباسم
بمصرٍ صبابات إليك ، وطالما　　صرمتَ، ولهْي من حبيبٍ يصارم
فروٍّ صداها من جيوشك ، إنّما　　هي القلب مهجوراً وهنّ الضراغم
وناد ، فإن لم تسعَ نحوك أرجلٌ　　سعت طاعةً عنها إليك الجماجم

(1) ما تحويه الدنيا ...
(2) الأصر : الالتزام والقسم والحلف .

وما بَعُدَت غايات طاغٍ مصارم إذا امتُطِيت يوما إليه الصَّوارمُ
فيا ظالم الأموال كيف قدرت أن تضاف إلى الإنصاف، واسمك ظالم؟
غرُبت ولم تغرب وبنتَ ولم تَبِـن فكلٌّ ضميرٍ جاهلٍ بك عالمُ
كلٌّ بليغ في صفاتك أعجَمٌ وكلٌّ ملومٍ في نوالك لائم
فلو تقدر الألفاظ أكثر تَرْجمتْ ولكنّ هذا ما تُطِيقُ التَّرَاجِمُ

VI

القصيدة عدد 95 من مخطوط تونس 1 . الورقة 108ب/109أ .

قاضي برقه هو أفلح الناشب وقد مدحه ابن هانيء بقصيدة نونيّة (عدد 55) ولا نعلم عنه شيئا سوى ما ذكره الشاعر من تقواه وجوده . وفي هذه القصيدة يظهر أنّه كان له ابن اسمُهُ محمّدٌ . والقصيدة ضعيفة التأليف (الأبيات 12 ــ 14 ــ 19) متفاوتة الأقسام ولعلّها منْحُولَةٌ .

وقال يمدح محمّد بن قاضي برقة : (خفيف)

زهَرُ الرّوض بنتُ دمعِ الغمام   وبكاءُ الغمامِ لا من غرَامِ
بل طباع رُكّبْنَ في الفلكِ الأثْـ   ـرى (1) ليروي القيعان في كل عام
كفكَفَ الغَيمُ دمعَه فأرانا   زَهَرَ الأقحوان والنّمّام
وغدا الروض ضاحكا كخَرُود   صبّغتها بوادِرُ الإحتشام
عرّجا صاحبيّ بالروض نلهُو   بغِنَا قينةٍ وشُرب مدام
حبّذا يومنا ببستان لهوٍ   ونعيمٍ مؤكّدِ الإنْعام
ونَدامى كأنّهُم قُضُب الفضْـ   ـضة قد فُصّلَتْ بحسن القَوام
بين أحداق نرجسٍ ناعم اللّمـ   ـسِ له مثلُ أعيُنِ النُّوّام
وأقاحٍ وسوسَنٌ مسبَطِرٍّ   يسطع المسكُ منه عند الشّمّام
وفتاة كأنّها حين تبدو   نور بدر السماء عند التّمام
تَدْعُو أوتَارها بصوْتٍ شَجيّ   فَيُحَيّينَهَا بطيبِ السّلام
إن تغنّتْ جاوَبْنَها برنينٍ   يدْعُ (2) للفتك أنفُسَ الصُّوّام
أسمعتني لدِعْبلٍ وصريعٍ   وجميلٍ كلؤلؤ في نظام
فتصابيتَ ثمّ قلتَ لصحبي :   حيّياني بقطرمين (3) وجام

(1) الفلك الأثرى : الأرض .
(2) لا وجه لجزم الفعل هذا إلا الضرورة . وكذلك إبقاء حرف العله من « يدعو» في البيت السابق.
(3) لم نجد لهذه الكلمة (؟) أصلا في المعاجم ، ولعلها كلمتان : قطر مضاف إلى اسم مكان ؟ .

أنـا عبدٌ متيّـمٌ غير أنّـي واثق بالكريمِ نجلِ الكرام
بالفتى المستجـار من نوَب الدّهـــــر بـه والسميدَعِ القمقـام
جاءكُم تهرع الوفـودُ إليـه فيروّي جميعهـا بانسجام
جلّ شوقي إليك يا نامـيَ الفــر ع لطيبِ الأصولِ أكرم نـام
فعليك السلامُ ما ناح في وا دي الأراك شجيٌّ (4) وُرقِ الحمام
ووِدادي مؤكّدٌ لك والـلـــــه يميناً من أفضل الأقسَام

(4) زدنا هذا النعت ليستقيم الوزن .

VII

القصيدة 96 من نسخة تونس 1 . الورقة 109أ .

هذه القطعة موجّهَةٌ حسب الظنّ إلى الأخوينِ جعفر ويحيى أميرَيْ الزاب . وكأنّ الشاعريدعوهُمَا إلى التآلُف والتحابّ وتبديد الغيوم بيْنهُمَا .

وقال أيضا : (طويل 1)

شَكَا مَا شَكَوْتُ الرُّمْحُ وَالنَّصْلُ وَالسَّهْمُ
سِلاَحُكَ مَجْمُوعًا يُؤلِّفُهُ نَظْمُ

أخُوكَ الَّذِي تَحْنُو عَلَيْكَ ضُلُوعُهُ
وَمَا عِنْدَهُ مِمَّا عَلِمْتَ لَهُ عِلْمُ

سِوَى أنْ أحَسَّتْ مَا بِنَفْسِكَ نَفْسُهُ
وَدُونَكُمَا البَيْدَاءُ وَالأجْبُلُ الشُّمُّ

ألاَ هَكَذَا فَلْيُسْعِدِ الصِّنْوُ صِنْوَهُ
فَذَا سَيِّدٌ نَدْبٌ وَذَا سَيِّدٌ قَرْمُ

وَلَمْ يَشْكُ ذَا حَتى شَكَا ذَاكَ قَبْلَهُ
وَعَاوَدَ ذَا مِمَّا تَطَرَّقَ ذَا سُقْمُ

ألاَ انْظُرْ إلَى الأشْيَاءِ كَيْفَ تَنَازَعَتْ
وَكَيْفَ يَدِقُّ الفَهْمُ عَنْهُنَّ وَالْوَهْمُ

وَمَا افْتَرَقَا حَتَّى يُقَالَ تَشَابَهَا
بَلِ امْتَزَجَ التَّرْكِيبُ وَالدَّمُ وَاللَّحْمُ

وَمَا هُوَ إلاَّ شِقَّةٌ مِنْكَ ، إنْ شَكَا
شَكَوْتَ ، عَلَى هَذَا جَرَى القَدَرُ الحَتْمُ

وَلاَ عَجَبٌ مِنْ كَوْنِ ذَا وَاتِّفَاقِه
فَرُوحَاكُمَا رُوحٌ وَجِسْمَاكُمَا جِسْمُ

إذَا شِدْتَ مَجْداً شَادَهُ وَأَتَمَّهُ
وَمِثْلُكَ بَانٍ لَيْسَ يَخْلِفُهُ هَدْمُ
ألاَ بِكُمُ يَسْمُو إلَى العُلُوِ مَنْ سَمَا (1)
وأنْتُمْ نِظَامُ المُلْكِ مَا طَلَعَ النَّجْمُ
بِكُمْ يُتَأَسَّى فِي العُلاَ وَإلَيْكُمُ
يُشَارُ وَعَنْكُمْ يُؤْخَذُ العَزْمُ وَالحَزْمُ
فَلاَ بَرَقَتْ أيْدِي الحَوَادِثِ بَيْنَكُمْ
وَلاَ جَازَ لِلدُّنْيَا عَلَى حُكْمِكُمْ حُكْمُ

(1) في النسخة : يسم ، ولا يستقيم .

VIII

القصيدة عدد 97 من مخطوط تونس 1 . الورقة 109ب—110أ .

القطعة في مدح إبراهيم بن جعفر بن عليّ ؛ ولعلّها مبتورة نظراً للتفاوتِ بين الاستهلال الخمريّ (الأبيات 1 — 9) والمديح (10 — 13) . وإبراهيمُ هذا مدحَهُ الشاعر بأربع قصائد (عدد 33 — 38 — 54 — 57) ، وفي هذه القصيدة الأخيرة وصف مطوّل لقصرٍ ابتناهُ إبراهيم .

البيت الأخير من هذه القطعة غامضُ المعنى .

وقال أيضا : (كامل 2)

قَدْ رَقَّ مِنْ نَفَسِ الصَّبَاحِ نَسِيمُ
إذْ هَبَّ مِنْ سُكْرِ المُدَامِ نَدِيمُ

قُمْ فَاسْقِنِيهَا قَهْوَةً مَشْمُولَةً
قَدْ لَذَّ مِنْهَا مَشْرَبٌ وَشَمِيمُ

أمَّا كَأنَّ الدَّهْرَ أرْضِعَ ثَدْيَهَا
فَكَأنَّمَا كَفَلَتْهُ وَهْوَ يَتِيم

نَحلَتْ وَأنْحلَتِ الزُّجَاجَ كَأنَّهَا
فِي صَدْرِ شَارِبِهَا الهَوَى المَكْتُومُ

لامَتْ عَلَى شُرْبِ المُدَامِ عِصَابَةٌ
أُدْلِي بِعُذْرٍ وَاضِحٍ وَتَلُومُ

مَا حَقَّ مِثْلِي أنْ يُحَرِّمَ شُرْبَهَا
أوَ تَعْرِفُ الشُّعَرَاءُ مَا التَّحْرِيمُ ؟

فَوَدَدْتُ لَوْ أنَّ النُّجُومَ أبَارِقٌ
وَالقَطْرَ خَمْرٌ وَالسَّحَابَ كُرُومُ

حَتَّى تَكُونَ مُبَاحَةً مَوْجُودَةً
تَنْفِـي الهُمُومَ فَلاَ يُرَى مَهْمُومُ
وَيَنُوبُ عَنْ شُرْبِ الزُّلاَلِ شرَابُهَا
وَيُفِيقُ مِنْ نَفَحَاتِهَا الْمَزْكُومُ
إنْ كَانَ خَيْرُ خَلاَئِقِـي في شُرْبِهَا
كَرَماً ، فَخَيْرُ النَّاسِ إبْرَاهِيمُ
يَا فَارِسَ العُرْبِ الَّذِي فَخَرَتْ بِهِ
أُدَدٌ (1) وَغِيضَتْ يَعْرُبٌ وَتَمِيمُ
لَوْلاَكَ لَمْ يَنْتِجْ مَشَايِخُ يَعْرُبِ
وَلَقِيلَ فِـي اليَمَنِ الوَلُودِ عَقِيمُ
فَإِذَا مَدَحْتُ بمدحة لسواكم
غير الأنَامِ فَإِنَّنِـي مَذْمُومُ

(1) أدد [كعمر] : اسم قبيلة .

الحركة الاصلاحية فى تونس خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر

بقلم : الحبيب الجنحاني

القسم الاول :

الحركة الاصلاحية من عهد المشير احمد باى الى فرض نظام الحماية الفرنسية على البلاد التونسية

عاش العالم الإسلامي نقطة تحول هامة في تاريخه خلال القرن التاسع عشر ، فقد بدأ يستيقظ من سباته الطويل ، وينفض عنه غبار عصور الإنحطاط ، والتحجر الفكري والعقم الحضاري ، شاعرا بتأخره أمام النهضة الحديثة في أوروبا وأمريكا .

وبدأت النخبة تفكر في مصير البلدان الإسلامية — ان بقيت متأخرة — أمام السياسة التوسعية للدول الأوروبية الكبرى ، وبحثها عن مناطق نفوذ سياسية ، وثروات طبيعية تتطلبها نهضتها الصناعية الجديدة .

وتبرز علائم موجة اليقظة الجديدة في أوساط النخبة واضحة جلية بعد حملة نابليون إلى مصر حيث تم اللقاء الأول بين الحضارة الأوروبية والعالم الإسلامي ،

وحيث ساهمت تلك الحملة مساهمة مباشرة في النهضة الفكرية الجديدة في مصر خاصة ، وفي العالم الإسلامـي عامة (1) .

وتواصلت حركة النهضة في مصر في عهد محمد علي بعد خروج الفرنسيين ، وبعد أن أعلن حاكم مصر الجديد إستقلاله في وجه الباب العالي ، ورفـض الخضوع لأوامر السلطان العثماني .

وقد شجعت سياسته الإستقلالية هذه كثيرا من حكام مناطق النفوذ العثمانية ، ونجد بينهم المشير أحمد باي ، كما سنرى بعد قليل .

ان الريح الجديدة لم تهب على تركيا ومصر وحدهما ، بل شملت كثيرا من أجزاء العالم الإسلامـي ءانذاك ، فقد شعر أهل الراي ، وكل من تنبه إلى ضعف الحكم الإسلامـي أمام عمالقة النهضة الصناعية الجديدة بضرورة تجديد مؤسسات الدولة الإسلامية ، ومحاولة الخروج بها من التأخر والضعف .

فذلك اللقاء الذي تم على يد نابليون بين الحضارة الجديدة وبين الشـرق الإسلامـي ، لقاء هز ضمير النخبة ــ بالخصوص ــ هزا عنيفا ، وانتشار موجة اليقظة الجديـدة ، وهي تختلف قـوة وضعفـا من بلـد لآخر ، هما العاملان الأساسيان لما سجله لنا تاريخ العالم الإسلامـي خلال القرن التاسع عشر من حركات إصلاحية هنا وهناك .

وبالرغم من أن هذه الحركات الإصلاحية لم تكن جذرية شاملة وكادت تقتصر في بعض البلدان الإسلامية ، وخلال فترات معينة ، على الناحية العسكرية دون أن تمس نظم الحكم المتعفنة ، أو تحد من جبروت الحكم المطلق ، وبالرغم من أنها لم تستطع أن تنقذ العالم الإسلامـي من التبعية ، وتقف في وجه

(1) راجع : عبد الرحمان الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، القاهرة الطبعة الرابعة 1955 ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة 1950 .

السياسة الإستعمارية للدول الأوروبية ، فإنها قد تركت أثرا إيجابيا في البلدان التي إنطلقت فيها ، أثرا نلمسه :

أولا : في الميدان السياسي حيث مهدت الطريق لميلاد الحركات القومية التي ظهرت بوادرها في أواخر القرن التاسع عشر في كثير من البلدان الإسلامية .

ثانيا : في الميدان الفكري حيث إنبعثت حركات ثقافية قومية ، وانطلق الشعور بضرورة الإصلاح الديني والفكري . وهي حركات لم يستطع النظام الإستعماري أن يوقف تيارها ، ويحد من تأثيرها مهما كان ضئيلا ، بطيئا في أول الأمر بل إضطر المدافعون عن رسالة النظام الإستعماري الحضارية إلى الإعتراف بأن النظام الجديد لم يجد فراغا ثقافيا في العالم الإسلامي ، ولاسيما في تلك البلدان التي عاشت حركات إصلاحية قبل إنتصابه .

ولم تكن البلاد التونسية غريبة عن هذه الموجة الإصلاحية الجديدة بل كانت أحد مراكزها الهامة .

إن العلاقات القديمة التي تربطها بالبلدان الأوروبية ، ولاسيما ببلدان جنوب أوروبا جعلتها تتأثر بسرعة ومباشرة بالنهضة الأوروبية . وقد كانت القضية التونسية من أهم موضوعات العلاقات الديبلوماسية بين الدول الأوروبية الكبرى في القرن التاسع عشر ، ولاسيما بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 (2) .

إن إحتلال الجزائر جعل الفرنسيين يتمتعون بمكانة خاصة في البلاد التونسية ، ووطد التأثير الفرنسي في تونس ، وقوى العلاقات التونسية الفرنسية (3) وربما يستغرب المرء هنا متسائلا : ألم يكن هنالك خوف من المصير الذي آلت إليه الجزائر ؟ لا شك أن هذا الشعور كان موجودا ، ولكن العلاقات بين تونس والدولة العثمانية ، وتدخل الباب العالي عسكريا في طرابلس في ماي 1835

(2) راجع : J. Ganiage. Les origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881), Paris 1959.

(3) نفس المصدر ، ص 14 وما بعدها .

جعلا حكام باردو يميلون إلى توطيد العلاقات الودية مع جار قريب وقوي . ونلاحظ هنا أن حكام تونس لم ينتبهوا إلى أن إحتلال الجزائر يمثل نقطة البداية للتوسع الفرنسي في القارة الإفريقية ، وللسيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط . وهي أهداف لم تكن سرية بل أعلنت عنها الصحافة الفرنسية بكل وضوح (4) .

ونرى من الضروري التلميح هنا إلى بعض العوامل الخارجية التي كان لها أثر في ظهور الفكرة الإستقلالية في تونس تجاه القسطنطينية ، وفي بروز الشعور بالإنتساب إلى الوطن التونسي بإعتباره جزءا من العالم الإسلامي ، وهو شعور غامض تتنازعه فكرة الإنتساب إلى المجموعة الإسلامية ، وعاطفة الإرتباط بأرض معينة لها مقوماتها وحدودها وهي الأرض التونسية (5) .

أما تلك العوامل الخارجية فهي :

– نجاح محمد علي في إتباع سياسة مصرية مستقلة عن السلطنة العثمانية .

– هزيمة العثمانيين أمام إحتلال فرنسا للجزائر ، هزيمة أثبتت ضعفهم أمام الدول الأوروبية الكبرى ، وعجزهم عن حماية البلدان الإسلامية من سياسة التوسع الإستعماري (6) .

– إغتنام الدولة العثمانية فرصة خلاف نشب داخل الأسرة الحاكمة في طرابلس ، أسرة قرمانلي ، لتتدخل عسكريا وترسل في ماي 1835 أسطولا حربيا بقيادة الوزير طاهر باشا للقضاء على حكم القرمانليين بعزل علي باي وإلحاق طرابلس مباشرة بمركز الخلافة .

---

(4) راجع : Ch. Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, 1964, p. 61-62.

(5) راجع في هذا الشأن : A. Demeerseman, Formulations de l'idée de patrie en Tunisie (1837-187), IBLA, N. 113, 1966, p. 35-72, 109-142.

(6) راجع : إبن أبي الضياف ، تونس ، 1963 ، ج 3 ، ص 167 وما يليها .

فبعد أن أمل حكام باردو أن تضيف الدولة العثمانية طرابلس إلى المملكة التونسية بعد نشوب الحرب الأهلية هنالك (7) أصبحوا يخشون المصير الذي آلت إليه جارتهم في الجنوب الشرقي .

ويعلمنا إبن أبي الضياف بخبر رواج إشاعة في تونس حول عزم القائد العثماني على القدوم إلى تونس مع أسطوله الحربي لإلحاقها بطرابلس . وقد تفاوض مصطفى باي في الموضوع مع وزرائه ، وكان أكثرهم يميل إلى إستعمال القوة مع الاتراك والدفاع عن إستقلال البلاد (8) .

ونخطىء تاريخيا لو نعتقد أن شعور كره العثمانيين كان موجودا في صفوف الحاكمين فحسب دفاعا عن مراكزهم ، وإمتيازاتهم وهو شعور لا تخفيه البعثات والهدايا الودية للباب العالي ، بل هو أكثر إنتشارا بين سكان الريف التونسي ، ولاسيما في أوساط القبائل (لأن العربان لا يتحملون بطباعهم سطوة الأتراك) كما ذكر أحمد باي والده بهذه الحقيقة المعروفة (9) .

إن شعور الإنتساب إلى الأمة الإسلامية كان مسيطرا على الشعب التونسي قبل القرن التاسع عشر ، إذا استثنينا بعض العناصر المثقفة ، وقد كان هذا الشعور ممتزجا لديها بعاطفة الإنتساب أولا إلى الأرض التونسية (10) . وهنا تلتقي تلك النخبة القليلة بتعلق سكان الريف بالأرض التي يعيشون فوقها ، وهو تعلق بعيد طبعا عن شعور قومي واضح ، أو وعي سياسي ، ولكنه تعلق يفسر ذلك الشعور المناهض لكل أجنبي دخيل .

---

(7) نفس المصدر : ص 191 .

(8) نفس المصدر : ص 203 وما يليها .

(9) نفس المصدر : ص 204 .
ونشير هنا إلى أن ظاهرة كره الجماهير للأتراك ولا سيما سكان البوادي منهم ليست خاصة بتونس بل نجدها في الجزائر ، وفي طرابلس وهي ظاهرة ناشئة عن سطوة الاتراك وتعسفهم في البلدان التي دخلوها ، راجع عن إستقبال الجزائريين للأسطول العثماني الذي جاء لإخراج الفرنسيين من الجزائر : إبن أبي الضياف ، ج 3 ، ص 167 .

(10) راجع : A. Demeerseman, Personnalité Tunisienne, IBLA, N° 95-96, 1961, p. 226.

أما خلال القرن التاسع عشر فقد أصبحنا نلمس البذور الأولى ، للشعور القومـي بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، وإن لم يكن هذا الشعور واضحا في كل الحالات ، وبدأت تبرز الفكرة الإستقلالية عن القسطنطينية ، ولا نستطيع التعمق هنا في بحث أسباب ظهور الشعور القومـي ، وما رافقه من مد وجزر في العلاقات التونسية ـ العثمانية ، وما كان له من أثر في حياة المملكة السياسية ، ولكننا نستطيع أن نؤكد تأثير ميلاد الشعور القومـي ، وإن كان مقترنا بفكرة الإنتساب إلى المجموعة الإسلامية ، إلى جانب العوامل الخارجية المذكورة ، في بروز حركة إصلاحية هامة في تاريخ تونس الحديث .

وقد تزعم المشير أحمد باي (1837ـ1855) أول محاولة إصلاحية سيطر عليها الطابع العسكري ، فقد سعى منذ ولايته في التخلص من التبعية للبـاب العالي ، طالبا إلغاء المساعدة المالية ، وقد طُلب من المملكة تقديمها سنويا إلى الدولة العثمانية (11) ، ساعيا أن تعترف الدول الأوروبية بإستقلاله ، وتعامله معاملة الملك المستقل (12) .

وهذه السياسة الإستقلالية جعلته يقلد الدول الكبرى ، مؤسّسا جيشا نظاميا لا تتحمل إمكانيات البلاد الإقتصادية تكاليفه ، منشئا أسطولا حربيا أثقل ميزانية الدولة ، فارضا ضرائب جديدة مرهقة ، فهو أول من نظم جيشا على الطريقة الأوروبية ، مسخرا كل جهوده وجهود البلاد لإنشاء جيش كثير العدة والعدد . وقد كان ينظر بعين الغيرة إلى إنتصارات وقوة باشا مصر : محمد علي (13) .

ولكن المشير الأول شعر بحاجته الملحة إلى فنيين أجانب وضباط من ذوي الرتبة العالية لتحقيق أحلامه العسكرية . وهنا نجده يتجه إلى بلد نابليون الأول

---

(11) راجع : خبر سفر الشيخ إبراهيم الرياحي إلى إستنبول لهذا الغرض : تاريخ إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 18 وما بعدها .

(12) Ganiage, op. cit., p. 15

(13) نفس المصدر ، ص 113 .

الذي طالما أعجب به ، وزين قاعات قصره باللوحات الزيتية عن معاركه الكبرى ، وأمر بترجمة حروبه ، ووقائعه إلى اللغة العربية ، وقرأها عليه الشيخ إبن أبـي الضياف غير مرة (14) . وكانت بعثة الضباط الأولى التي جاءت لتدريب الجيش التونسي تتركب من ضباط فرنسيين .

وقد قرر زيارة فرنسا تنفيذا لسياسته الإستقلالية حيث إستقبل إستقبال ملوك الدول الكبرى ، وقد كان لزيارته هذه أثر بالغ في الحركة الإصلاحية التونسية في عهدها الأول ، أثر تجاوز الميدان العسكري ، وبلغ الميدان الثقافي ، ومس نظام الحكم نفسه كما تشهد بذلك ملاحظات الشيخ إبن أبـي الضياف في وصفه للرحلة (15) .

لا شك أن أهم الإنطباعات التي رجع بها المشير الأول إلى بلاده ما شاهده في فرنسا من إستعراضات عسكرية ، وعظمة الجيش وما رآه في ميناء تولون من قوة الأسطول الفرنسي ، ولكنه لم ينس ما زاره من متاحف ومسارح ، ومطابع ، ودور كتب ، ومعاهد علمية ، وإن لم يهتم بها إهتمامه بالمؤسسات العسكرية .

أما الحياة الفكرية ، والتقدم الإجتماعي ، ومؤسسات الحكم فقد لفتت إنتباه بعض مرافقي أحمد باي في رحلته المشهورة هذه ، وبينهم خير الدين ، وإبن أبـي الضياف .

فقد وطدت هذه الزيارة العلاقات التونسية — الفرنسية ، وساهمت في تنشيط حركة الإتصال بين تونس وأوروبا . وهو إتصال ذو تأثير واضح في حركة الإصلاح التونسية منذ عهدها الأول ، تأثير لم يقتصر على العلاقات السياسية والتجارية فحسب بل شمل الحياة الفكرية أيضا .

وقد يتساءل المرء عن مدى موضوعية الحقيقة التاريخية حين يكتب عن حركة إصلاحية في أيام الحسينيين بالرغم مما إشتهر به ذلك الحكم المطلق ،

---

(14) إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 36 ، 104 .
(15) راجع عن رحلة أحمد باي إلى فرنسا : إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 96—110 .

وفي عهد المشير الأول أيضا ، من تعفن ، ومئاس سجلها لنا مؤرخ معاصر : أحمد إبن أبـي الضياف ؟

إن تحليلنا للأحداث التاريخية يجب ألا ينسينا اطارها الزمني ، أو يهمل نتائجها البعيدة ، مهما تبد ضئيلة ، ثانوية .

إن لحركة الإصلاح في عهد أحمد باي نتائجها الواضحة في النهضة الفكرية التونسية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . ومن هنا جاءت أهميتهـا بالنسبة لموضوعنا .

مدرسة باردو العسكرية (16) :

إن إهتمام أحمد باي بالناحية العسكرية جعله يفكر منذ ولايته في تأسيس مدرسة عصرية يتخرج منها ضباط جيشه النظامي على يد أساتذة أوروبيين . وقد حقق حلمه هذا في 5 مارس 1840 حيث أسس مدرسة باردو العسكرية (17) وعهد بإدارتها إلى المستشرق الإيطالي كاليقاريس (Calligaris) (1808—1871) (18) ، وجلب إليها أساتذة فرنسيين ، وإيطاليين ، وبريطانيين . واتخذ ضابط الجيش التركي سابقا ، ومدير مدرسة باردو الجديد كاليقاريس المدرسة الحربية التركية في « اسكي — سراي : (Eski - Saray) مثالا في تنظيمه لمدرسة باردو (19) .

(16) سميت أيضا باسم « مدرسة المهندسين » (Ecole Polytechnique) أو « مكتب العلوم الحربية » .

(17) إعتمدنا إبن أبـي الضياف في تاريخ تأسيس المدرسة . أما قانياج (ص 116) فإنه يذكـر أن تأسيس المدرسة كان سنة 1838 .

(18) راجع عن حياته ، وعن تأثيره في الحياة التونسية في هذه الفترة :

Ch. Monchicourt, Relations inédites de Nyssen, Fillipi et Calligaris, Paris, 1929 ;

P. Marty, Histoire de la mission militaire française en Tunisie, Revue Tunisienne, 1935, p. 317.

(19) راجـع عن مدرسة بـاردو العسكرية : إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 36—37 ؛ محمد الفاضل ابن عاشور ، الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، القاهرة ، 1956 ، ص 13 ؛

Ganiage, op, cit., p. 116-117, 126; Chedly Khairallah, le Mouvement Jeune Tunisien, Tunis, s.d.,p. 13-14.

ومن المواد التي اشتمل عليها برنامج الدراسة : الهندسة ، والمساحة ، والحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والنظريات الحربية ، واللغة العربية ، والتربية الدينية ، والفرنسية ، والإيطالية (20) .

ومن أبرز أساتذتها التونسيين الأديب الشيخ محمود قابادو (21) .

وقد تخرج عليه الرعيل الأول من النخبة التي تزعمت الإصلاح في مرحلتها الثانية بقيادة الوزير خير الدين . ومن أبرز تلامذته : خير الدين نفسه ، والجنرال حسين ، والوزير رستم ، وهما من أشهر أنصار خير الدين .

إن برنامج مدرسة باردو يدل على أنها لم تكن مدرسة عسكرية بحتة بل كانت مدرسة عسكرية تربوية . وهي أول مؤسسة تعليمية إحتوى برنامجها على مواد العلوم العصرية وقد كانت مهد أول حركة ترجمة عرفها تاريخ تونس الحديث .

ومن المعروف أن مدرسة باردو لم تحقق الأهداف العسكرية التي أسست من أجلها لأسباب ليس هنا محل تفصيلها (22) ، ولكنها تركت أثرا هاما في الحياة الفكرية التونسية في تلك الفترة . وهذا الأثر هو كل ما بقي من محاولة أحمد باشا لبعث جيش تونسي نظامي قوي يعادل جيوش الدول الكبرى ، ويستطيع الوقوف في وجه الجيش العثماني إذا بدا للقسطنطينية يوما ما ان تعيد الدرس التأديبي الذي قامت به ضد القرمانليين في طرابلس (23) .

---

(20) ومن أشهر أساتذتها الأجانب إلى جانب كاليقاريس الذي كان يدرس الحسابيات والتاريخ العسكري ، والفنون الحربية الضابط الأنكليزي دلكاس (Delcasse) ، والضابط الفرنسي فري (Verrier) ، والأستاذ الإيطالي تروانى (Troani) .

(21) ومن أساتذتها التونسيين أيضا حسونة بن مصطفى الذي أصبح بعد ذلك نائب رئيس المجلس البلدي .

(22) راجع : Ganiage, op. cit. p. 117.

(23) راجع عن علاقات تونس بالدولة العثمانية في عهد الحسينيين عامة ، وفي عهد أحمد باي خاصة : إبن أبي الضياف ، ج 6 ، ص 13–30 .

ولكن المشير الأول بدأ من حيث يجب أن ينتهي ، فعجز إقتصاد البلاد عن تمويل مشاريعه الخيالية ، ولم ينفذه إثقال كاهل الشعب بالضرائب ، فازدادت الحالة السياسية الداخلية تعكرا ، وجاعت جنوده ، وتفرق جيشه شذرا مذرا ، وأغلقت المدرسة أبوابها أثر موته (24) .

ونختم هذه الفقرة مشيرين إلى أن فترة الإصلاح الأولى لم تقتصر على الميدان العسكري بالرغم من أنه يمثل أبرز مميزاتها بل مست من قريب الحياة التربوية والثقافية ، وذلك ما سنعالجه في آخر هذا الفصل .

الحركة الإصلاحية في عهد الوزير خير الدين :

تزعم الوزير خير الدين باشا المرحلة الثانية في تاريخ حركة الإصلاح التونسية قبل الحماية ، ولاسيما بعد أن تولى منصب الوزارة الكبرى (أكتوبر 1873 — جويلية 1877) في عهد المشير الثالث الصادق باي (24 أ) .

فبدأ أولا بتنظيم الإدارة التونسية ، ومحاولة تدارك ما أفسده خلفه مصطفى خزندار خلال ست وثلاثين سنة ، معتمدا في ذلك على نخبة من رجال الإصلاح الذين تخرجوا من مدرسة باردو ، ودرسوا على الأديب المصلح الشيخ قابادو ونجد بينهم أسماء لامعة مثل الجنرال حسين مستشار المعارف (24 ب) والجنرال رستم ، ومحمد خزندار ، ومحمد القروي ، وحسونة ابن مصطفى . ومن أعلام النهضة الفكرية التونسية الذين آزروا خير الدين في سياسته الإصلاحية الشيخ بيرم الخامس الذي كلفه خير الدين بتنظيم جمعية الأوقاف ، وولاه إدارة المطبعة الرسمية ، و« الرائد التونسي » .

(24) تم إغلاق المدرسة رسميا في أواخر سنة 1869 ولكنها فقدت كل أهمية بعد موت أحمد باي ، وغادرها الأساتذة الأوروبيون .

(24 أ) إن مصادر دراسة عهد خير الدين وشخصيته تعد بالعشرات ، ذكر منها قانياج قسما في مراجع كتابه عن أصول الحماية الفرنسية في تونس . فليرجع إليها القارىء هنالك .

(24 ب) راجع ترجمته بقلم الشيخ محمد الفاضل إبن عاشور ، الثريا ، فيفري 1944 ، ص 2—4 .

إننا لا نعتقد صحة الراي الذي يزعم صاحبه أن خير الدين قد إستوحى برنامج فؤاد باشا وعلي باشا من بعده في تركيا في تنفيذ خطته الإصلاحية (25) . فقد دلت جميع مواقفه ، وملاحظاته التي سجلها لنا إبن أبي الضياف منذ أن أصبح خير الدين أحد رجال الدولة التونسية البارزين على نضج آرائه السياسية وإيمانه بضرورة حركة إصلاحية جذرية تمكن لأول مرة من تنفيذها بعد أن تولى رئاسة الوزارة .

فقد نضجت وتبلورت آراؤه الإصلاحية قبل برنامج فؤاد باشا . ولا نعني بهذا أن خير الدين لم يتأثر بالأفكار الإصلاحية التي ظهرت في مركز الخلافة العثمانية (26) ، ولكننا نميل إلى أن تأثره بما شاهده في زياراته إلى البلدان الأوروبية كان أعمق واجلى ، ويثبت ذلك كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » . وقبل الحديث عن أهم الإصلاحات التي قام بها خير الدين في الميدانين : السياسي والإجتماعي نريد ذكر الملاحظتين التاليتين :

أولا : أصبحت الحركة الإصلاحية التونسية في عهد خير الدين باشا حركة سياسية ثقافية بعد أن كان يسيطر عليها الطابع العسكري في عهد المشير أحمد باي .

ثانيا : تعد حركة الوزير خير الدين من أقدم الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي . وهي حركة سبقت حركة جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده ، ولكن مفعولها وصداها اقتصرا على البلاد التونسية .

كان خير الدين زعيما مصلحا ، ولكنه كان رجل دولة بالدرجة الأولى يعير القضايا الجزئية أهمية بالغة في نجاح الفكرة الإصلاحية الرئيسية . ولهذا

---

(25) Ganiage, op., cit., p. 437

(26) إن الهدف الرئيسي الذي سعى إليه خير الدين في سياسته الخارجية هو المحافظة على إستقلال تونس تجاه الدول الكبرى . وبالرغم من إيمانه بالحقوق الخاصة التي يتمتع بها الباب العالي تجاه تونس ، وبضرورة التعاون بين المملكة والدولة العثمانية وبعواطفه الخاصة نحو القسطنطينية ، فإنه حاول المحافظة على إستقلال البلاد كما ضبط أسسه فرمان 1871 .

راجع : Ganiage op., cit., p. 449-450 ; Khairallah, op., cit., p. 194.

نجده إثر توليه الوزارة الكبرى يوجه إهتمامه لإصلاح جهاز الدولة الإداري ، وهو الأداة الفعالة لتطبيق مبادىء الإصلاح الجديدة .

وأكبر مشكلة وجدها أمامه تلك التركة الثقيلة التي تركها له سلفه في الميدان المالي بالخصوص من ديون ، وضرائب مرهقة ، وتدهور إقتصادي عام (27) .

وبالرغم من إهتمام خير الدين بإصلاح الجهاز الإداري ، وحل القضايا المالية الملحة ، وتحقيق الأمن في البلاد ، وبالرغم من حدة التناقض بين مصالح الدول الكبرى في تونس وضرورة المحافظة على التوازن بينها من أجل إتباع سياسة داخلية وخارجية مستقلة ، أضف إلى ذلك تعفن الجو في القصر الذي سرعان ما إنقلب مسرحا تحاك فيه الدسائس ضد زعيم حركة الإصلاح ، بالرغم من كل ذلك فإن الوزير خير الدين أبدى إهتماما خاصا بإصلاح الحالة الفكرية ، وبعث نهضة ثقافية جديدة ، إيمانا منه بأن الإصلاح الحقيقي يجب أن يكون جذريا ، وإن يبدا من حيث يجب أن تكون البداية ، وهي تتمثل آنذاك في تكوين فئة من النخبة قادرة على المساهمة في حركة الإصلاح ، وتسيير شؤون الدولة ومؤسساتها الجديدة . ويبدو أنه كان يتصور هنا تلك الإطارات الكفأة التي شاهدها ، وتعرف إليها في مراكز نشاطها في المدن الأوروبية الكثيرة التي زارها . وهكذا نجده يهتم ببعث تعليم قومي عصري ، فيؤسس المدرسة الصادقية ، وينظم التعليم الزيتوني ، ويشجع حركة الطباعة ، ويهتم بالصحافة .

ومرة أخرى تفشل الحركة الإصلاحية في الميدان السياسي ويوضع لها حد قبل أن تؤتي أكلها .

(27) راجع عن الحالة الإقتصادية التي وجد عليها خير الدين البلاد : إبن أبي الضياف ، ج 6 ؛
Khéréddine, Mon origine et ma vie politique en Tunisie, in : Khairallah, op., cit., p.è 179-207 ; Ganiage, op., cit., p. 437-491.

ونكتفي بالإشارة – تلميحاً للأسباب السياسية المؤدية إلى ذلك الفشل – إلى ذلك التناقض البارز بين طبيعة الحكم المطلق ، وتصرف الباي وبطانته وبين أهداف حركة الإصلاح التي كانت تعتمد على فئة قليلة من المثقفين وبعض رجال الدولة الواعين ، ورغم فشلها سياسيا فلا نستطيع أن نقول : إنها ذهبت أدراج الرياح ، أو أن آثارها كانت مثل آثار الكاتب في الماء بل تركت وراءها آثارا عميقة تتمثل في أسس النهضة الفكرية الحديثة ذات الأثر البعيد المدى .

النهضة الثقافية :

بدأ عصر النهضة في تاريخ الأدب العربي الحديث في منتصف القرن الماضي حيث نجد حركة تجديد اللغة العربية والرجوع إلى العصور الذهبية في تاريخ الأدب العربي وقد أهمل الإعتناء بها ، ونسيت المصادر الأصلية للفكر العربي قرونا طويلة إنتشرت فيها الصناعة اللفظية الثقيلة ، والشغف بالبديع والسجع والأسلوب المزخرف الذي يمجه الذوق العربي السليم .

فقد اقترنت الحركة الإسلامية الجديدة بالرجوع إلى مناهل الحضارة العربية القديمة والإعتناء بلغتها . فمن الصعب إذن الفصل بين التجديد الديني ، والتجديد الأدبي واللغوي (28) ولا شك أن ظهور الشعور القومي قد ساهم مساهمة فعالة في الإعتناء باللغة القومية ، وبتاريخها . وقد كان ذلك من أهم العوامل في بروز حركة الإعتناء باللغة والأدب العربي أولا في سوريا ، حيث كان الشعور القومي العربي ناضجا ، قويا ، وقد كان السوريون دعامة الحركة

(28) راجع : Henri Laoust, Le réforme musulman dans la littérature arabe contemporaine, Orient, N° 10, 1959, p. 103.

الفكرية والأدبية ، ولا سيما حركة الترجمة والنشاط الصحافي في مصر في عهد محمد علي ، وبعد ذلك (29) .

ولكن هذه النهضة الثقافية لم تقتصر على سوريا ومصر بل نجد البلاد التونسية في طليعة البلدان الإسلامية التي عاشت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حركة علمية وفكرية نشطة ، فقد إهتمت الحركة الإصلاحية التونسية في عهديها قبل الحماية بالحياة الفكرية ، بل كانت آثارها الثقافية أهم ما تركته وراءها بعد فشلها في الميدان السياسي ، كما أشرنا إلى ذلك سلفا .

اننا لا نملك وثائق كافية تدلنا على مدى تأثر الحركة الفكرية في تونس في هذه الفترة بالنهضة في بلدان المشرق الإسلامـي ، أو تأثيرها فيها ، ولكـن الإتصال بينها كان موجودا ، ولا سيما بين تونس والقاهرة ، وبين تونـس والقسطنطينية .

ولكننا نعتقد أن تأثر الحركة الفكرية التونسية بالنهضة الأوروبية كان مباشرة ، وأشد وضوحا من تأثرها بالنهضة في المشرق الإسلامـي ، ولا سيما بعد إحتلال الجزائر ، وتأسيس مدرسة باردو ، ورحلة أحمد باي إلى فرنسا ، فقد عرفت البلاد التونسية خلال الفترتين في تاريخ الحركة الإصلاحية قبـل الحماية إهتماما بالحركة العلمية ونشاطا تربويا وثقافيا ملفتا للنظر بالنسبـة إلى ذلك العهد .

وهنا نميل إلى التفريق بين الحركة الفكرية التونسية البحتة وبين الحركـة الفكرية والتربوية في أوساط الاقليات الأوروبية ، وهـي حركـة خصبة لهـا

(29) راجع : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ، 1951 ، ص 73 وما بعدها .

Gaston Wiet, Introduction à la littérature arabe, Paris, 1966, p. 271-286 ; Henri Pérès, les premières manifestations de la Renaissance littéraire arabe en Orient au XIXe siècle, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales t. I. p. 233-256 ; Hamilton A.R. Gibb, Studies on the Civilzation of Islam, 1962, p. 245-319.

تاريخها بين سنة 1830 وسنة 1881 . وقد تجاوز نشاطها العاصمة التونسية ليصل إلى سوسة ، وصفاقس ، وجربة ، وإلى الكاف ، وبنزرت (30) وأشرف على هذه الحركة عدد من الراهبات والرهبان الذين غادروا الجزائر ليواصلوا رسالتهم التبشيرية في تونس (31) .

ورغم اقتصار هذه الحركة على أوساط الأقليات الأوروبية من فرنسيين ، وإيطاليين ، ومالطيين ، وبريطانيين ، وعلى وسط الأقلية الإسرائيلية ، ورغم طابعها الديني]الواضح (كان بورجاد « Bourgade » يسمي جمعية سان لويس « الحملة الصليبية السلمية » « Croisade Pacifique ») فقد قامت بعمل جبار في الميدان التربوي بالخصوص وقد أم مدارسها عدد قليل من أبناء الأسر التونسية المسلمة ، واتصلوا عن طريقها بالعلوم العصرية ، وبالتفكير الأوروبي قبل تأسيس الصادقية .

إن هذه الحركة الأوروبية المبكرة لا تمثل النهضة الفكرية القومية في تونس ولا تعد أحد جوانبها ، ولكن ذلك لا ينسينا تأثيرها ، وأهميتها خلال الفترة التي نعالجها في هذا الفصل (32) .

من المآثر الثقافية التي تمت خلال الفترة الإصلاحية الأولى تأسيس المكتبة الاحمدية في رمضان سنة 1256هـ وقد حفظت لنا هذه المكتبة إلى يومنا هذا

(30) راجع عن هذه الحركة :
F. Arnoulet, la pénétration intellectuelle en Tunisie avant le Protectorat, Revue Africaine, Nos 438-439, 1954, p. 140-180.

(31) تزعم هذه الحركة في بدايتها « L'Abbé F. Bourgade (1866-1806) » وقد وصل إلى تونس سنة 1841 ، وتولى الإشراف على كنيسة قرطاجنة ، وأسس في نفس السنة مدرسة سيدي المرجاني . راجع : F. Arnouet, op., cit., p. 142-145.

(32) قام زعيم هذه الحركة « فرنسوا بورڤاد » بنشاط كبير تجاوز الميدان التربوي والإجتماعي من إنشاء المدارس ومستشفى للأوروبيين وشمل الميدان الثقافي فأسس مطبعة حجرية . وألف كتبا عن الإسلام وتونس ، طبعت بالفرنسية والعربية ، منها : «مسامرات قرطاجنة» ، (طبع بالمطبعة الحجرية لأول مرة في تونس سنة 1849) وتاريخ تونس ، وأنشأ فيما بعد بباريس صحيفتين بالعربية ، مستعينا في ذلك بالصحافي التونسي سليمان الحرائري (1824–1877) ، راجع الآداب العربية للأب شيخو ، ج 2 ، ص 60 .

آلافا من المخطوطات النفيسة ، وكانت خلال قرن كامل مرجع الباحثين التونسيـين والأجانب .

فقد اشترى المشير أحمد باي كتب الوزير حسين خوجة التي بيعت عليه في دين بذمته ، وأضاف إليها مكتبة الأسرة الحسينية بجامع بيت الباشا ، ونقلها في حفل كبير إلى جامع الزيتونة . واشترى بعد ذلك كتبا كثيرة ألحقها بها ، منها كتب الشيخ إبراهيم الرياحي بعد وفاته (33) .

وقد كان تأسيس الأحمدية حدثا ثقافيا هاما سرعان ما إنتشر خبره في الأوساط العلمية ، ونظمت فيه قصائد المديح (34) . وعلق عليه أحمد إبن أبـي الضياف قائلا : « ويا له من عمل ذلل صعاب العلوم ورواضها ، وأنشا حدائقها ورياضها ، وأجرى جداولها وحياضها ، وأصاب شواكلها وأغراضها ، نسج على غيـر مثـال ، إنهـل بـه ودق العلـم وانثـال ، وسـرى ذكـره مسرى الامثال » (35) . فقد إعتنى أحمد باي أولا بتأسيس مدرسة عصريـة تشبـه المدارس الأوروبية لتخريج إطارات الجيش والدولة ، ثم وجه عنايته إلى معقل الثقافة القومية التقليدية ، فأسس الاحمدية ، ثم حاول تنظيم التعليم الزيتوني بإصدار منشوره الشهير في 1 نوفمبر 1842 ، وأمر بتعليقه قرب بـاب الشفاء بجامع الزيتونة (36) .

ويقول الشيخ إبن أبـي الضياف أنه كان يأتي « الجامع مرارا في غير أوقات الصلاة ويجلس وراء حلق التدريس ، ولا يقوم له الشيخ ولا أحد من الطلبة ،

---

(33) راجع : إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 49 وما بعدها .

(34) راجع قصيدة محمد الطيب الرياحي ، ومحمد بيرم في تاريخ إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 52–53 .

(35) نفس المصدر ، ص 50 .

(36) راجع نصه في المصدر السابق ، ص 65–66 . صدر المنشور في 27 رمضان 1258 الموافق لغرة نوفمبر 1842 ، وليس لغرة ديسمبر كما جاء خطا في مقابلة لجنة تحقيق « إتحاف أهل الزمان » التاريخ القمري بالشمسي .

تحريكا لعزائم الطلبة ، وترغيبا لهم فيما يقرب إلى الله زلفى ، ويثمر في الدنيا العز الاوفى » (37) .

ويعلق صاحب « إتحاف أهل الزمان » على هذه العناية بالحركة العلمية قائلا :

« وفي هذه الأيام نفق سوق العلم وتجدد شبابه ، وسال سيله وعب عبابه ، وانفتح للإجتهاد بابه ، وتظاهرت أسبابه ، واشرقت بأفق هذه الحاضرة نجوم واهلة هم الان شموس وبدور ، تتجمل بهم المحافل والصدور » (38) .

ففي هذه الفقرة إشارة واضحة إلى النهضة الثقافية التي عاشتها تونس ا نذاك . ولكن سرعان ما أصيبت هذه النهضة الثقافية بالتعثر بعد وفاة أحمد باي ، وهكذا كان للحياة السياسية بعد ذلك إنعكاس على الحياة الفكرية .

إن إعلان عهد الإمان سنة 1857 في عهد المشير الثاني محمد باي ، ومحاولة تطبيقه في عهد المشير الثالث محمد الصادق باي بتكوين المجالس التشريعية والبلدية ، وتنظيم المحاكم ، وإنشاء المجالس المالية يعد إنتصارا باهرا للدعوة الإصلاحية بعد مضي عشرين سنة على ميلادها (39) ، ولكننا رأينا شعلة هذه الخطوة الإصلاحية التي هدفت إلى الحد من تصرفات الحكم المطلق سرعان ما تنطفئ وتنعزل فئة الإصلاح للتأمل والتفكير (40) .

وخلال السنوات السبع (1862 — 1869) التي بقي فيها خير الدين بعيدا عن الحكم رغم الحاح الباي لم يستطع أن يرفض القيام بمهمات رسمية في الخارج ، فزار

(37) نفس المصدر ، ص 67 .

(38) نفس المصدر .

(39) راجع : محمد الفاضل إبن عاشور ، الحركة الأدبية ، ص 20 وما يليها .

(40) فقد أخطأ الشاذلي خير الله (ص 6) فيما ذهب إليه من أن الصادق باي أصدر أمر 26 أفريل 1861 لتطبيق « عهد الأمان » بمحض إرادته ، ودون تأثير أجنبي ، وإنه أراد تغيير نظام الملك المطلق بنظام ملكي دستوري برلماني . إن الشيخ إبن أبي الضياف يخبرنا أكثر من مرة أن عهد الأمان بقي حبرا على ورق بعد إعلانه ، فضلا على أنه أعلن وطبق بعد الحاح قناصل الدول الأوروبية ، ولكن ذلك لا يمنع من عده إنتصارا للحركة الإصلاحية .

ألمانيا ، وفرنسا ، وانكلترا ، وإيطاليا ، والنّمسا ، والسويد . وهولاندة ، والدانمارك ، وبلجيكيا ، والأستانة .

وفي زياراته للبلدان الأوروبية درس نظم الحكم فيها ، وأسباب التقدم ، وسجل لنا ملاحظاته ، وآرائه في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » (41) . ولكنه لم يعش في عزلة تامة خلال تلك المدة بل كان على إتصال مستمر بأنصاره من رجال السياسية والفكر ، وقد « كانوا يترددون على قصره في شيء من الإختفاء » (42) وهؤلاء هم الذين سميناهم نخبة الحركة الإصلاحية في عهدها الثاني قبيل الإحتلال الفرنسي .

وتأملات زعيم الحركة ، ومناقشاته مع إنصاره طوال هذه المدة قد شملت — دون ريب — موضوعا هاما ورئيسيا يتصل بأسس النهضة في البلدان المتقدمة ألا وهو النهضة الفكرية ، وتجديد أساليب التربية والتعليم .

إن إيمانه بان تقدم الشعوب الأوروبية يرجع إلى تقدمها العلمي والتقني أولا وبالذات وإلى كفاءة إطاراتها ، ولا يرجع إلى ثرواتها الطبيعية ، كما يبدو لصاحب النظرة السطحية ، جعله يعتني بالتعليم وتكوين نخبة مثقفة كفأة بعد أن أصبح وزيرا مباشرا سنة 1869 ، ثم وزيرا أكبر سنة 1873 . وهكذا نراه يبادر في 13 جانفي 1875 ببعث أول مؤسسة ثقافية قومية عصرية : المدرسة الصادقية ، فقد كان لهذه المؤسسة أثر بالغ في تاريخ الثقافة القومية التونسية منذ تأسيسها في عهد خير الدين إلى الإستقلال .

فقد هدف خير الدين باشا من إنشاء الصادقية على غرار المعاهد الثانويّة الأوروبية إلى التوفيق بين العلوم والتقاليد الإسلامية وبين العلوم العصرية ،

(41) راجع مذكرات خير الدين : الشاذلي خير الله ، سبق ذكره ، ص 184 .

(42) الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، ص 22 . حاولنا العثور على وثائق تثبت وجود هذه اللقاآت الشبه السرية المشار إليها في الفقرة المنقولة، ولكننا لم نصل إلى نتيجة . لهذا فإننا نقف محترزين من هذه الإشارة .

وتعليم اللغات الأجنبية ، وأرادها معهدا لتخريج الإطارات الإدارية الكفاة التي سيعهد إليها بمهام في نطاق الدولة العصرية التي حلم طويلا بإرساء قواعدها. أما النخبة الممتازة من تلامذتها فإنه فكر في إرسالها للدراسة في الجامعات الأوروبية وأشرف بنفسه على شؤون هذه المؤسسة الثقافية الهامة ، فأسس لجنة يراسها لوضع برنامج الدراسة فيها ، وقد تضمن دراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية ، ودراسة العلوم الرياضية والطبيعية ، وتعليم الفرنسية ، والإيطالية ، والتركية ، وانتدب إليها عددا من الأساتذة الأوروبيين وكان أكثرهم يدرس بمدرسة باردو (43) .

وقد فتح أبوابها لجميع المسلمين ، وبذلك تم الإمتزاج آنذاك بين فئتين إجتماعيتين : فئة مماليك القصر ، وأبناء بورجوازية المدن الكبرى .

واهتم بحياتها المادية ومواردها المالية فحبس عليها أملاك مصطفى خزندار وقد إنتزعت منه في ديونه للدولة ، وبذلك ضمن سيرها ، ومجانية التعليم فيها ولا نستطيع أن نسهب في الحديث هنا عن تاريخ المدرسة الصادقية ، وعن برامجها ودورها (44) ، ولكننا نلاحظ أهميتها في تاريخ النهضة الفكرية التونسية في هذه الفترة ، فقد تم اللقاح وربط الصلة بين إنصار حركة الإصلاح في الوسط الزيتوني مثل الشيخ محمود قابادو ، وأحمد بن أبي الضياف والشيخ

(43) Ganiage, op., cit., p. 456. يقول F. Arnoulet, (ص166) : ان برنامج الصادقية تاثر بالتعليم الفرنسي –العربي الذي اسسه (السان سيمونيون) (Les Saints-Simoniens) في الجزائر ، راجع :
M. Emerit, les Saints-Simoniens en Algérie, Paris, 1942.

(44) من يريد التعمق في دراسة تاريخ وبرامج المدرسة الصادقية نحيله على المصادر التالية : خير الدين ، مذكرات ، خير الله ، ص 193 ؛ محمد بن الخوجة ، المدرسة الصادقية ، شمس السلام ، صفر ، 1356هـ ، ص 98 وما بعدها ، ربيع الأول ، ص 165 وما بعدها ، ربيع الثاني ص 220 وما بعدها ؛ الحركة الأدبية ص 24–25 ؛ عبد القادر ببو ، لمحة تاريخية عن الصادقية ، الندوة ، جانفي – فيفري 1957 ، ص 17–27 .
(F. Arnoulet) op. cit., p. 160-167 ; Ganiage, op. cit., p. 456-457 ; J. De Bozals Le Collège Sadiki, Revue de Géographie, t. x, Mai, 1882. p. 375-382; D. Grasset, L'Instruction Publique en Tunisie, Revue Africaine, t. 22, 1878, p. 185-201.

سالم بوحاجب ، وبيرم الخامس ، ومحمد السنوسي ، وبين طليعة النخبة الجديدة ، ورائدة الحركة الإصلاحية بعد خير الدين ، ولم يبق تدريس العلوم العصرية مثل الحساب ، والطبيعيات ، والتاريخ والجغرافيا واللغات الحية مقتصرا على المدارس الأوروبية بعد تأسيس الصادقية . وهكذا فتح باب المعاهد الأوروبية في وجه النخبة ، وأصبح الإتصال مباشرا وقويا بين جيل النهضة الفكرية التونسية والحضارة الأوروبية (45) وقد إهتم الوزير خير الدين بالتعليم الإبتدائي فأعاد تنظيم المدارس القرآنية ، والمدارس التي كانت تعد التلامذة للإلتحاق بالتعليم الزيتوني (46) .

وقد أصدر أوامر في 26 ديسمبر 1875 ، وفي 22 جانفي 1876 ، وفي 12 جويلية1878 لإصلاح التعليم الزيتوني ، ونظام الدراسة فيه ، وبذلك دخلت فكرة الإصلاح والتجديد الهيكل الزيتوني نفسه ، تلك الفكرة التي إستمرت ثمانين سنة بعد خير الدين ، وقد كان لها أنصار ومعارضون في جميع المراحل التي مرت بها ، وكانت في بعض الأحايين حافزا للتقدم ، والتطور الفكري رغم العراقيل والأشواك التي وضعها في طريق أنصارها المحافظون منذ عهد خير الدين إلى الإستقلال حيث وضع حدا لتأثير تلك القوى التي ما إنفكت تقاوم كل حركة إصلاحية تجديدية .

أصدر خير الدين — تشجيعا للثقافة العامة ، ولحركة المطالعة — يوم 18 ماي 1875 قانون تأسيس المكتبة العبدلية (وتسمى أيضا بالمكتبة الصادقية) ، وحاول

(45) قبلت الصادقية 150 تلميذا حين فتحت أبوابها في فيفري سنة 1875 . وأول بعثة من تلامذتها الممتازين الذين أرسلوا إلى فرنسا تتركب من عشرة ، وقد أرسلت هذه البعثة إلى باريس سنة 1897 ، والتحقت بمعهد « سان لوي » (Lycée St-Louis) في القسم التحضيري للالتحاق بالمدرسة المركزية (L'Ecole Centrale) ولكنها لم تستطع بعد الحماية مواصلة تعليمها ، فرجعت إلى تونس سنة 1882 ، وعمل أفرادها مترجمين في الوزارة الكبرى .

(46) كان موجودا في تونس العاصمة سنة 1874 ، 59 كتابا يؤمها 1239 تلميذا ، و27 مدرسة قرآنية تعد للدخول إلى جامع الزيتونة بلغ عدد تلامذتها 231 تلميذا . راجع :
Ganiage, op, cit., p. 455.

تقليد المكتبات الأوروبية الكبرى في تنظيم المطالعة فيها (47) . وحبس عليها 1100 مخطوط من مكتبته الخاصة ، واشترى لها المطبوعات العربية الصادرة في الشرق وأوروبا ، وجهزها بالقوانين والتراتيب التي تهم البلاد التونسية بالخصوص . وكانت العبدلية آنذاك المكتبة العمومية الوحيدة ذات الطابع الحديث ، لأن الأحمدية تكاد تكون خاصة بالمخطوطات ، وقد كان لهذا العمل الثقافي صدى عميق في أوساط النخبة ، أعربت عنه المقالات والقصائد التي نشرتها جريدة « الرائد التونسي » ، واستفادت من المكتبة العمومية الجديدة الفئات الفقيرة من المتعلمين ، لأن الكتب النافعة المفيدة « كانت مقصورة على الأغنياء » في ذلك العهد ، كما يخبرنا بذلك الشيخ إبن أبي الضياف (48) .

أما حركة الطباعة والنشر ، وميلاد الصحافة التونسية فهما أبرز معالم النهضة الثقافية التونسية في هذا العهد ، وكان لهما تأثير قوي في الحركة الأدبية وتجديد اللغة العربية .

إن فكرة إنشاء مطبعة رسمية في تونس يرجع عهدها إلى عهد أحمد باي ، وقد عثر على تقرير رفعه صاحبه إلى المشير الثاني محمد باي سنة 1856 ، محاولا إقناعه فيه بفائدة إنشاء مطبعة في تونس (49) .

وأنشئت المطبعة الرسمية التونسية ، و« الرائد التونسي » في 20 جويلية 1860 واوكل الصادق باي مهمة الإشراف عليهما إلى الجنرال حسين رئيس المجلس البلدي ، وأحد أنصار خير الدين البارزين (50) .

(47) مذكرات خير الدين ، خير الله ، ص 193 .

(48) ج 5 ، ص 31 .

(49) لا يحمل هذا التقرير امضاء ولا تاريخا ولا يعرف كاتبه على وجه التدقيق . وقد توصل الاب دمرسمان بعد بحث طويل إلى أن التقرير كتبه كالقاريس (Calligaris) سنة 1856. راجع :
A. Demeerseman, Une page nouvelle de l'histoire de l'Imprimerie en Tunisie, IBLA, N° 75, 1956, p. 275-312.

(50) راجع : إبن أبي الضياف ، ج 5 ، ص 31—32 .
A. Demeerseman, Contribution à l'histoire de l'Imprimerie arabe en Tunisie, IBLA, 1962, p. 135-145.

ولم ترد تونس أن تبقى في هذا الميدان متخلفة عن مركز السلطنة العثمانية ، إستنبول ، وقد أسست فيها المطبعة الرسمية سنة 1728 ، أو متخلفة عن مصر بعد تأسيس مطبعة بولاق سنة 1822 (51) . وكان لهاتين المؤسستين الثقافيتين دور فعال في تطور الحركة الثقافية في النصف الثاني من القرن الماضي ، وحظيتا بعناية كبيرة بعد خمس عشرة سنة من تأسيسهما من طرف خير الدين بعد توليه الوزارة الكبرى ، فهو السياسي الوحيد الواعي لرسالة النشر والصحافة ، وتأثيرهما في حركة النهضة ، فأسند الإشراف على المطبعة وجريدتها إلى الشيخ بيرم الخامس ، وعهد بإدارة الجريدة إلى فرنسي مستعرب « نشا في بيروت ، وتخرج من كلية اليسوعيين ، وهو منصور كرليتي . ووسع نطاق النشر في المطبعة بالاكثار من نشر الكتب الأدبية ، والتاريخية ، وجلب للقيام على الناحية العملية من المطبعة ، وتولى تصحيح الكتب وجريدة الرائد العلامة المصري الشيخ حمزة فتح الله الإسكندراني ، وبهذين الإستأذين — كرليتي وحمزة فتح الله — إتصلت جهود النشر في تونس بمركزي النشر الهامين في العالم العربي بيروت ومصر ، فكثرت المراسلات والمبادلات ، واتسع باب جلب الكتب المطبوعة في الشرق وترويجها بتونس » (52) .

إن قائمة الكتب التي طبعتها المطبعة الرسمية تدل في وضوح على نشاط حركة النشر ، ونفاق سوقها في ذلك العهد (53) . وبعد أن نص الأمر التأسيسي على « أن لا يطبع إلا ما ينفع الناس ، ولا ينافي السياسة والآداب الإنسانية ، على

---

(51) راجع عن حركة الطباعة في العالم الإسلامي : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، سبق ذكره ، ص 195—202 ؛

A. Demeerseman, Une parente méconnue de l'imprimerie arabe et tunisienne, IBLA, N° 64, 1953, p. 347-389 - les données de la controverse autour du problème de l'imprimerie, IBLA, N° 65, 1954, p. 1-46, N° 66, p. 113-140.

(52) الحركة الأدبية ، ص 26 ؛

(53) راجع :

J. Quéméneur, Publications de l'Imprimerie Officielle Tunisienne de sa fondation 1276H./1869 à 1300H./1882, IBLA, N° 98, 1962. p. 147-173.

قدر حضارة المملكة واستعداد غالبها » (إبن أبـي الضياف ، ج 5 ، ص 32) ، كما فهم ذلك المشير الثالث الصادق باي ، وسع خير الدين نطاق النشر ، وشجع الكتب المترجمة من اللغات الأوروبية ، أو التاليف ذات الطابع السياسي الإصلاحي إلى جانب المصنفات الدينية واللغوية الرائجة ا نذاك .

أما جريدة « الرائد التونسي » فقد صدرت لأول مرة يوم 23 جويلية 1860 ، وتعد من أقدم الصحف في تاريخ الصحافة العربية إطلاقا ، صدرت في أربع صحائف مقسمة إلى قسمين : قسم رسمـي تدرج فيه الأوامر الرسمية ومناشير الباي والحكومة والتسميات ، وقسم غير رسمـي يحتوي على قسم الحكم ، والحكايات مثل حكاية كليلة ودمنة ، وأخبار خارجية ، إننا نقرأ في الأعداد الأولى من « الرائد » أخبارا مفصلة عن حوادث فرسوفيا ، وكراكوفيا الواقعة يوم 10 أفريل 1861 ، وأخبارا عن المكسيك ، أو عن إنتصار الحزب الإشتراكي الألماني في برلين في نهاية القرن الماضي . إن هذه الأخبار الخارجية في أعداد « الرائد » الأولى تدل على أن الفئات المتعلمة في المدن التونسية الكبرى كانت على إتصال بالتطورات في البلدان الأخرى ، وبالأحداث العالمية ، ولعله من الطريف أن نذكر هنا أن جريدة « الرائد » التونسية كانت تباع في مدن المملكة ، وفي الجزائر ، وطرابلس ، والإسكندرية ، وبيروت ، وكانت تباع في باريس ، ومرسيليا ، ومالطة ، كما نقرأ ذلك في الصفحة الأولى من « الرائد » .

ولم نكن نجد في جريدة « الرائد » في عهدها الأول مقالات أو تعاليق ، أو ركنا مخصصا للأدب ، فأول قصيدة نشرتها هي للشيخ محمود قابادو يمدح فيها الصادق باي بمناسبة إعلان « عهد الأمان » وتأسيس المجالس الجديدة ، ومطلعها :

العدل عهد خلافة الإنسان ومداد ظل الأمن والعمران (54)

(54) ديوان الشيخ قابادو ، تونس ، 1877/1878 ، ج 2 ، ص 60 .

وفي نفس العدد من « الرائد » المؤرخ في 4 جانفي 1861 نجد قصيدة مدح أخرى للشيخ أحمد كريم يقول في أولها :

إلى الله ما أبدى الأمير وما أخفا بقصر يكاد النجم من حسنه يخفا
مقام أقام الملك فيه ومنزل كسته يد العليا ثوب الهنا الأضفا

فلم تنشر في « الرائد » مقالات أدبية ، أو ثقافية ، وكان هذا النوع من المقالات نادرا في الصحافة العربية في هذه الفترة ، ولكن المشرفين على الجريدة خصصوا ركنا بعنوان « شذرات من لطائف الحكم والمحاضرات » . ونقرأ في العدد الثالث من جريدة « الرائد » الفقرة التالية :

« الحمد لله وحده

لما كنا المعنا في العدد الأول من هذه الصحيفة إلى أن من مقاصدها إقتطاف أزهار اللطائف والحكم من رياض الأدب ، وصفها على وجنات هذه الصفحات ليبتهج الناظر بمرآها ، رأينا الان من أحسنها منظرا ، واعطرها مخبرا ما إستنبت في حديقة كتاب السلوانات من الحكم والأمثال المنعقدة في ضمن الحكايات الموضوعية على السن العجماوات ، فأجلنا في الكتاب أيدي الإنتخاب مجتنين ما سنطوق به إن شاء الله لبات الصحائف المستقبلة ، ودونك الان من غير ذلك الكتاب ما هو كنايته السياج ، ونور الربيع الذي لا يخلو منظره عن إبتهاج » (55) .

إن عناية « الرائد » بالأدب تكاد تقتصر على مقتطفات من أمهات الأدب العربي القديم ، وكتب الحكم والأمثال مثل كتاب كليلة ودمنة ، ولامية العرب للشنفرى ، أو مقالات منقولة عن تاريخ العرب في الجاهلية (56) .

(55) إننا نهدف من وراء نقل بعض الفقرات الطويلة من جريدة « الرائد » :
أولا : إلى التعريف بطريقتها في العناية بالأدب والحكم .
ثانيا : إلى تقديم نموذج من الأسلوب الصحفي الأدبي في الفترة التي نعالجها سيما وقد يعسر على كثير من القراء الرجوع بسهولة إلى « الرائد التونسي » .

(56) راجع مثلا : « الرائد التونسي » الصادر يوم الأحد 9 محرم سنة 1279هـ ، أو العدد الحادي والثلاثين والاعداد التي تليه من السنة الثالثة .

ولم تصدر جريدة « الرائد » بإنتظام في عهدها الأول فقد إضطرها إنتشار مرض الكوليرة ، والمجاعة ، وتدهور الحالة الإقتصادية والإجتماعية إلى التوقف عن الصدور (57) . وعادت للصدور مرة ثانية يوم 23 نوفمبر 1869 ، ونقرأ في إفتتاحية العدد الأول بعد الصدور ما يلي :

« بحمد الله تعالى وعونه ، تأهب « الرائد التونسي » للوفود على أربابه ، وإفادتهم ما حوته حقيقته في مدة غيابه ، ملتزما أن لا يوردهم بإرتياد المستقبل الا اعذب مورد ، وأن يعود إلى خدمتهم بما هو أعود نفعا والعود أحمد ولتوقع تذنيبه ، ولومه على إطالة مغيبه ، رام أن يقدم تمهيد عذره في ذلك بما ملخصه : إن سوابق الأقدار الإلاهية إقتضت في المدة السالفة إمتحان المملكة التونسية بما هو معلوم لدى سكانها ، وسارت به ركبان الجرنالات في ميدانها ، وما إنضم لذلك من المرض العام الذي أثر نقصا كبيرا في الأنفس والثمرات والأنعام ، فاضطربت لذلك القلوب ، وضعف الطالب والمطلوب ، فوقع عند ذلك الإعراض عن « الرائد » وتأخير ماله على أربابه من العوائد وحين توقع أن ينبذ منهم بالعرا ، حل من أعباء إسفاره العرى ، ولزم مكانه ، وترك كل أحد وشأنه ، إلى أن حس مسيس الحاجة باستخدامه ، والرغبة في نتائج إعلامه ، لمزيد تنبه الأهالي في هذه المدة الأخيرة لما في جولان الجرنالات من الفوائد الغزيرة ، لا سيما إذا كان بالمملكة تعاليم أو تراتيب تتجدد ، فإن الجرنالات حينئذ تصير من الواجب المؤكد ، لتعليم نفع ما كان منها علميا ، وإشاعة تقرير ما كان امرا رسميا ، إلى غير ذلك مما يتوصل به إليه من أسباب التهذيب التي أدركته الأمم المتمدنة بالمشاهدة والتجريب . فلذلك ترى لهم ببلدانهم أسواقا نافقة ، وأشواقا إلى مطالعتها متسابقة ، فمنها يعرفون حوادث أيامهم ، وقوانين أحكامهم ، وعوائد بلدانهم ، ومحبة أوطانهم ، وتنمية

---

(57) راجع عن إنتشار وباء الكوليرة ، وإنتشار المجاعة وتدهور الحالة الإقتصادية بصفة عامة : إبن أبـي الضياف ، ج 6 ، ص 91 وما يليها ، ص 104 وما يليها .

عمرانهم وتربية صبيانهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وتوفير أرزاقهم ، وتمدن سياستهم ، وأحوال ذوي رئاساتهم ، وأخبار الأمم الأول ، ونسبة دولتهم من سائر الدول ، إلى غير ذلك من صنوف المعارف ، ونوادر الآداب واللطائف التي يجب لملاحظتها مع ما تقتضيه التراتيب المستحدثة هذه المدة في مالية الدولة الحمية ، أن تتحرك الرغبة إلى إحياء « الرائد » ، وإغتنام ما يحصل به من الفوائد ، على الوجه الذي أعلن به ناظر ، في الجمعة الماضية » (58) .

وقد إعتنى خير الدين باشا شخصيا بجريدة « الرائد التونسي » بعد تسميته وزيرا مباشرا ، ثم وزيرا أكبر ، فكان يوجه مقالاتها ، ويشرف على سياستها ، وابتدأت الصحيفة في عهده تنشر من حين لاخر (مقالات ترتبط بالحالة الراهنة مثل مقال « التربية » عند تأسيس المدرسة الصادقية ، ومقال « المدار على الرجال » عندما شاعت رائجات ، كذبت ببلاغ رسمي عن سحب الملك ثقته بالوزير) (59) .

وذكر الشيخ بيرم الخامس أن تلك المقالات كانت تصدر عن أفكار الوزير خير الدين وربما كان منها ما هو بتحريره أو مشاركته (60) .

وعرف أسلوب الجريدة مرحلة جديدة حين تولى إدارتها ورئاسة تحريرها أحد طلبة الشيخ قابادو ، وبيرم الخامس : الشيخ محمد السنوسي ، وهو يعد من أنصار خير الدين ، ومن زعماء الإصلاح الذين حاولوا حمل مشعل الحركة الإصلاحية بعد خير الدين ، ولا سيما بعد إنتصاب نظام الحماية . فقد أصبح قراء « الرائد » يجدون في عهد محمد السنوسي مقالا توجيهيا يحرره بنفسه (60 أ) . وبالرغم من طغيان الطابع الديني وطريقة الإستشهاد على

(58) إبن أبي الضياف ، ج 6 ، ص 117–118 .

(59) الحركة الأدبية ، ص 27 .

(60) نفس المصدر .

(60 أ) إشتغل في « الرائد » أيام خير الدين (1876) الشيخ حمزة افندي فتح الله ، أحد محرري جريدة « الكوكب الشرقي » بالاسكندرية . ووصل تونس قبله للقيام بنفس العمل الصحافي اللبناني منصور إفندي كرليتي ، راجع الاب شيخو ، الاداب العربية ، ج 2 ، ص 24–25 .

مقالات الشيخ السنوسي ، فإنها تعد لونا جديدا في أسلوب الصحافة العربية في تونس في عهدها الأول .

وبعد هذه اللمحة الخاطفة عن جريدة « الرائد » فإننا نستطيع أن نؤكد رسالتها في بداية النهضة الفكرية والأدبية التونسية فضلا على أنها تمثل اللبنة الأولى في تاريخ الصحافة القومية (61) .

حين يقتفي المرء خطوات الحركة الإصلاحية التونسية خلال نصف قرن قبل الإحتلال الفرنسي ، ويحاول دراسة آثار النهضة الفكرية والأدبية فإنه قد يتساءل في النهاية عن التيارات الفكرية والأدبية في هذه الحقبة ؟

إنه من الصعب الحديث عن تيارات فكرية ، أو حركة أدبية واضحة المعالم آنذاك ، فقد لمعت بروق النهضة الفكرية هنا وهناك ، وأثرت الحركة الإصلاحية في الميدان التربوي والثقافي العام ، وكان لكل ذلك أثر واضح في الحياة الأدبية ، وفي تجديد اللغة والأسلوب .

أما الطابع الثقافي العام الممثل لهذا العصر فهو طابع الثقافة التقليدية ، وهي الثقافة الإسلامية المتأثرة بعصور تحجر الحضارة العربية ، وجمود التفكير الإسلامي . إن صلاتها بقرون الإنحطاط أشد قوة من علاقاتها بعصور الإزدهار والتحرر في التاريخ الإسلامي . ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على الكتب التي كانت تدرس في الوسط الممثل لهذه الثقافة : الوسط الزيتوني لنلمس الحقيقة التاريخية المشار إليها (62) . فمن هذه الكتب الواردة في قسم التراجم من تاريخ الشيخ إبن أبي الضياف نذكر على سبيل المثال :

(61) راجع عن تاريخ الصحافة القومية التونسية ، ودورها في تطور الوعي القومي والثقافي :
H. Jenhani, Die Nationalpresse Tunesiens, Publizistik, Bonn, Heft 3, 1964, p. 246-255 ;
Zawadowski, Richard Holt, pionnier de la presse tunisienne, Revue Tunisienne, 1939, p. 127-131.

(62) ان قسم التراجم في « تاريخ اتحاف اهل الزمان » (الجزء السابع والثامن) يقدم لنا صورة دقيقة عن الوسط الزيتوني في النصف الثاني من القرن الماضي . راجع ايضا :
Lapie, L'enseignement de la Logique dans une Université musulmane (la Zitouna), Revue Tunisienne, 1895; M.F. Ghazi, le milieu zitounien..., Cahiers de Tunisie, N° 28, 1959, p. 437-474.

- الأشموني في النحو
- ملتقى الأبحر في الفقه .
- الخبيصي على التهذيب في المنطق .
- تفسير أبـي السعود .
- المرشد المعين لإبن عاشر .
- تفسير القاضي البيضاوي .
- شرح السعد للعقائد النسفية .
- شرح القسطلاني لصحيح البخاري .
- المختصر في الفقه المالكي .
- تذكرة القرطبـي في الحديث .
- شرح العضد لمختصر إبن الحاجب .
- الموافقات لأبـي اسحق الشاطبـي .
- صحيح البخاري .

فلم يكن يهتم هذا الوسط الثقافي بدراسة تاريخ المذاهب في الإسلام ، أو التاريخ الإسلامـي ، أو يعتمد على الأمهات في الدراسات الإسلامية ، بل يقتصر على التصانيف المتأخرة الركيكة الأسلوب ، المعقدة المعاني ، وأكثرها شروح وحواشي (63) .

ومن النادر أن نعثر في قائمة الكتب المتداولة في الوسط الزيتوني خلال الفترة الإصلاحية التي سبقت نظام الحماية على مصنفات علماء مسلمين جهابذة أمثال الإمام يوسف ، وسفيان الثوري ، والغزالي ، وإبن حزم ، وإبن تيمية ، أو أسماء فلاسفة أمثال الفارابـي ، وإبن رشد ، وإبن باجة ، وإبن خلدون . وهذه الظاهرة ليست خاصة بالوسط الزيتوني بل نجدها في وسط القرويين في

(63) لا شك أنه وجد من كان يرجع إلى الأمهات والمصادر الإسلامية الأصلية ، ولكن هؤلاء قليلون جدا .

فاس ، وفي الوسط الازهري . وكان هنالك إتصال بين مراكز الثقافة الإسلامية ولا سيما بين الزيتونة والأزهر (64) .

أما العناية بالأدب وتاريخه ، والدراسات الأدبية من نقد ، وتحليل للأساليب النثرية والشعرية فلا نعثر لها على أثر في برامج التعليم الزيتوني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، إذا إستثنينا الهوايات الخاصة . وأسماء كتاب وشعراء مشهورين في تاريخ الأدب العربي أمثال : عبد الله بن المقفع ، وأبي الفرج الاصفهاني ، والجاحظ ، وأبي حيان التوحيدي ، وإبن شرف ، وإبن رشيق ، وأبي نواس ، والمعري ، وإبن هاني ، والحصري الضرير فإنها تكاد تكون مجهولة تماما . وقد كانت العناية بالأدب والشعر تعد في أكثر الاحايين تضييعا للوقت ، ولا ينظر إليها بعين الإحترام . روى إلينا إبن أبي الضياف القصة التالية عن شيخ الإسلام بيرم الثالث قال : « دخل يوما للمدرسة العنقية فوجدنا في بيت إبنه بها ، ومعنا صاحبنا الفقيه البارع أبو عبد الله محمد بن سلامة ، وبأيدينا « روض الأداب » والأصوات عالية في نقد بيت من الشعر ، فسكتنا ، وجلس معنا ، وشاركنا ، ثم أخذ الكتاب من يد إبنه ، وقال لي : « ناولني الدواة » فكتب إرتجالا بخطه على ظاهره :

إن الزمان الذي تفنيه في الأدب
يراه أهل النهى من جملة اللعب
فاصرفه في شرف ترجى عواقبه
تأتيك آثاره تنهل كالسحب
وذا مقالي عن نصح افوه به
وليس يرجى لنصح المرء غير أب» (65)

(64) من الشيوخ الزيتونيين الذين درسوا في الازهر : الشيخ محمد بن حسن الهدة ، والشيخ محمد الخنقي ، والشيخ محمود مقديش الصفاقسي . راجع : إبن أبي الضياف ، ج 7 ، ص 14 وما يليها ، ص 20 ، ص 85 .

(65) إبن أبي الضياف ، ج 8 ، ص 54 وما يليها .

ولا يمكن أن ننتظر من هذا الوسط إلا أدبا تقليديا يطغى عليه فن المقامة ، ويغلب عليه التنميق اللفظي وأسلوب دواوين الإنشاء . وممن إشتهر من هؤلاء الكتاب : الباجي المسعودي ، وأحمد إبن أبي الضياف .

وقد يتبـادر إلى الذهن هنا السؤال التـالي : إذن أيْن هي حركـة التجديد الأدبي ، وآثار النهضة الفكرية التي طالما لمحنا إليها أثناء هذا الفصل ؟

فمن بين صفوف الوسط الزيتوني التقليدي نفسه إرتفعت أصوات المجددين والمصلحين ، وهي ظاهرة ترافقنا منذ عهد الحركة الإصلاحية في أيام المشير أحمد باي إلى الفترة المعاصرة فلمعت أسماء شهيرة مثل محمود قابادو ، وبيرم الخامس ، وسالم بوحاجب ، ومحمد السنوسي ، وعبد العزيز الثعالبي ، والطاهر الحداد ، وأبو القاسم الشابي .

إن حركة التجديد والنهضة هي تلك التي بث روحها الشيخ قابادو ، وتبناها بعده طلبته : إبن أبي الضياف ، وبيرم الخامس ، ومحمد السنوسي ، والنخبة الإصلاحية المؤازرة لخير الدين .

إن النهضة الفكرية الجديدة كانت تسير في خط مواز للوسط الزيتوني التقليدي ، وإن تزعمها في كثير من مراحلها رجال ينتسبون إليه رسميا ، ثم وجدت لها مركز نشاط في مدرسة باردو ، ثم المدرسة الصادقية ، فالخلدونية ، وهكذا تم الإتصال بين مراكز الثقافة التونسية الحديثة وبين المجددين والثائرين في صفوف النخبة الزيتونية .

إن حركة النهضة الأدبية التونسية لم تعش في عزلة أثناء هذه الفترة عـن النهضة الأدبية في الشرق العربي ، فقد كانت الكتب العربية الصادرة عـن مطبعة بولاق في القاهرة ، أو عن المطبعة العثمانية في استنبول تصل إلى تونس ، ويتهافت عليها القراء ، ومن هذه الكتب التي إشتهرت بين إفراد النخبة في تونس رحلة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1873—1873) المسماة « تخليص

الابريز في تخليص باريز » المطبوعة سنة 1250هـ وتعرف أيضا بإسم « الديوان النفيس بإيوان باريس » (66) .

وقد كان الشيخ رفاعة معروفا عند زعماء الإصلاح التونسيين ، واغتنم الشيخ إبن أبـي الضياف فرصة مرافقته للمشير أحمد باي إلى باريس للإجتماع بالشيخ الطهطاوي المقيم انذاك في باريس (67) . وحين يسترسل قلم إبن أبـي الضياف في وصف باريس يتذكر ما قرأه عنها في رحلة الشيخ رفاعة ، ويقارن بين ما قرأه عنها في تونس وبين ما شاهده ليخبرنا بعد ذلك أن الشيخ رفاعة قد أعطاها حقها ، وإنه قد إجتمع به فيها (68) .

ومن رواد النهضة الأدبية في العالم العربـي الذين زاروا تونس في الفترة الأولى من تاريخ الحركة الإصلاحية أحمد فارس الشدياق (1804—1887) (69) . فقد مدح أحمد باي أثناء زيارته لفرنسا بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

زارت سعاد وثوب الليل مسدول   فما الرقيب بغير النشر مدلول (70)

فاستدعاه أحمد باي إلى زيارة تونس ، وأكرمه إكراما كبيرا حدثنا عنه فارس الشدياق نفسه في آخر قصيدته قال :

« فلما بلغت هذه القصيدة إلى جنابه الرفيع إستدعى بالناظم في بارجة أرسلها له إلى مالطة ، وبعد أن حظي بلثم يده الكريمة أجازه عليها بما تبلغ

(66) راجع : الحركة الأدبية ، ص 17 وما يليها .

(67) راجع عن رفاعة رافع الطهطاوي : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، سبق ذكره ، ص 120—146 ، سركيس ، معجم المطبوعات ، عمود 942 ، يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت 1956 ، ج 2 ، ص 569 وما يليها (مع قائمة مصادر مفصلة) .

(68) إبن أبـي الضياف ، ج 4 ، ص 99 .

(69) راجع عنه : مصادر الدراسة الأدبية ، ج 2 ، ص 471—478 (مع قائمة مراجع مفصلة) ؛ جرجـي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، القاهرة ، 1903 ، ج 2 ، ص 81—92 .
H. Pérès, Les premières manifestations, op, cit., p. 233-256.

(70) راجع نص القصيدة في مجلة الجمعية الاسيوية الألمانية (Z.D.M.G.) ، ج5 ، 1851 ، ص250 وما يليها . وقد نشرت القصيدة مع ترجمة ألمانية قام بها المستشرق الالماني الشهير « H.L. Fleischer » (1888-1801).

قيمته ألفي ريال فرنسي ورده في سفينة النار مكرما فكانت هذه القصيدة مباركة على ناظمها كما كانت « بانت سعاد » مباركة على كعب بن زهير رض ، وليس في عصر المولى المشار إليه أدام الله عزه من يجيز على الشعر بمثل ما يجيز هو ، أو من يباريه في المحامد والمكارم فإن كرمه يلحق البعيد ، وجوده يسبق الطلب » (71) . ويخبرنا أسعد داغر (نقلا عن الأب شيخو في كتابه الأداب العربية) أنه تولى في تونس تحرير جريدة « الرائد التونسي » واعتنق الإسلام (72) ، إننا لا نملك وثائق عن إعتناق فارس الشدياق الإسلام في تونس (72 أ) ، أما خبر مساهمته في تحرير « الرائد » فخطأ ، لأنه لم يصدر بعد في المدة التي زار فيها فارس الشدياق تونس . ونستخلص من كلامه السابق أنه لم يقم مدة طويلة في العاصمة التونسية . ولكنه إتصل — دون ريب — بأهل الفكر فيها ، ولا سيما أولئك الذين كانوا ينتسبون إلى بطانة الباي (73) .

ولا ننسى في حديثنا عن إتصال النهضة الفكرية التونسية ببوادر النهضة العربية سفر رائد الحركة الأدبية التونسية الشيخ قابادو إلى بلدان الشرق الإسلامي وإقامته مدة طويلة في الأستانة . ونذكر أيضا بذلك الإتصال بين الوسط الزيتوني والأزهري .

إن حركة التأثر والتأثير هذه تؤيد ما لاحظناه من أن النهضة الثقافية التونسية في النصف الثاني من القرن الماضي تعد ركنا هاما من أركان النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي ، ويعد زعماؤها من رواد الفكر الإسلامي المعاصر . وليس من باب القومية الضيقة حين نقول : إن الحركة التونسية تكاد تكون

---

(71) نفس المصدر ، ص 252 .

(72) مصادر الدراسات الأدبية ، ص 473 .

(72 أ) الإشارة الوحيدة التي وقفنا عليها حول هذه النقطة هي قول الاب شيخو : « وفي مدة إقامته في تونس سول إليه إعيانها بأن يعتنق الدين الإسلامي ، فجحد البروتستانية طمعا بالمناصب كما جحد الكثلكة طمعا بالمال » (الأداب العربية ، ج 2 ، ص 86) .

(73) طبعت له المطبعة الرسمية التونسية سنة 1283هـ كتابه (كشف المخبا عن فنون أوروبا) .

الحركة الوحيدة في المغرب العربي في هذه الفترة المبكرة ، فلا نجد لها عديلا في بقية بلدان المغرب الكبير ، ونعني هنا بالخصوص حركة هادفة بينة المعالم . ولعل وضع البلاد التونسية الجغرافي بين الشرق والغرب ، واتجاه أنظار الدول الكبرى إليها منذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر سببان هامان من أسباب إنفرادها بهذه الظاهرة الثقافية في المغرب العربي .

النخبة المثقفة :

إستعملنا في معالجتنا لبوادر النهضة الفكرية التونسية كلمات مثل : « النخبة المثقفة » ، « رواد الفكر » ، « رجال الإصلاح » أو ،« أوساط المثقفين » ، فما هي يا ترى أهمية هذه الفئة الإجتماعية في الفترة التي درسناها في هذا الفصل ؟ إنه من الصعب تحديد منحدرها الإجتماعي ، ومستوى عيشها ، وعناصر تكوين شخصية أفرادها ، ودرجة وعيها القومي والثقافي ، فإنه تعوزنا الوثائق الضرورية لمثل هذا التحليل الإجتماعي – الثقافي ، ولكن الأمر الذي نستطيع تأكيده هو :

أولا : إن فئة « المثقفين » ، أو المتعلمين في هذه الفترة ، أي فترة ما بين سنة 1837 وسنة 1881 فئة إجتماعية بارزة في المجتمع التونسي تتركب بالدرجة الأولى من علماء الدين ، وخريجي جامع الزيتونة بصفة عامة ، وهي فئة لها تأثيرها في الرأي العام ، وتذكرنا في هذا الشأن بدور « النخبة المثقفة » القيروانية في القرون الوسطى (74) .

ثانيا : إن ثقافة هذه النخبة ثقافة تقليدية يغلب عليها طابع ثقافة الوسط الزيتوني المشار إليه سابقا . ولكننا نجد في صفوفها من تأثر بثقافة العصر ا نذاك ،

(74) راجع عن دور النخبة القيروانية : الحبيب الجنحاني ، القيروان عبر عصور إزدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ، تونس ، 1968 ، ص 153–165 .

واطلع على الثقافات الحية من خلال الكتب المترجمة المطبوعة ، أو عن طريق تأثير مدرسة باردو ، ثم المدرسة الصادقية ، أو نتيجة زيارة البلدان الأوروبية .

ثالثا : لم تكن تتمتع هذه النخبة بمكانة إجتماعية فحسب بل كان ينظر إليها بعين الإحترام من طرف الحاكمين ، وهي نظرة يشوبها في بعض الاحايين شيء من القلق ، وعدم الإطمئنان ، ولبعض أفرادها تأثير في الوسط الرسمي ، ومشاركة مباشرة في الحكم مثل كتاب الدواوين ، أو وزراء القلم ، ومن أبرزهم الكاتبان : أحمد إبن أبي الضياف والباجي المسعودي . ومن الأدباء المنتسبين إلى البلاط الأديب أبو عبد الله محمد قلالة . وقد أوفدت الدولة الحسينية أفرادا من هذه النخبة في مهمات سياسية دقيقة مثل سفارة الشيخ إبراهيم الرياحي في 30 جانفي 1838 إلى إستنبول للشفاعة لدى السلطان محمود (75) ، أو سفارته في سنة 1218هـ إلى سلطان المغرب الأقصى أبي الربيع سليمان بن محمد لجلب الميرة (76) .

ونذكر هنا موقفه المعارض لموقف أحمد باي في قضية قاضي راس الجبل محمد العنابي الذي إحتمى بالقنصلية البريطانية ، فأراد الباي عزله عن خطة القضاء ، ولكنه في النهاية « طوى بساط النازلة ، وعلم موقع نصيحة الشيخ ، وجعلها مناط سياسته ، وتجافى الأسباب المفضية لذلك بما أمكنه » (77) .

وأرسل الشيخ إبن أبي الضياف في مهمة سياسية إلى الدولة العثمانية ، وكذلك الكاتب أبو الحسن علي الدرناوي (78) .

رابعا : إن أفراد هذه النخبة الذين كانت لهم شخصية قوية مستقلة ، ووقفوا مواقف معارضة للحكم المطلق في بعض القضايا ، أو نددوا بتصرفات

(75) إبن أبي الضياف ، ج 4 ، ص 19 وما يليها ، ج 6 ، ص 16 .
(76) نفس المصدر ، ج 7 ، ص 74 وما يليها .
(77) نفس المصدر ، ج 4 ، ص 117 وما يليها .
(78) نفس المصدر ، ج 4 ، ص 58 وما يليها ، ج 6 ، ص 17 .

الحسينيين فيما تركوه لنا من اثار قليلون ، ونذكر منهم : الشيخ قابادو ، وأحمد إبن أبي الضياف ، والشيخ إسماعيل التميمي ، والشيخ إبراهيم الرياحي ، وبيرم الخامس ، وسالم بوحاجب (78 أ) ، أما الأغلبية فقد كانت تعيش في عزلة عن السياسة ، منقادة للحاكمين مهما ساءت تصرفاتهم المنافية لأبسط قواعد الإسلام ، ويدعي تمثيله أولئك الطيعون . وربما أنكروا في نفوسهم كثيرا من الأعمال الشنيعة التي إرتكبها الأمراء الحسينيون ، والتي سجلها لنا إبن أبي الضياف ، ولكنهم لم يعربوا علنا عن إنكارهم . وهل يمكن أن ننتظر منهم مواقف أخرى في ذلك العصر؟ وهل يسمح وعيهم الثقافي بفهم الملابسات السياسية ، ودور النخبة في تسيير المجتمع ؟ إنه من الحدس التاريخي ، والخروج عن الإطار الزمني لو يجيب المرء عن هذين السؤالين بغير الجواب السلبي المنتظر من القارىء .

(78 أ) راجع عنه : محمد الفاضل ابن عاشور ، مشاهير التونسيين في القرن الرابع عشر ، الثريا، ماي، 1944 ، ص 2–5 .

القسم الثاني :

الحركة الاصلاحية من انتصاب نظـام الحماية الى بداية القرن العشرين

نزل الإحتـلال الفرنسي للبلاد التونسيـة كالصاعقـة على رؤوس نخبة الإصلاح ، وهي التي طالما حاولت عن طريق مشاريعها الإصلاحية أن تقف في وجه سياسة التوسع الأوروبية .

وقد بدأ الشعور بالخيبة في أوساطها أثر إستقالة خير الدين ، ومغادرته نهائيا البلاد ، وبلغ القمة بعد دخول الجيش الفرنسي محتلا التراب التونسي .

ومن أسباب فشل الحركة الإصلاحية ، والعودة إلى حياة التدهور والإنحلال التي شهر بها النظام في عهد مصطفى خزندار ، وتحت حماية أسياده الحسينيين ذلك التناقض الجذري المشار إليه في القسم الأول بين أهداف الحركة ، ومستوى أصحابها وبين طبيعـة نظـام الحكم المطلـق ، وتدهور حالة البلاد السياسيـة والإقتصادية والإجتماعية . وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه المأساة القومية في إحتلال عسكري شامل ، سرعان ما تلاه إنحلال مظاهر السيادة الوطنية ، والإستيلاء على إدارة البلاد واقتصادها ستضع حدا ، مدة طويلة ، لكل حركة إصلاحية وطنية . ولكن سرعان ما نما زرع بذور حركة الإصلاح التي هبت ريحها قبيل إنتصاب نظام الحماية فلم تطل فترة الدهشة ، وآثـار مرارة الخيبة .

وهنا نعود لنؤكد من جديد أهمية الحركة الإصلاحية التي سبقت الحماية ، فهـي حركة فشلت سياسيا ، ولكنها نجحت فكريا ، فقد برزت آثـارها في ميدان إصلاح التعليم ، والعناية بالنشر والصحافة ، ولا سيما آثـار تلك المؤسسة القومية الهامة : المدرسة الصادقية .

فمن بين صفوف الفوج الأول من خرّيجيها سيبرز قادة الحركة القومية التونسية في مرحلتها الأولى . وحتى أولئك الذين رحبوا بالإحتلال الأجنبي ظنّا منهم ، بادىء ذي بدء ، أنه أخفّ الضررين ، وأنه سيحقق الأمن المنخرم في عهد الحسينيين ويضع حدّاً لتصرفات الصادق باي ، ووزيره المستبد مصطفى ابن إسماعيل قد إستفاقوا من غفلتهم وبدأوا يشعرون أن التبعية الجديدة ستؤدّي — مع تقدّم الزمن — إلى ذوبان مظاهر الشخصية التونسية الإسلامية من لغة وثقافة ودين .

إن قلة المتعلّمين ، وإنعدام الوعي يجعلان الأنظار تتّجه إلى بعض المثقفين من أبناء البورجوازية التقليدية من سكّان العاصمة لمواصلة الحركة الإصلاحية . وهكذا وجدت النخبة في شخص أحد طلبة الشيخ قابادو ، ونصير من أنصار خير الدين بالأمس ، الشيخ محمد السنوسي ، تحقيقا لأمالها في مواصلة الحركة .

لا شك أن وعـي نخبة العاصمة وإتصالها بأخبار الحركات السياسية في الشرق والغرب ، وشعورها الإسلامـي — الوطني أدّى كل ذلك إلى ثورتها في وجه النظام الإستعماري الجديد ، وإلى ردّ فعلها تجاه المسؤولين عنه ، ولكنّنا لا ننسى عاملا آخر هاما ، وهو فقدان أسر إستقراطية العاصمة لإمتيازاتها القديمة ، ولوظائفها السامية في الإدارة التونسية ، والجيش ، فقد أصبحت الوظائف الهامة بيد الفرنسيين ، وانقلب الجيش التونسي إلى فرقة خاصة بحراسة قصر الباي .

ثم شدّد النظام الأجنبي الجديد الخناق على البورجوازية التقليدية في الميدان التجاري والفلاحي بعد ذلك .

إنّ سكان القرى والمدن الصغيرة لم يشعروا بالإضطهاد الإقتصادي إلا بعد بداية السياسة الإستعمارية في الميدان الفلاحي ، وقدوم أفواج المعمرين . وقد جعلهم نظام الضرائب المجحف قبل الحماية لا يشعرون في السنوات الأولى

بأن مصالحهم الإقتصادية أصبحت مهددة ، ولهذا فقد جاءت مقاومتهم للجيش الفرنسي في مدن الساحل ، والقيروان ، والجنوب التونسي ذبّا عن حرمة الوطن ، وعن الإسلام .

أما الأسر الارستقراطية في العاصمة فقد ضيّعت إمتيازاتها منذ السنوات الأولى ، وتكاد تكون الأسر الوحيدة التي نجد بين صفوفها عناصر مثقفة واعية ، فلا غرو إذن أن تقتصر حركة الإصلاح بعد الحماية على أوساط معينة من سكان العاصمة . ولعلّ هذه الظاهرة هي التي تفسر لنا كثيرا من ميزات الحركة القومية في نهاية القرن التاسع عشر، ومنها إكتسابها طابع المسالمة والمهادنة ، وإقتصارها ثلث قرن على نوادي العاصمة ، والصحافة والمجالس الخاصة .

وقبل الحديث عن مطالب ، وأهداف الحركة الإصلاحية التونسية إثر فرض نظام الحماية على البلاد نبدي الملاحظة التالية :

تأثرت الحركة الإصلاحية فكريا في عهد قابادو ، وخير الدين بالنهضة الثقافية في المشرق الإسلامي ، ولا سيما في مركز الخلافة العثمانية ، وفي بيروت، والقاهرة ، ولكن دون إتصال تنظيمي مستمر ، أو إنتساب إلى فكرة إصلاحية معينة ، ولم يتجاوز الإتصال الذي كان موجودا المراسلات الشخصية . ولم نلمس الشعور بالإرتباط بحركة مشرقية معيّنة ، دينية كانت أم سياسية بل رأينا أن إرتباطها بالنهضة الأوروبية أشد وثوقا ، وغلب عليها بصفة عامة الطابع التونسي رغم صلتها المتينة بحركة الإصلاح الإسلامية ، وإلتقائها معها في صعيد واحد في كثير من النقاط .

أما حركة الإصلاح التي تزعّمها محمد السنوسي بعد سنة 1881 فهي تنتمي في وضوح إلى حركة إسلامية جامعة ، وتلحّ في إنتسابها إلى حركة دعاة تجديد الإسلام والعمل على نشر الوعي في العالم الإسلامي كلّه ، ويستمرّ هذا الاتجاه واضحا بارزا إلى ميلاد حركة « الشباب التونسي » في مطلع القرن العشرين

بزعامة البشير صفر ، وعلي باش حامبة حيث نجده يكتسب طابعا جديدا ، ويستمر حسب طابعه القديم في أوساط معيّنة إفتكت منها نخبة الشباب قيادة حركة النهضة السياسية والفكرية .

أما ذلك الإنتماء إلى الحركة الإسلامية المشرقية التي تزعمها السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده ، فإنه يعود في نظرنا إلى أسباب عدّة أهمها :

— الإحتلال الأجنبي ، والشعور بضرورة التضامن لمقاومته ، سيما وقد تبين نهائيا عجز السلطنة العثمانية على حماية البلدان الإسلامية من الدول الأوروبية الكبرى . وجعل إحتلال مصر سنة بعد إحتلال تونس نخبة البلدين تشعر بالمصير المشترك ، وتحاول التعرف إلى بعضها بعضا .

— إنتشار دعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بإعتبارها دعوة إسلامية جامعة كما نقلت مجلة « العروة الوثقى » مبادئها إلى النخبة التونسية .

— فقدان الحركة الإصلاحية التونسية لزعمائها البارزين ، فقد فقدت قابادو ، وخير الدين ، وبيرم الخامس . فقد جعلها ذلك تلتف حول حركة أصبح لها زعماء بارزون مثل الأفغاني وعبده ، ثم السيد رشيد رضا .

صدى « العروة الوثقى » في وسط النخبة التونسية :

لا غرابة أن تكون تونس في طليعة البلدان الإسلامية التي وجدت فيها حركة جمال الدين الأفغاني (1838—1897) ، والشيخ محمد عبده (1849—1905) تربة خصبة ، فقد أصبحت للأفكار الإصلاحية تقاليد عريقة بين نخبتها المثقفة وقد إشتهر زعماؤها في العالم الإسلامي ، وأصبح أحد روادها البارزين الوزير خير الدين شخصية مرموقة في مركز السلطنة العثمانية ، ملتقى التيارات الإصلاحية الجديدة المؤيدة والمناهضة لحكام الباب العالي .

فلم تمر مدة طويلة على بروز دعوة الأفغاني وتلميذه عبده في هيكل تنظيمي سرّي شامل حتى أصبح المجدّدون التونسيون من ألمع أعضائها (1) .

إن زيارة الأستاذ الإمام مرتين لتونس لم تكن من باب الصدفة بل جاءت نتيجة تلك السمعة التي أصبحت تتمتع بها الحركة الإصلاحية التونسية لدى رواد النهضة الفكرية في الشرق الإسلامي . وقد لفتت الحركة التونسية إنتباه الأستاذ الإمام إلى أهمية بلدان المغرب العربي بالنسبة لدعوته فنجده يعرّج على الجزائر بمناسبة زيارته الثانية إلى تونس ، ويقرر فيما بعد زيارة المغرب الأقصى ، لكن الموت يسرع إليه فيحول بينه وبين زيارة المغرب الكبير للمرة الثالثة (2) .

ولم تكن زيارته لتونس سحابة صيف بل تركت أثرا عميقا ، ومراسلات وإتصالات متينة (3) . وقد مهدت إليها علاقات بين فئة من المثقفين التونسيين وبين « جمعية العروة الوثقى » التي أسّسها السيد جمال الدين الأفغاني بكلكته سنة 1882 . وبادر بيرم الخامس إلى الإنخراط فيها صحبة صديقه الأمير عبد القادر الجزائري . وقد إتصل الشيخ محمد السنوسي في رحلته إلى الشرق سنة 1882 « بجمعية العروة الوثقى » عن طريقهما وانضم إلى صفوفها . ولما عاد إلى تونس أصبح داعية من دعاتها المتحمسين ، وانخرط فيها بواسطته عدد من الشخصيات التونسية .

(1) راجع عن حركة الأفغاني وعبده : رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، القاهرة 1931 ؛ العروة الوثقى ، القاهرة 1958 ؛ مصادر الدراسة الأدبية ج 2 ص 126—131 ، 597—602 (مع قائمة مصادر مفصلة) ،
C.C. Admas, Islam and modernisme in Egypt, London, 1933 ; H. A.R. Gibb, Les tendances modernes de l'Islam, Paris, 1949 ; J. Joumier, Le Commentaire Coranique du Manâr, Paris, 1954, p. 1-22 ; A. Demeerseman, Les tous premiers débuts du modernisme en Islam, IBLA, N° 68, 1954, p. 327-352; Elie Kedouri, Nouvelle lumière sur Afghani et Abduh, Orient, N° 30-31, 1964, p. 37-54, 83-104.

(2) راجع عن زيارته للجزائر :
Ali Merad, L'enseignement politique de Muhamad Abduh aux Algériens (1903), Orient, N° 28, 1963, p. 75-123.

(3) راجع عن زيارة الأستاذ الإمام إلى تونس ، المنصف الشنوفي ، مصادر عن رحلتي الشيخ محمد عبده إلى تونس ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث ، 1966 ، ص 71—102 .

وتوطدت العلاقات بين النخبة التونسية و« جمعية العروة الوثقى » بعد صدور مجلتها « العروة الوثقى » في باريس (13 مارس– 16 أكتوبر 1884) ، فقد أصبحت همزة الوصل بين أفكار الأفغاني ، وتلميذه عبده ، وبين فئة الإصلاح في تونس . إن صدور المجلة في العاصمة الفرنسية نفسها ، وملاينتها للإستعمار الفرنسي ، وإعلانها ثورة شعواء على الإستعمار البريطاني ، مزاحم السياسة الإستعمارية الفرنسية جعلها تصل إلى أيدي المجددين التونسيين دون أدنى عناء ، ولم تصادر ، ويلاحق قراؤها كما كان الشأن في الهند ومصر مثلا .

وتكشف رسالة التقريظ والإعجاب التي بعث بها الشيخ محمد السنوسي إلى الشيخ عبده بمناسبة صدور الإعداد الأولى من « العروة الوثقى » عن مدى الأثر العميق الذي أحدثته المجلة في نفوس العصابة التونسية . كتب إليه يقول :

« ... كيف والأ ة العربية في هذا الزمان ، محتاجة إلى لسان ، يعرب عن الداء الذي تكنه في الجنان ، وينقذها من الإنقياد إلى العميان ، بل إنها إليه أحوج من حاجتها إلى الماء والهواء ، إذا لم تجد بدونه متنفسا ، ولا مساغا للإرتواء ، حتى أتاح هذا الدهر بصاحب العرض الأنقى ، هذا الهاتف الذي صدع للأمة بإسم العروة الوثقى :

لئن دجت الاحلاك بالغيهب الابقى وضلت حلوم بعد أن طرقت طرقا
فقد وضح الصبح الذي بان عندما أنيط جمال الدين بالعروة الوثقى

ناهيك به من عروة يتمسك بها أهل الهدى ، ويتقون بها الردى ، وينيطون بها أمل الحياة فلا يذهب سعيهم سدى ، قد إرتجفت لرجفه أصقاع الإسلام واحتجت لمقدماته العقلية فصحاء الأعلام ... » (4) .

وقد شجع ذلك الصدى الذي وجدته مجلة « العروة الوثقى » في الأوساط التونسية الشيخ محمد عبده لزيارة تونس ، فانتهز فرصة توقف المجلة ، وقام

(4) نفس المصدر ص 81 .

بزيارته الأولى إلى تونس (6 ديسمبر 1884—4 جانفي 1885) . ويبدو أن بيرم الخامس بعث برسالة إلى الجنرال محمد البكوش ، مستشار الشؤون الخارجية بالحكومة التونسية يقدم له فيها الأستاذ الإمام ، ويوصيه به خيرا (5) .

ويخبرنا صاحب « الرحلة الحجازية » أن الشيخ عبده قد إستقبل بكل حفاوة في العاصمة التونسية ، ولعلها أعظم حفاوة استقبل بها الأستاذ الإمام في بلد إسلامي فاتصل بعدد من الأمراء الحسينيين ، بينهم محمد الناصر باي ، واستضافه بالحاضرة كثير من أعيان العلماء وحضر الدروس بجامع الزيتونة ، واتصل بالخصوص بأعضاء : « العروة الوثقى » وعقد معهم مجالس مختلفة في بيت الشيخ السنوسي . وكان زعيم الحركة الإصلاحية التونسية غداة الحماية الشيخ محمد السنوسي هو منظم هذه الرحلة والساهر على نجاحها . وقد ساعدت شخصيته وسمعته في البلاط الحسيني ، وفي أوساط المثقفين التونسيين الضيف المصري على تحقيق أهداف رحلته ، وبثّ أفكاره .

ونشير هنا إلى أن زيارة الشيخ عبده إلى تونس صادفت فترة التباعد بينه وبين أستاذه السيد جمال الدين ، وبروز إختلافهما الجوهري حول طريقة العمل لتحقيق أهداف الحركة الإسلامية الجديدة التي أعربت عنها مقالات « العروة الوثقى » (6) ، فقد كان الافغاني يرى الإصلاح عن طريق السياسة ، وإنه لا يمكن القيام بأي إصلاح قبل مغادرة الأجنبي البلاد الإسلامية . إذن فهدف الحركة الرئيسي هو هدف سياسي ، ألا وهو تحرير الشعوب الإسلامية

---

(5) J. Jomier, op. cit., p, 8. يقول الأستاذ المنصف الشنوفي أنه رغم عديد البحوث لم يعثر على الرسالة (ص 77) . وهو يؤكد أن أمر هذه الرسالة لا يحتمل الشك ، وأن عبده كان « محملا » بهذه الرسالة الخطية عند زورته الأولى ، ولكنه يحيلنا على Jomier فقط . وهذا الأخير نفسه لا يحيلنا على مصدر ، ولايدقق فيقول: إن عبده كان « محملا » بالرسالة . ونلاحظ أن المصدر الهام الذي إعتمده المنصف الشنوفي حول أخبار زيارة عبده الأولى « الرحلة الحجازية » للشيخ السنوسي لا يذكر أمر الرسالة ، ولا يتضمن إشارة إلى إجتماع محمد البكوش بالشيخ عبده في تونس . وليس معنى هذا أن الرسالة لم توجد البتة ، ولكن عدم الإعتماد على مرجع أصلي في الموضوع يجعل الباحث يقف من أمرها محترزا .

(6) راجع : « العروة الوثقى » ، ص 33—34 .

من الهيمنة الأجنبية ، ثم بعد ذلك تبدأ مرحلة الإصلاحات التي سيشرف عليها جهاز السيادة المستقلة : الدولة الوطنية الجديدة . إن الحركة الإسلامية تهدف عنده إلى توحيد العالم الإسلامي في حلف دفاعي كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء . وكان يومن طبعا بضرورة توعية الشعوب الإسلامية وتعليمها ولكن أولا وبالذات لتعرف حقوقها وتدافع عنها ، فكان يقول :

« ولن تنبعث شرارة الإصلاح في وسط هذا الظلام الحالك إلا إذا تعلم الشعب وعرف حقوقه ، ودافع عنها ، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطرا إلى المطالبة بها ، والمحافظة عليها » (7) . فقد جاء جمال الدين الأفغاني سابقا لعصره بما يربو عن ثلث قرن ، فهذا الإتجاه هو الذي تبنّته كثير من الحركات القومية ، وحركات الإصلاح الإسلامية التقدمية في الربع الثاني من القرن العشرين .

وكان الشيخ عبده يسير في نفس الطريق الذي رسمه أستاذه ، ولكنه أصبح يميل ، بعد عملهما المشترك في باريس ، إلى طريقة عمل تختلف عن طريقة الأفغاني وهي تتلخّص في أن الإصلاح يجب أن يتم من خلال تربية الأمة وتعليمها ، وأن تحرير الشعوب الإسلامية يأتي بطبيعته بعد ذلك (8) . إن إقتراح عبده على الأفغاني لترك السياسة ، والإهتمام بالتربية والتعليم أصبح معروفا في تاريخ الحركة الإسلامية في نهاية القرن الماضي. قال له في باريس مقترحا : (أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان ، أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم إلى مقصدنا فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى ألا ولدينا مائة

(7) نفس المصدر ، ص 30 .

(8) راجع في هذا الشأن :

H.A.R. Gibb, op. cit., p. 45, 53-54; J. Jomier, op. cit., p. 10.

قائد من قواد الجهاد في سبيل الإصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح . فقال له السيد : « إنما أنت مثبط ») (9) .

إن إتجاه عبده هذا هو إتجاه خيالي أقامت التطوّرات السياسية في العالم الإسلامي في الثلث الأول من هذا القرن الدليل على عدم واقعيّته ، وإن القضية الأولى في حياة الشعوب الإسلامية هي قضية سياسية ، ومن هنا نحكم اليوم على هذا الإتجاه حكما سلبيّا ، فهو إتجاه إصلاحي ليس للعمل السياسي فيه وزن كبير ، ولكنه بالرغم من ذلك فقد ساهم في حركة التوعية ، وفي تطوّر النهضة الفكرية ، والتيارات الإصلاحية في تاريخ الإسلام الحديث ، وعبّد السبيل للحركات السياسية والفكرية التي تبنّت في المرحلة التي تلت عصر عبده المطالب السياسية للقضية القومية .

ونلمس أثر هذا الإتجاه الإصلاحي التربوي واضحا في تونس من عهد الحماية إلى حوادث الجلاّز ، وقد تغلّب على أصحاب الإتجاه السياسي المناهض للسيطرة الأجنبية في المرحلة الأولى من تاريخ الحركة القومية . وقد أيّدت حوادث أفريل 1885 إتجاه الإصلاح الديني والإجتماعي ، وبيّنت صعوبة القيام بحركة مقاومة سياسية عنيفة ضد الإدارة الإستعمارية ، وكشفت عزلتها عن الشعب (10) .

---

(9) تاريخ الأستاذ الإمام ، ص 416 .

(10) لا شك أن زيارة الأستاذ الإمام إلى تونس قد شجعت نخبة الإصلاح التونسية ، ورفعت معنوياتها ، ولكننا لا نعتقد وجود صلة مباشرة بين زيارته وبين الحركة الإحتجاجية التي إندلعت يوم 4 أفريل 1885 اثر صدور قانون المجلس البلدي الجديد الصادر في « الرائد التونسي » يوم 2 أفريل 1885 :

أولا : لأن الشيخ عبده شهر بمواقفه المسالمة المجاملة للإستعمار الفرنسي (راجع : Ali Merad, op. cit., p. 94-96).

وثانيا : لأن صدور قانون المجلس البلدي خلق فرصة ارادت النخبة اغتنامها لتعرب عن عدم رضاها بالنظام الجديد ، ولتكفر عن موقفها السلبي في الأيام الأولى ، ذلك الموقف الذي وصفه الشيخ السنوسي في رسالته إلى عبده قبل زيارته إلى تونس قائلا :

« ... فأصبحوا وساء صباح المنذرين ، تنتهشهم مخالب ليوث العرين ، فالرأس فيه واضحة ، والجوارح أصبتها جارحة ، وبقية الجسد بين جائفة ومرضوضة ، ونفس متأوهة ، ودموع

إن حركة الإحتجاج التي قامت بها النخبة ، ومن ورائها عدد كبير من سكان العاصمة ، يوم السبت 4 أفريل 1885 هي أول حركة يقوم بها الوطنيون ضدّ مقررات الإدارة الفرنسية الجديدة (11) . وقد أدخل ردّ الفعل الصارم الذي قام به المقيم الفرنسي بول كامبون (Paul Cambon) ضدّ زعماء الإصلاح الوجل في نفوس تلك الفئة القليلة من سكان العاصمة ، فأصدر أمرا يوم 21 ماي 1885 يقضي بعزل محمد السنوسي عن وظيفه ، ونفيه إلى قابس ، وعزل الشيخ أحمد الورتاني رئيس الأوقاف والمدرّس بجامع الزيتونة ، ونفيه إلى قابس أيضا ، كما عزل حسونة بن مصطفى وكيل الأوقاف ، وأبعد إلى الكاف . وقد كانت هذه الإجراآت عقابا شاقا وعنيفا ضد أبناء استقراطية العاصمة « الذين تثقلهم حضريتهم وتكاليفهم عن خوض غمار الكفاح العنيف » (12) ، سيما وقد كان جميعهم من موظفي الإدارة ، وليس للمتعلمين انذاك إمكانية الشغل خارج الوظيفة ، فلم تنتشر المهن الحرّة بعد ، وتستمرّ هذه الظاهرة في تاريخ الحركة القومية بعد ذلك ، ونعني ظاهرة ميل نخبة العاصمة إلى حركات سياسية إصلاحية مسالمة هادئة ، واقتصارها في أكثر الاحايين على طرق عمل سلبية لا تتجاوز كتابة بعض المقالات أو الإحتجاجات ، أو اجتماعات النوادي والدكاكين ، ومن المعروف أن نخبة الساحل بالخصوص ، والجيل الجديد من أبناء العاصمة المنحدرين من أسر شعبية ، أو فئات إجتماعية متوسطة هم الذين غيّروا طرق العمل ، وخاضوا غمار الكفاح العنيف ،

مفضوضة ، لا يعرب عن ألم فؤادهم ، لسان ملوكهم وقوادهم ، الا بما يضاعف عليهم الويل ، ويجلب عليهم السيل ، إلى حيث صاروا أخرس من جماد ، وأذل من مفرد الأوتاد ، اقترضوا الأموال فاستعبدهم أرباب الديون وعدموا منافع ثروتهم في السهول والحزون ، وأخلدوا إلى الملذات ، فبدلت حسناتهم بالسيئات وأضاعوا جميع موجبات الأرباب ، من الإستعداد الذي جاء به الكتاب ... » ، حوليات الجامعة التونسية ، ص 80 .

ونلاحظ أن الشيخ محمد الفاضل إبن عاشور ، والأستاذ المنصف الشنوفي يؤكدان العلاقة المتينة بين زيارة الشيخ عبده ، واندلاع أول حركة إحتجاجية ضد النظام الإستعماري . راجع : الحركة الأدبية ... ، ص 44 ؛ حوليات الجامعة ، ص 85 .

(11) راجع تفاصيل مظاهرة الإحتجاج في المصدر السابق ، ص 86–89 .

(12) الحركة الأدبية ... ، ص 45 .

الكفاح الذي لم تتحمّل أعباءه نخبة رواد الحركة القومية غداة فرض الحماية . وليس في هذا تحقير لدورهم الطلائعي العام ، ومرة أخرى ينبغي علينا ألاّ نغفل عن الاطار الزّمني والتاريخي للحوادث الّتي نلمّح إليها هنا .

وقبل إن ننتقل للحديث عن فترة العمل الإصلاحي السلمي بعد قمع الحركة الإحتجاجية الأولى نريد أن نشير إلى النقاط التالية :

أولا : إن الحركة الإصلاحية التونسية عدلت في نهاية القرن الماضي ، وبعد فشل حركة الإحتجاج ضد القانون البلدي ، وردّ فعل المقيم العام والجالية الإستعمارية ، إلى منهج السياسة المسالمة ، والإصلاح الديني والتربوي والإهتمام بصفة خاصة بإصلاح التعليم ، وبوسائل النهضة الثقافية ، وهو المنهج الذي إختاره الشيخ عبده بعد توقف مجلة « العروة الوثقى » ومفارقته للسيد جمال الدين . وقد حاول الشيخ عبده أثناء إقامته بتونس تركيز هذا الإتجاه بين أعضاء « العروة الوثقى » ، وهو إتجاه تبلور عنده ، وفكر فيه مليّا في باريس .

ثانيا : بالرغم من توقف مجلة « العروة الوثقى » والتباعد بين الأفغاني وعبده ، وضعف الحركة في المشرق الإسلامي فقد وجدت بوادر الحركة القومية التونسية سندا قويا في دعوة الأفغاني وعبده ، ولا سيما بعد زيارة الشيخ عبده لتونس ، فقد بلغت أصداء الحركة التونسية الشرق العربي ، وأصبحتْ من أهم موضوعات الرسائل بين الأستاذ الإمام وبين أصدقائه التونسيين الذين ما فتىء يتتبع أخبارهم (13) . وقد توطّدت هذه العلاقات بعد صدور مجلة المنار ، ومدافعتها عن المجدّدين التونسيين ، كما سنرى .

ثالثا : أصبحت تضم نخبة الإصلاح التونسية بين صفوفها عناصر شابّة متحمّسة نشطة ، واعية ، ذات ثقافة مزدوجة : عربية وفرنسية ، وهي عناصر متصلة مباشرة بالنهضة الأوروبية ، ودرس بعضها في الجامعات الفرنسية .

(13) راجع : حوليات الجامعة ، ص 89–90 .

وهذه النخبة الجديدة تتألف من الفوج الأول من تلامذة المدرسة الصادقية المتخرّجين سنة 1882 . وزعيم هذه النخبة البشير صفر ، أحد رواد النهضة الوطنية في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن العشرين ، وقد أدّى رسالة خطيرة في الحياة الوطنية التونسية (14) .

إن فكرة التنظيم السياسي ، وتأسيس حزب ، أو جمعية سياسية سرّية لم تنضج بعد في صفوف نخبة الإصلاح التونسية ، ومن الصعب أن يَسمح بذلك الظرف السياسي في البلاد آنذاك ، أو تطوّر وعي غالب المثقفين ، وأكثرهم من ذوى الثقافة التقليدية الذين لا يفقهون في السياسة شيئا ، وربما يرون فيها بدعة ومروقا . ولهذا فقد كانت قضايا الإصلاح الديني ، واختلاف الأراء حول قضايا الإسلام شغلهم الشاغل . واهتمّ الواعون منهم بقضية إصلاح التعليم ، وتطوير الطرق التربوية . وقد أقلق هذا الفراغ في ميدان التنظيم زعماء حركة الإصلاح ، وشعروا أن أفكارهم سوف تبقى تدور في حلقة ضيقة مغلقة على نفسها إن لم يجدوا طريقة تمكنهم من تبليغها إلى فئات أوسع نطاقا من جماعات صغيرة داخل العاصمة . واستنجدوا بتقاليد الحركة الإصلاحية التونسية هذا الميدان، ميدان الصحافة، وتذكّروا دور « الرائد التونسي» بالأمس القريب ، ولكن قانون الضمان المالي الذي فرضه بول كامبون (P. Cambon) على الصحافة سنة 1884 حال دونهم ودون التفكير في إصدار صحيفة وطنية . ولما ألغى المقيم العام الثالث ماسيكو (Massicault) الضمان المالي عام1887 أسس زعماء النخبة جريدة « الحاضرة » التي سرعان ما أصبحت محور الحركة الإصلاحية ، وقامت

(14) راجع عنه : الحركة الأدبية ، ص 47–48 : أركان النهضة الأدبية، ص 34–38 ؛ الحبيب الجنحاني ، محمد باش حامبة ، تونس ، 1968 ، ص 13–14 ؛
La Revue du Maghreb, Mars- Avril 1917, p. 36; Sadok Zmerli, Les successeurs, Tunis, 1967, p. 15-29.

مقام التنظيم السياسي(15) . ونجد بين جماعتها من يمثل النخبة الزيتونية المجدّدة مثل الشيخ سالم بوحاجب، ومحمد السنوسي ، وجماعةٌ من خريجي الصادقية ومن بينهم مديرها علي بوشوشة، والبشير صفر(16) ولم تكن تمثل جريدة « الحاضرة » سوى تلك الفئة المعتدلة المجاملة للإدارة الفرنسية والمتعاونة مع كبار موظفيها(17)، ومن هنا كان ينظر إليها الوطنيون ذوو المواقف الصلبة المناهضة للسياسة الإستعمارية نظره أقل ما يقال عنها : إنها بعيدة عن العطف والإحترام ، فهي عندهم جريدة شبه رسميّة تتلقى توجيهاتها من الكاتب العام للحكومة التونسية ، ولا يجدون فيّها تعبيراً عما يخالج نفوسهم ، ولا إنعكاسا لسخطهم على سياسة نظام الحماية ، فأنشأوا سنتين بعد صدور « الحاضرة » جريدتهم الوطنية « الزهرة » سنة 1890 ، وتولى إدارتها عبد الرحمان الصنادلي وقد تخرّج على الشيخ بيرم الخامس ، في مصر ، واشتغل محررا بجريدته «الاعلام» .

وقد لمس القراء الإختلاف الكبير بين لهجة الصحيفتين ، وانتشرت « الزهرة » في صفوف الوطنيين المتحمسين ، وشحذت العزائم المتردّدة الضعيفة ، وكانت حربا مشتعلة لا تهدأ على الإدارة الإستعمارية فوجهت سهامها إلى مدير المعارف وانتقدت سياسته التعليمية الإستعمارية ،وإلى السيدشدياك (Chediak) أحد الموظفين الفرنسيين السامين بإدارة المال . وسرعان ما أصبحت

---

(15) نشير هنا إلى الظاهرة التي تعترضنا في المراحل الأولى بالخصوص من تاريخ الحركة القومية التونسية ، وهي أن الصحف الوطنية كانت تمثل محور الحركة ، وتقوم مقام الحزب ، فذلك نجده في حياة جريدة « الحاضرة » ونجده بالنسبة لجريدة « التونسي » ، لأن الحزب الذى أصبح يعرف بحزب « الشباب التونسي » لم يكن في الحقيقة سوى جماعة « التونسي » ، و« مجلة المغرب » بالنسبة للجنة « التونسية–الجزائرية » لتحرير المغرب . وهذه الظاهرة نجدها أيضا بعد الحرب العالمية الأولى نجدها في الفترة الأولى من حياة « صوت التونسي » ، وفي حياة « العمل التونسي » . راجع محمد باش حامبة ، سبق ذكره ، ص 12 . راجع عن « دور الصحافة الوطنية في تاريخ الحركة القومية التونسية » :
H. Jenhani, Die Nationalpresse Tunesiens, op. cit.

(16) راجع : الحركة الأدبية ... ، ص 49؛ حوليات الجامعة التونسية ، ع 3 ، 1966، ص 91 .

(17) يقول السيد الشاذلي خير الله (ص7) أن السيد (Regnault) الكاتب العام للحكومةالتونسية هو المؤسس لجريدة « الحاضرة » بإعتبارها جريدة شبه رسمية ، وعهد إلى تحريرها إلى جماعة من الموظفين الشبان التابعين لإدارته .

« الزهرة » لسان القوى الوطنية الثورية في صفوف مناصري حركة الإصلاح ، وقد أضجرت مضجع رجال الحماية ، وغلاة الإستعمار فعطّلوها سنة 1896 . وبذلك زادت سمعتها في أوساط الوطنيين ، وقويت شعبيتها ، وقد كشف إجراء الإدارة الفرنسية ضد « الزهرة »أمر « الحاضرة » وخنوعها أمام نظام الحماية . وبالرغم من سياسة المجاملة التي اتبعتها « الحاضرة » فقد ساهمت مساهمة فعّالة في نشر الوعي القومي ، وفي تطور حركة النهضة التونسية . هذه الحركة التي وجهت عناية خاصّة إلى الميدان التربوي والإجتماعي ، فحاولت إصلاح التعليم الزيتوني متأثرة — دون شك — بمحاولات الشيخ عبده لإصلاح تعليم الأزهر ، وأنشأت الجمعية الخلدونية لنشر العلوم العصرية ، وتعليم اللغات الحيّة ،وتمكين الزيتونيين من دراسة العلوم الحديثة ، والإتصال بالنّهضة المعاصرة . وفي هذه الخطوة وفاء لمبادىء قابادو ، وخير الدين وحلقة جديدة في سلسلة محاولات حركة الإصلاح التونسية منذ عهد المشير أحمد باي للنهوض بالتعليم وتمكين المتعلمين من دراسة العلوم العصرية .

إن نداء الصحافة الوطنية بضرورة الإصلاح ، وتأسيس الخلدونية ، وانتشار مجلة « المنار » بين عدد كبير من المثقفين التونسيين (18) أثار كل ذلك نقمة المحافظين ولا سيما بين شيوخ جامع الزيتونة ، وشعروا بخطر موجة الإصلاح الجديدة فحاولوا جمع قواهم ، والوقوف في وجه حركة الإصلاح بإسم الدفاع عن الدّين ، وكانوا يدافعون في الحقيقة عن مصالحهم ، ومراكزهم ، وإمتيازاتهم . وكانت تؤيدهم في الخفاء الإدارة الإستعمارية ، ولا سيما صحافة غلاة الإستعماريين بحجة المحافظة على التقاليد ، وعدم مسّ شؤون الدين . وهذه القوى الإستعمارية هي التي رأيناها تقاوم كل موظف فرنسي سام له أفكار تحرّرية ، محاولا تفهم أهداف الحركة الإصلاحية التونسية ، وكسب

(18) كتب رشيد رضا في مجلته « المنار » يقول : « وجاءنا من تونس أن الجزء الواحد من المنار يدار على عشرات من الناس » ، حوليات الجامعة التونسية ، ص 93 .

زعمائها ليتعاونوا مع نظام الحماية في تحقيق أهداف حركتهم ومن بين هؤلاء (Regnault) و (René Millet) . وفي خضم هذه المعركة بين المحافظين والمجدّدين برز أحد الزيتونيين الثائرين، من طلبة الشيخ سالم بوحاجب والبشير صفر ، فراسل مجلات الشرق، ثم أصدر سنة 1895 جريدة سمّاها « سبيل الرشاد » لم تعمّر طويلا فسافر إلى القاهرة ، وإلى الأستانة ، وتعرف على الشيخ عبده ، وزعماء الحركة الإصلاحية المشرقية ثم عاد إلى تونس سنة 1902 ، وأخذ يبثّ أفكارا جديدة، تعدّ تقدميّة جريئة يومئذ، وأصبح له أنصار ومؤيّدون، ونعني هنا الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وانتهزت القوى المحافظة هذه الفرصة لتلمّ شتاتها، ولتقاوم في عنف كل جديد ومجدّد، فبدأت بالشيخ الثعالبي فألبت عليه، بإسم الدين، الرأي العام الغير الواعي في تلك الايام ، واستغلت التعصب الديني فاتهمته بالإلحاد والزندقة، وحوكم الثعالبي ، فجرد من شهائده ، وسجن . وبلغت المعركة أشدّها بين الفريقين ، وكان موقف الثعالبي الجريء أول إصطدام بين النخبة الملتزمة والقوى الرجعية وهو إصطدام فضح هذه القوى ، وجعلها من ذلك التاريخ تلتجىء ، عن وعي أو عن غير وعي ، إلى إدارة الحماية طالبة مساعدتها للدفاع عن الإسلام !

وفي نفس الفترة تألبت قوى المحافظين على أحد أنصار حركة عبده والمنار في صفاقس الشيخ محمد شاكر فعزل من خطة التدريس ، وجرد من شهائده (19) . وقد ناصرت مجلة المنار قضية الشيخين ، ونشرت في هذه الفترة عدة رسائل إتصلت بها من المصلحين التونسيين . « وبلغ صدى هذه الضجة الهائلة ، من التمجيد والثناء على الشيخ عبده وأفكاره و ا ثاره البلاد المصرية ، ولمس الشيخ محمد عبده نفسه في الصحف التونسية إجماعا على تأييد دعوته وإتباع فكرته ، لم يتحقق له في الصحافة المصرية التي كان أكثرها عليه لا له ، ولا في غير الصحافة المصرية من صحف البلاد الإسلامية الأخرى ، فأيقن بأن أخصب أرض لبذور دعوته هي البلاد التونسية ، ورأى المثل العليا

(19) راجع : حوليات الجامعة التونسية ، ص 94 .

التي كان يصبو إلى تحقيقها في مصر قد تحقق شيء كثير منها بتونس ، في تأسيس الخلدونية ، وما إنبعثت منها من الأنوار » (20) .

ولم تمض إلا بضعة شهور على تلك الضجة الهائلة التي أحدثتها قضية الثعالبي ، وشاكر حتى قام الشيخ محمد عبده بزيارته الثانية إلى تونس (9 — 22 سبتمبر 1903) وقد مهّد لها بالمقال الذي أوحى به لمجلة المنار في أفريل 1903 عن سياسة فرنسا الإسلامية ، وجامل فيه سياسة الحكومة الفرنسية في بلدان المغرب العربي (21) . وجاءت هذه الزيارة في فترة حاسمة من تاريخ الحركة الإصلاحية التونسية ، حيث حمى فيها الوطيس بين المحافظين والمجدّدين (22) وبالرغم من أنّ الشيخ عبده لم يستقبل في زيارته الثانية من طرف المثقفين التونسيين إستقبالا يكتسي طابع الإجماع الذي إستقبل به في الزيارة الأولى (23) ، فقد جاءت زيارته تعزيزا لصفوف المجدّدين محققة لأهدافها . ووجد هذه المرة في منبر « الخلدونية » مجالا فسيحا لا بلاغ آرائه ، وللإتصال بأنصار دعوة التجديد . وهكذا كانت « زيارته موسم نفاق العلم والأدب ، والمباحث الإصلاحية والفكريّة » (24) .

وانتهز المحافظون زيارة الأستاذ الإمام ليوحّدوا صفوفهم ، وينظّموا حركتهم وفكّروا في إصدار مجلة يعبّرون فيها عن آرائهم ، وينشرون فيها ردودهم على مجلة المنار ، والصحف التونسية المناصرة كلها تقريبا لحركة التجديد ، ولما رفع الضمان المالي عن الصحافة نهائيا أصدروا سنة 1904 مجلة

(20) الحركة الأدبية ... ، ص 58 وما يليها .

(21) كان للصدى البعيد الذي وجدته في مصر زيارة محمد فريد رئيس الحزب الوطني المصري إلى كل من الجزائر وتونس سنة 1902 دور في تشجيع الشيخ عبده على القيام بزيارته الثانية إلى شمال إفريقيا .

(22) راجع تفاصيل الزيارة في جريدة « الحاضرة » بتاريخ 8، 15، 22، 29 سبتمبر و27 أكتوبر 1903 .

(23) راجع : J. Jomier, op. cit., p. 8.

(24) الحركة الأدبية ... ، ص 59 .

« السعادة العظمى » (25) ، وقد تولّى الإشراف عليها الشيخ محمد الخضر ابن الحسين (26) . وكان من أبرز عناصرها الشيخ محمد النجار ، أحد طلبة الشيخ سالم بوحـاجب . وقد كانت مجلـة « السعادة العظمى » معتدلـة في مواقفها ، وساهمت – رغم إتجاهها المحافظ التقليدي – في حركـة الجـدل حول قضايا الإسلام ، وبعض القضايا المتصلة بالحياة القومية .

ونريد أن نُبدي هنا الملاحظتين التاليتين :

1 – إنّ حركة الإصلاح الديني ، والمعركة بين المحافظين والمجدّدين قد جعلا القضية الأصلية في حياة البلاد : العمل السياسي تحتلّ مرتبة ثانوية . ولايختلف التطوّر في تونس آنـذاك عن أكثر البلدان الإسلامية .

ولكن هذه الظاهرة تضعف وتتغير الحالة فتصبح المسألة القومية في طليعة قضايا البلاد الهامة بعد تأسيس حركة الشباب التونسي بزعامة علي باش حامبة .

2 – إن حركة الإصلاح الديني ، وما أثير حولها من نقاش خصب لم تعالج قضايا سياسية بحتة ، ولكنها لم تهمل بعض المسائل الإجتماعية . وقد حاول بعض علماء الدين التوفيق بينها وبين الإسلام . كتب الشيخ محمد الخضر إبن الحسين سنة 1904 يقول :

إن حياة شعب من الشعوب تتطلب التضامن بين أعضائه ، وهو أساس بقائه وتقدمه بالرغم من المتشائمين والمتأخرين . وهو يقتضي أيضا أن تعمل النخبة من أجل مصلحة الجميع ، وليس من أجل مصلحتها الخاصة ، ولابد أن تتمتع كل فئة إجتماعية من الأمة بمستوى معيّن من المعيشة والثقافة . ويتخذ الفلاحة مثالا ، فيدعو إلى إستعمال الطرق العصريّة واستعمال الآلات

(25) صدر منها 21 عددا بين مارس 1904 ، وفيفري 1905 .

(26) راجع عنه : أركان النهضة... ، ص 39–43 ؛ زين العابدين السنوسي ، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ، تونس ، 1927 ، ج 2 ، ص 193–204 .

التي تنقّص من التعب ، وتزيد في الإنتاج ، ويقول : إن ذلك يتماشى مع الإسلام ، ويشير إلى أهمية الآلات الحديثة بالنسبة إلى كثير من الحرف ، ويسترسل قائلا : إن تقدم المجموعة يتطلّب مشاركة جميع أعضائها في معركة التطوّر (27) .

(27) A. Demeerseman, Soixante ans..., op. cit., p. 171

النطق بالوصلين

بقلم : محمد اليعلاوي

قد يتساءل المرء عن الحالة التي تَلتقي فيها همزتا وصل ، همزة « أل » التي للتعريف ، تتبعها مباشرة همزة وصل أخرى في صدارة الأسماء العشرة : اسم – اثنين – ابن – امرؤ الخ ... ، أو مصادر المزيدات التي تُصدَّر بهمزة الوصل كـ : « انفعال – افتعـال – افعلال – استفعال الخ ... » أينطق بهما وصليّتين ، أم ينطق بالأولى فقط وصليّة ، ويقطع الثانية ؟

وقد يجرّنا إلى هذا التساؤل ما نسمعه يوميّا من نطق بهما على الوجه الثاني ، حتّى ليظُنّ المرءُ أنّ الفطرة البشريّة هي التي تدعو إلى الفصل بين الوصلين ونطق الثاني قطعا . فنرجع إلى متون النحو فلا نجد فيها ذكرا لهذا الأمر ، وإنّما يكتفي النحاة – قدماؤهم ومحدثوهم – بضبط الأسماء التي تُبدَأ بوصل ، والأفعال ، ولام التعريف . فنلجأ إلى القرآن ، فنرى في طريقة رسمه أنّه يتبع الوجه الأوّل ، أي النطق بالوصلين بتحريك لام التعريف لالتقاء الساكنين : « ... بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ » (الحجرات 11) : فالهمزة الأولى ، همزة التعريف ، وصلت بالسين من بئس ، والثانية ، همزة اسم ، وصلت بلام التعريف التي حرّكت بالكسر لموافقة كسرة الهمزة ، أو ، وهو الأوضح ، إنّ كسرة همزة اسم انتقلت إلى الصحيح الذي سبقها ، أو ، بعبارة صوتيّة ، إنّ المقطعين الطويلين : « سَلْ » و« اسْ » ، اندمجا فصارا

مقطعين قصيراً فطويلاً = سَ + لِس ْ = سَلِس ْ . ونلتمس لهذا الوجه حجّة في كتب التجويد ، فنجدها هي الأخرى خالية من هذه المسألة .

بقي الشعر وقد يبدو لأوّل وهلة أنّ تقطيعه العروضيّ يرفع كلّ التباس ، لأنّ نسبة المقاطع الصوتيّة بين طويلة وقصيرة معيّنة معروفة في كلّ وزن ، وكذلك أصناف الجوَازَاتِ من زحاف وعلّة ، مضبوطة ، وإن كانت مسألة الضرورة الشعريّة مفسدة أحيانا للقواعد والأحكام . ولكن ، هنا أيضا ، نجد القراءتين : (وافر)

... يوسّطه المفاوز كلّ يوم طلاب الطالبينَ لا الانْتِظَارُ(1)

فهذا البيت للمتنبّي لا يستقيم وزن شطره الثاني إذا لم نحرّك لام التعريف في « الانتظار » ، فنقرأ : (طلاب الطّا) لِبِينَلَلِنْ(ـتظار) ، حتّى يبرز جزء « مفاعلَتن » محرّك اللام ، فيكون لنا في الشطر لامان متتاليتان متحرّكتان ، الأولى لام النفي المفتوحة وقد قَصُرت حركتها ، أي فقدت مدّها بسبب التقائه مع ساكن ثان ، وهو لام التعريف : لَـالْ = لَلْ . ثمّ التقت هذه اللام الساكنة مع النون الساكنة من « انتظار » ، فتعذّر سُقوطُها لأنّ سقوطها يرفع عن الاسم تعريفه ، فلذلك حرّكت بالكسر ، أي نقلت حركة همزة الافتعال إليها : لاَلْ = لَلْنْ = لَلِنْ . ونزيد تأكُّدا من هذا الوجه ، خصوصا إذا عرفنا انّ « مفاعلَتن » تنقص كمّيتها الصوتيّة بالزحاف فتصير « مفاعيلن » ، فنحاول تقطيع الشطر قياسا على « مفاعيلن » ، مع المحافظة على همزة القطع : ... لِبِينَلَلْ إنْ ... فلا نجد مفاعلين ، بل مفاعلاتن ، وهو جزء غير معروف في الوافر . فنرضى بهذا التقطيع ، ولا سيّما حين نرى أبا الفتح بن جنّي يقرّه في رواية العكبري للبيت : « قال أبو الفتح : قلت لأبي الطيّب عند قراءتي عليه : كسْر اللام من الانْتظار جيّد لسكونها وسكون النون ... فقال أبو

(1) ديوان المتنبي بشرح العكبري . ج 2 ص 111 .

الطيّب : « اجتمع ساكنان ، فحرّكت اللام بحركة ما قبلها ، وهي اللام من « لا » . فعلى تأويل الشاعر نفسه ، وهو كوفيّ المنشأ والمذهب ، ينبغي أن نقرأ : « لَلَنْتظار» بفتح اللام الثانية لا بكسرها كما هو مذهب ابن جنيّ الذي نقل إليها كسرة الهمزة الثانية ، همزة الانتظار . ولكنّهما إن اختلفا في نوع الحركة فهُما يتّفقان على التحريك ، فنقول بعد هذا المثال : إنّ الوصلتين تبقَيان وصلتين ، والفصيح أن نسقط الوصل كلّما اعترضنا في درج الكلام .

ولكنّنا نجد في أبيات أخرى ما يخالف هذا المذهب : (خفيف)

وغدا الروض ضاحكا كخرود صبّغتها بوادر الإحتشام (2)

فالشطر الثاني لا يستقيم مع وزن الخفيف إلاّ إذا قرأنا الإحتشام بقطع همزة الافتعال : بوَادِرُلْ/إحتِشَامِ . ولو قرأنا بتحريك لام التعريف كما رأينا في المثال السالف : بوَادِرُلِحتِشَامِ ، لصار الجزء الأوسط « مُتَفْعِلُ » عوضَ متَفعِلُنْ ، وهذا الزحاف لا يُرى في حشو الخفيف .

وفي هذين البيتين : (خفيف)

منع النوم عينَكَ الإدّكَارُ من حبيب شطّت به عنك دار
ولقد قلت زاجرا لفؤادي لو نهاه عن حبها الازْد جارُ ... (3)

نرى الوجهين معا . ففي الأوّل ، يُقرأ الصدر على النحو الثاني (بيت ابن هانىء) : عيَنْكَلْ/إدّكَارُ لئلاّ يصير الجزء « مُتَفْعِلُ » . أمّا عجز البيت الثاني ، فيقطّع على الطريقة الأولى (بيت المتنبّي) : عن حُبِّهَا/لزْد جَارُ ، مع المحافظة على جزء « مستفعلن » .

فما هو الموقف إذن ؟ إذا قلنا بالضرورة الشعريّة ، ففي أيّ القراءتين نعتبر الجواز ؟ أفي الأول ، فنقول انّ التحويل إلى القطع هو الجواز؟ أم في الثانية ،

(2) البيت لابن هانىء في قصيدة لم تطبع بعد (مخطوط بتونس) أنظر القصيد السادس من المجموعة التي ننشرها في هذا العدد .
(3) ديوان عمر بن أبي ربيعة طبعة عبد الحميد ص 164 .

فنجزم بأنّ إسقاط الوصلين معا هو الجواز ؟ لا سيّما وأنّا نرى مبرّرا لأحدهما في نوع المقاطع الصوتيّة التي تسبق الوصلين : فإن كان مقطعا طويلا ، كما يظهر من بيت المتنبّي ، وبيت عمر الثاني : « لا الانتظار » و« حبّها الازدجار » ، سكنت لام التعريف ثُمَّ كُسِرَتْ وسقط الوصلان حسب هذا الترتيب : لاَ + اَلْ + اِ نْ = لاَ + لْ + نْ = لَلِنْ . وإن كان مقطعا قصيرا كما ظهر فِي بيت ابن هانىء والبيت الأوّل عند عمر ، وقع الفصل بين الوصلين بجعل الثاني قطعا . ولا ندّعي أنّ هذه الملاحظة قاعدة ، فنقول ضرورة مثلا : بـالإسم — بـلْ/إسْمِ (بـ : مقطع قصير) ، و : في الاسم — في/لِسْمِ (فِي : مقطع طويل) ، فلا مبرّر لقول مثل هذا ، ما لم نستقرِ دواوين الشعر كلّها .

ولكنّنا نجد عند الحريريّ فِي درّة الغوّاص تعليقا على بيت لقيس بن الخطيم يجزم فيه بأنّ ورود القطع شذُوذٌ فيه ، وانّ الفصيح هو إسقاط الوصلين . يقول : « ومن جملة أوهامهم أنهم إذا ألحقوا لام التعريف بالأسماء التي « أوّلها ألف وصل نحو : ابن وابنة واثنين واثنتين ، سكّنوا لام التعريف « وقطعوا ألف الوصل ، احتجاجا بقول قيس بن الخطيم الأنصاري : (طويل)

إذا جاوز الإثْنَيْن سرٌّ فإنّه ببَثٍّ ، وتكثير الوشاة قمين

« والصواب في ذلك أن تسقط ألف الوصل وتكسر لام التعريف . والعلّة « فيه أنّه لمّا دخل لام التعريف على هذه الأسماء ، صارت همزة الوصل « حشوا ، والتقى في الكلمة ساكنان : لام التعريف والحرف الساكن الذي بعد « همزة الوصل ، فلهذا وجب كسر لام التعريف . فأمّا البيت المستشهد به ، « فمحمول على الضرورة الشعريّة » (4) ثمّ يعمّم الحكم إلى المصادر التي أوّلها

(4) درة الغواص في أوهام الخواص للحريري مطبعة الجوائب 1299 القسطنطينية ص 177 مسألة رقم 197 .

همزة وصل كالانتظار والادّكار والاحتشام والازدجار والاستدراك والاحمرار الخ ...

وهذا القول هو عين قول ابن جنّي ، وقول المتنبي في بيته المذكور . وفي بيت قيس بن الخطيم ، نلاحظ أيضا أنّ المقطع السابق للام التعريف قصير ، فلو كانت الكلمة « جَاوَزَا أو جَاوَزُوا ، لَتَحَرّكت اللام :

(إذا جا) وَزَا/لِثْنَيْ = مَفَاعِيلن .

والخلاصة انّ تظافر آراء ثلاثة من كبار أهل العربيّة ومفهومَ معنى الوصل من أنّه همزة لا ينطق بها في درج الكلام ، والكتابةَ القرآنيّة ، وما نسمعه من كبار المجوّدين لكتاب الله ، وأيضا بادرة تعليل الجواز التي نراها في نوع المقطع أقصير هو أم طويل ، كلّ هذا يحملنا على الأخذ بالقراءة الأولى ، أي بإسقاط همزة الوصل الأولى والثانية ، وكسر لام التعريف (لا فتحها لانّ همزة الوصل مكسورة في الأسماء) .

محمد اليعلاوي

كتاب الوافى فى نظم القوافى

لابى البقاء صالح بن شريف الرندى

(684–601 هـ)

بقلم : جعفـر ماجـد

إقترن اسم أبـي البقاء الرندي بقصيدته الشهيرة في رثاء الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

حتى صار لا يعرف إلا بها . ومن الغـريب أن هذه القصيدة التي ذاع صيتها لم تحمل الباحثين على الإهتمام بصاحبها فبقي مهملا مغمورا حتى أننا لا نكاد نعرف اسمه الصحيح ولا العصر الذي عاش فيه . ولم يكتب أحد من المعاصرين عن الرندي كتابة تستحق الذكر غير الأستاذين عبد الله عنان وعبد الله كنون ، الأول في تعليق سريع بهامش كتابه نهاية الأندلس (1) والثاني في فصل نشره بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (2) عنوانه (أبو البقاء الرندي وكتابه : الوافي في نظم القوافي) . أما عبد الله عنان فقد وجد في كلام المقري عن الرندي ما دله على اعتقاد صاحب نفح الطيب أن أبا البقاء عاش في أواخر

(1) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة 1949—ص 36—37—38—337 .

(2) المجلد السادس 1378/1958 ص 205—220 .

مملكة غرناطة أي أواخر القرن التاسع لأنه وصفه في أزهار الرياض « بخاتمة أدباء الأندلس » (1) وقال عنه في نفح الطيب معلقا على المرثية (2) : « إنتهت القصيدة الفريدة ويوجد بأيدي بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته ، ومن له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأنـدلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك في أزهار الرياض فليراجع » (3) . ويستنتج عبد الله عنان أن الرندي عاش في النصف الثاني من القرن السابع لأن المرثية ورد نصها الكامل في الذخيرة السنية (4) وهو مؤلف مجهول صاحبه كتب في عهد أبـي سعيد المريني (710—733) .

وأما عبد الله كنون فقد رد على عبد الله عنان بخصوص توهيم المقري ورأى أن صفة « خاتمة الأدباء » (5) لا تدل على أن الرندي عاش في أواخر مملكة غرناطة لأنها تطلق على المبرزين في كل عصر وأن القبلية الضيقة في كلام عبد الله عنان تقابلها بعدية واسعة في كلام المقري (وسبق وفاة أبـي البقاء

(1) أزهار الرياض في أخبار عياض . ط. القاهرة 1939 ج 1 ص 47 . قال : (ولله در الإمام العالم العلامة خاتمة أدباء الأندلس أبـي الطيب صالح بن شريف الرندي رحمه الله إذ قال يندب بلاد الأندلس ويحث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين وإنقاذ البلاد من الكافرين ولسان الحال ينشده : « لأسمعت لو ناديت حيا » .

(2) ط. بيروت . محمد محي الدين عبد الحميد ج VI ص 234 .

(3) لم يرد شيء من هذا في النسخة التي بين أيدينا إلا أن الأستاذ كنون عثر على هذه الزيادات في قطعة مخطوطة توجد بالمغرب ضمن مجموع قديم ونشرها في فصله المذكور .

(4) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . نشره محمد بن أبـي شنب . الجزائر 1920 ص 127—129 .

(5) وردت هذه العبارة في ترجمة الرندي لإبن عبد الملك المراكشي حيث يقول (وكان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره) ولاشك أن المقري نقله عنه (أنظر : الذيل والتكملة لكتابـي الموصول والصلة لإبن عبد الملك . ط. إحسان عباس بيروت — بقية السفر الرابع ص 137 .

لسقوط غرناطة فحسب ، واقع موقع تأخر سقوطها وسقوط غيرها من البلاد عن موته) .

وترجم للرندي من القدماء ابن عبد الملك المراكشي (1) ولسان الدين بن الخطيب غير أن ترجمتة في الذيل والتكملة جاءت ناقصة ولاحظ الأستاذ إحسان عباس أنها سقطت من الأصل . أما ما قاله عنه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة فقد نشره الأستاذ كنون نقلا عن مخطوطة الأسكوريال إلا أنها لم تفدنا بشيء جديد عن عصره وحياته الخاصة . وخلاصة ما انتهى إليه البحث في اسمه وكنيته وعصره ينحصر فيما يلي :

اسمه : صالح بن أبـي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبـي القاسم بن علي بن شريف الرندي ، وقد اشتهر باسم جده شريف فسمي صالح بن شريف كنيته : أبو الطيب وأبو البقاء وأبو محمد ، كناه المقري بأبـي البقاء في نفح الطيب وأبـي الطيب في أزهار الرياض ، وأبو الطيب هي التي وردت في مخطوطات كتابه الوافي . وفي الذخيرة السنية : أبو محمد .

عصره : عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

شيوخه : أما شيوخه فهم أبوه أبو الحسن وأبو الحسين الدباج وأبو الحسن ابن الفخار الشريشي وأبو الحسن بن قطرال وأبو الحسين بن زرقون وأبو القاسم بن الجد التونسي.

وقد عدت إلى المخطوطة التونسية من الإحاطة قبل إطلاعي على ترجمته التي استخرجها الأستاذ كنون من مخطوطة الأسكوريال فظفرت فيها بترجمة الرندي (2) ولما قابلت الترجمتين تبين لي أن المخطوطة التونسية قد تفردت بذكر تاريخ ولادته وتاريخ وفاته في سطر واحد جاء بين القطعة التي نقلها له

(1) الذيل والتكملة ص . بقية السفر الرابع 136–139 .
(2) المكتبة الوطنية رقم 8136 . ج III الورقة 100 .

ابن الخطيب من كتابه روضة الأنس والبيتين اللذين أوصى بأن يكتبها على قبره ، وهذا نص التاريخ :

(مولده في محرم سنة إحدى وستمائة . وفاته : توفي عام أربع وثمانين وستمائة) أما البيتان فهما :

خليلي بالود الذي بيننا اجعلا إذا مت قبري عرضة للترحم
عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة فإنّـيَ محتاج لدعوة مسلم

(طويل)

ووجدنا في كتابه – الوافي في نظم القوافي – الذي سيأتي ذكره أنه زار مراكش وحن إلى مدينته رندة فقال في ذلك قصيدة طالعها (1) :

بحياةِ ما ضَمَّتْ عُرى الأزرارِ بذمامِ ما في الحب من أسرار

(الكامل)

بقيت مشكلة أخرى في ترجمة الرندي لنا فيها رأي خاص ، وهي أن لسان الدين بن الخطيب لم يذكر فيما رواه له من شعر قصيدته النونية (لكل شيء إذا ما تم نقصان ..) وقد ذهب الأستاذ كنون إلى تفسير هذا بقوله (فإما أنه لم يقف عليها وإما أنها لم تثر انتباهه) وكلا الأمرين بعيد الإحتمال . فالقصيدة مشهورة منذ القرن السابع ، رواها صاحب الذخيرة السنية فكيف لا يقف عليها ابن الخطيب ؟ كما أنها لا يمكن ألا تثير انتباهه لأن ما رواه للرندي من الشعر لا يفوقها بأي وجه من الوجوه . إذًا ، كيف نفسر سكوته ؟ لا أظننا واجدين الجواب إلا في ما كتبه صاحب الذخيرة السنية عن ظروف نظم القصيدة حيث قال :

« وفيها (أي سنة 665هـ) . صالح ابنُ الأحمر الفنش على أن أعطاه إبن الأحمر نحو أربعين مسوَّرًا من بلاد المسلمين من جملتهم شريش والمدينة

(1) باب : الوصف . قال : ومما يتعلق بذلك قولي وأنا بمراكش .

والقلعة وقيل إن جملة ما أعطى آبن الأحمر للألفنش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسوَّرة مائة مسوّر وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس ... ولما أعطى آبن الأحمر البلاد المذكورة للألفنش قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرندي يرثي بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة ... » (1) .

إذاً لقد قال الرندي مرثيته لما تنازل آبن الأحمر – وكان في ذلك الوقت أمل الأندلسيين – عن عدد من الحصون للنصارى سنة 665هـ . وذكرى هذا التنازل ليس من شأنها أن تدخل المسرة على قلوب أمراء غرناطة ، فلا شك أن آبن الخطيب تجنب ذكر القصيدة خوفا من إثارة بني الأحمر وهم أولياء نعمته .

ولم أجد ما يثبت أن الرندي كان قاضيا كما ورد ذلك في كلتا المخطوطتين المغربيتين إلا أن آبن عبد الملك يصفه بأن « كان فقيها حافظا فرضيا متفننا في معارف جليلة نبيل المنازع متواضعا مقتصدا في أحواله » .

ا ثاره : جاء في أخبار الرندي أن له مشاركة في الحساب والفرائض وله نظم في ذلك وله تأليف في العروض وآخر في صنعة الشعر سماه الوافي في نظم القوافي .

وله كتاب كبير سماه روضة الأنس ونزهة النفس وقد ذكر لسان الدين آبن الخطيب قطعة منه .

وله مقامات في أغراض شتى وقصائد زهدية .

وشعره « كثير سهل المأخذ عذب اللفظ رائق المعنى غير مؤثر للجزالة » .

الوافي في نظم القوافي : ورد ذكر هذا الكتاب في الذيل والتكملة وفي الإحاطة وآسمه فيهما (الكافي في علم القوافي) وقد نشر الأستاذ كنون فقرات

(1) الذخيرة السنية ص 127–129 .

متفرقة منه مع ترجمة الرندي في الإحاطة والزيادات على المرثية النونية . وعثرنا على نسخة منه في مكتبة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب وهي التي اعتمدناها في تحقيقنا .

رقمها : 18077 مقاسها : 16 ، 4 11 صنتم الورقات : 114 الخط : مغربي

سقطت منها ورقتان في الباب الأول (الرابعة والخامسة) حسب ما جاء في تعليق باللغة الفرنسية .

ويشير بروكلمان إلى وجود نسختين ، الأولى بلايدن (رقم 288) والثانية بالرباط (رقم 290) .

وتبين أن بالرباط نسختين إثنتين أمكننا الحصول على ميكرو فلم منهما بواسطة الأديب الصديق الأستاذ عبد الكريم غلاب :

1) تحت رقم 19 وبها 84 ورقة وهي التي اعتمدها الأستاذ كنون في ما يظهر – واضحة جميلة الخط – .

2) تحت رقم 1013 وبها 72 ورقة – رديئة الخط كثيرة الأخطاء – .

وكل من النسخة التونسية والنسختين المغربيتين تسمى (الوافي في نظم القوافي) .

أقسام الكتاب : فيه أربعة أجزاء :

1) الجزء الأول وفيه أربعة أبواب :

– الباب الأول في فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه .

– الباب الثاني في الشعراء وطبقاتهم .

– الباب الثالث في محمل الشعر وآدابه .

– الباب الرابع في أغراض الشعر وآدابه .

2) الجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه : وفيه أربعون بابا .

3) في عيوب الشعر .

4) في حد الشعر وذكر العروض والقافية .

وهكذا نرى أن الكتاب ليس في علم العروض والقوافي كما قد يتسابق إلى الذهن من العنوان بل هو في تاريخ الأدب وفي النقد وفنون الشعر وهو من هذه الناحية قريب الشبه بكتاب العمدة لإبن رشيق القيرواني . وما زلنا مشتغلين بتحقيقه آملين أن نوفق إلى نشره قريبا إلا أننا وقفنا على جملة من فوائده صرفت عنايتنا إليه ومن أهم هذه الفوائد أن كتاب الوافي يضم أكبر مجموعة شعرية لأبي البقاء الرندي جاءت مبثوثة في كل الأبواب ، وكذلك أشعار عدد من معاصريه .

وتاريخ تأليف الكتاب غير معروف ولم يتعرض له الأستاذ كنون ولا أحد من المتقدمين إلا أن لدينا بعض المعطيات تعيننا على تحديد الفترة الزمنية التي كتب فيها .

فقد ثبت لدينا أن « أمير المسلمين » الذي رثاه الرندي هو الغالب أبو عبد الله محمد بن الأحمر (629—671) مؤسس الدولة النصرية بغرناطة ، وذلك كما يلي:

أبو عبد الله : جاء في باب الرثاء أن الرندي وجه رسالة يعزي فيها الأمير ولي العهد في أبيه « الملك الهمام الأوحد الأرفع الأمجد المجاهد الأرضى الأسعد المقدس المرحوم أبـي عبد الله أمير المسلمين » .

2) محمد الغالب : ووردت في باب الوصف قطعة من قصيدة ميمية في مدح « أمير المسلمين أيده الله » إلا أننا نجد في الإحاطة بقية هذه القصيدة وهي تشتمل على تورية فيها إشارة إلى الأمير الممدوح :

بشعرك يا (محمد) عزديـن ... له بعد الإلاه بك اعتصامُ
و(باسمك) تم للإسلام سلم ... و«غلب» السلم « نصر » مستدام (1)

(الوافر)

(1) هذه العلامات غير موجودة في الأصل وقصدنا بها الإشارة إلى أن اسم الأمير هو محمد الغالب النصري .

وهكذا يكون الكتاب قد ألف في السنة التي مات فيها الغالب أبو عبد الله محمد أو شرع في تأليفه على الأقل . ولنا أدلة أخرى على أن الرندي كان يمدح أمراء غرناطة . فقد ضمت رندة في عهد أبـي البقاء إلى مملكة بني الأحمر وقال لسان الدين بن الخطيب أن شاعرنا أقام بما لقة أشهرا « وكان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها وينشد أمراءها » بل إنه كان مقربا إلى السلطان حتى أن قصيدته التي أولها : أواصلتي يوما وهاجرتي ألفا ... نظمها باقتراح منه وقد أوعز إليه أنه لا يخرج عن بعض بساتين الملك حتى يكملها . ومما يدل على أنه كان يمدح بني نصر قوله في قصيدة هنأ بها أمير المسلمين لما بويع بولاية العهد (الفقيه أبو عبد الله محمد (701—671)) :

أهلا بذا الملك (النصري) محتـده والفارس البطل ابن الفارس البطل

(البسيط)

وفي الكتاب إشارة إلى أن الرندي أدرك عهد الشيخوخة فأخذ يتحسر على أيام الصبا ويذكر شيبه ، إذ أنه يكون سنة 671 قد بلغ السبعين من عمره :

واحسرتا من ذكر أيـام الصبا ها قد بدا شيبـي فأين وقاري

(الكامل)

وإنه من حق هذا الشاعر الذي تغنينـا بمرثيته أطفالا وما زلنـا نرى فيها أنموذجا رائعا للبكاء على الفردوس المفقود أن نجمع له أشعاره ونضمها إلى ما جاء منها في كتاب الوافي ، وهو ما ننوي القيام به عند نشر الكتاب.

جعفر ماجد

القول على الوصف (1)

الوصف ذكر الشيء بما يصوّره في النفس . كهيئته في الحسن ويمثّله للخيال بما له من الهيئات والأشكال ، و هو باب جليل وعليه مدار الشعر إلاّ القليل وأنا أورد في هذا الباب ما استجدته من بدائع الصّفات وروائع التشبيهات في أنواع الموصوفات فمن أحسن ما قيل في وصف الليل وابتدائه وانتهائه وما يتعلق بذلك للخفاجي :

وليل كما مدّ الغراب جناحه — وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البـرق والجوّ فحمـة — شرار ترامى والغمام زنـاد
سريت به أحييه لاَ ميت السّرى — تَموت ولا ميت الصباح يعـاد
وفي مصطلى الافاق جمر كواكب — عليها من الفجر المطلّ رماد

(الطويل)

أخذ أوله من قول البحتري :

ولقد سريت مع الكواكـب راكبا — اعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنـه — هو في حُلوكته وإن لم ينعب
حتى تبدّى الفجر من جنبَاته — كالماء يلمع من خلال الطحلب

(الكامل)

الدّاني :

ولربّ ربّة حاجـة نبّهتهـا — والفجر لؤلؤ طَلّه قـد رضرضا
وقد انطفت نـار القرى وبقـى على — مسك الدّجـى مذرور كافور الفضا
والليل قد سوّى وألحَـمَ ثوبَـه — والفجر يرسل فيـه خيطـا أبيضا

(الكامل)

---

(1) قطعة من كتاب الوافي في نظم القوافي (المخطوط) ننشرها لأول مرة .

وفي طوله لسعيد بن حميد الكاتب :

يا ليل بـل يا أبدُ   أنائم عنك غـدُ
يا ليل لو تلقى الذى   ألقى به أو أجد
قصّر من طولك أو   أضعف منك الجلد
أشكو إلى ظالمـة   تشكو الذي لا تجد
وقف عليها ناظري   وقف عليها الشهد

(مخزوء الرجز)

ولي في مَنْزَعِهِ :

أطال ليلى الكمــدُ   فالدّهْرُ ليل سرمد
وما أظنّ أنّــه   لليلة الهجر غد
يا نائما عن لوعـتي   عُوفِيتَ مما أجد
أرقدْ هنيئا إنّني   لا أستطيع أرقد
جوانح لا تنطفي   وأدْمُعُ تطّرد
وكبد في كبـد   لهفى وأين الكبد
ولا تسل عن جلدي   والله ما لي جلد

(مجزوء الرجز)

وفي قصره لإبراهيم بن العبّاس :

وليلة من الليالي الغـرّ   قابلت فيها بدرهــا بِبَدْرِ
لم تـك غير شفق وفجـر   حتّى تقضّت وهي بكر الدهر

(رجز)

وللحاتمـي :

يا ربّ ليل سرور خلتـه قصرا   كعارض البرق في جنح الدجا برقا
قد كاد يعثـر أولاه باخره   وكاد يسبق فيه فجره الشفقا
كأنّما طرفاه طرف اتفق الـ   ـجفنان منه على الأطراف وافترقا

(البسيط)

ولي :

وليل وصل عَنَّ من هاجر اقصر من تلفّت الناظر
إستدبر الدهر بـه غلطـا فأدغم الأوّل في الاخر

(السريع)

ومن أحسن ما قيل في وصف البدر والهلال والنجوم وما يتعلق بذلك لأبـي القاسم ابن هانىء الأندلسي من قصيدة اخترت منها هذه الأبيات :

أليلتنا إذ أرسلتْ واردا وحفَا وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا
وبات لناساق يصول (1) على الدجى بشمعة صبح (2) لا تقطّ ولا تُـطْفا
أغَنّ غضيض الطرف (3) واللين قده وثقّلت الصّهباء أجفانه الوُطْفا
بعيشك نبِّهْ كأسه وجفونه فقد نُبِّه الإبريق من بعد ما أغفى
وولت نجوم للثريـا كأنّهـا خواتم تبدو في بنان يد تخفـى
ومرّ على اثارها دَبَرَانُهَـا كصاحب رِدْء كُمِّنت خيله خلَفا
وأقبلت الشعرى العبورُ مُكبِّةً بمِرْزَمِهَا اليعبوب تَجنُبُهُ طرفا
كأنّ بني نعش ونعشا مطَافلٌ بوجرةَ قد أضللن في مهمهٍ خشفا
كأنّ سهاها عاشق بين عُوّد فاونة يبدو واونة يخفى

(الطويل)

ولى من قصيدة في مدح أمير المسلمين أيّده الله :

سرَى والحبّ أمـر لا يرام وقد أغرى به الشّوقَ الغرامُ
وأغْفى أهلهـا إلا وشاة إذا نام العواذل لا تنام
وما أخفـاه بيـن القوم إلاّ ضناه وربّما نفـع السّقام
فنال بها على قدر مناه وبين القبض والبسط القـوام

---

(1) في الديوان يقوم . دار صادر 1964 .
(2) في الديوان : نجم .
(3) في الديوان : أغن غضيض خفف اللين قده .

واشهى الوصل ما كان اختلاسا وخير الحبّ ما فيه احتشام
وما أحلى الوصال لو انّ شيئا من الدنيا للذّته دوام
بكيت من الفراق بغير أرضي وقد يبكي الغريب المستهام
ألا ثِمي وقد فارقتُ إلْفِي أمثلي في صبابته يُلام
أأفقده فلا أبكي عليه يكون أرق من قلبي الحَمام
أأنساه فأحسبه كصبري وهل ينسى لمحبوب ذمام
رويدا إنّ بعض اللّوم لؤم ومثلي لا ينهنهه الملام
ويوم نوى وضعت الكفّ فيه على قلب يطير به الهيام
ولو لا أن مسحت به جفونا تفيض دما لأحرقها الغرام
وليل بتّه كالدّهر طولا تنكّر لي وعرّفه التمام
كأنّ سماءه روض تجلّى بزهر الزهر والشوْق الكمام
كأن البدر تحت الغيم وَجْهٌ عليه من ملاحته لثام
كأنّ الكوكب الدرّي كأس وقد رق الزجاجة والمدام
كأنّ سطور أفلاك الدّراري قسيٌّ والرّجوم لها سهام
كأنّ مَدَارَ قطبْ بناتِ نعش نَدِيّ والنجوم به ندام
كأنّ بناته الكُبرى جَوَارٍ جوارٍ والسُّهى فيها غلام
كأن بناته الصغرى جمان على لباتها منه نظام
كواكبُ بتّ أرعاهنّ حتى كأني عاشق وهي الذّمام
إلى أن مزّقت كف الثريا جيوب الأفق وانجاب الظلامُ
فما خلت انصداع الفجر إلا قرابا يُنتضى منها حسام
وما شبّهتُ وجه الشمس إلا بوجهك أيها الملك الهمام
وإن شبّهته بالبدر يوما فللبدر الملاحة والتمام

(الوافر)

ولي في الهلال :

أما ترى حسن هلال الأفُقِ كالتاج أو كالقوس أو كالزورقِ
أو خط نون بمداد ذهب مترجم على زجاج أزرقِ

(الرجز)

ولآخر :

قد تغنى يشدو فشاق حمامَـهْ وتهادى يمشي فراق غمامَهْ
قام يسقي من لحظـه ويديـه ولَمَاهُ ووجنتيـه مدامه
كتب الصّحْوُ قَدَّه ألفـاً (م) ثمّ انثَنى يُعَرّق لاَمـه
فاكتسى الأفقُ منه وهو غراب طوْقَ نور فَعِيب طوق الحمامه

(الخفيف)

آخر :

أهْلاً به من هلال سعْدِ كـأنـه منجـزٌ لوعْدِ
أو زورق صيـغ من لجيـن يعـوم في بحـرِ لازوردْ

(مخلع البسيط)

وفي انطباع صورة الهلال في الماء :

وهلال صور الحسن بِهِ في شبيهين سواراً من ذهبْ
فَبِصَفْح الماء نصفٌ قـدْ طفا وبصفح الماء نصف قد رسبْ

(الرمل)

ولي :

وجدول كلما مرّ النسيم به كساه درعا لها حبابه حلق (كذا)
حتى إذاً انطبعت ليلا به شهب لم تمتر العين فيه أنه الأفق

(البسيط)

وللحاتمي :

وليل أقمنا فيه نُعمل أكؤسا إلى أن بدا للصبح في الليل عسكرُ
ونجم الثريا في السماء كأنه على حلة زرقا جبينٌ مدنَّر

(الطويل)

وللصنوبري :

قم فاسقنا والظلام منهزم والنجم بادٍ كأنه علم
في الشرق كأس وفي مغاربه قرط وفي أوساط السما قدم

(المنسرح)

النّاشي :

خليليّ هل للمزن مقلةُ عاشقٍ أم النار في أحشائها وهي لا تدري
أشارت إلى أرض العراق فأصبحت كما اللؤلؤ المنثور أدمعها تجري
سحاب حكى الثكلى أصيبت بواحد فعاجتْ له نحو الرياض على قبر
تسر بل وشيا من خروز تطرزت مطارفها طرزاً من البرق كالتبر
فوشي بلا رقم ورقم بلا يد ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

(الطويل)

إبن حمديس :

وطائر بالجوّ في لحظة يطير من غرب إلى مشرق
لو كان يبقى في الدجى نوره أتى كحكّ التبر في الميلق

(السريع)

ومن أحسن ما قيل في وصف الرياض والأزهار والمياه والأنهار الخفاجى :

لله يوم ضمّنا في روضة ريا يلاعبها النسيم فتطرب (1)
سكرى يغنّيها الحمام فتنثني طربا ويسقيها الغمام فتشرب
ما زال ينعطف الخليج مجرّة فيها ويطلع للمدامة كوكب

(1) هذا البيت سقط من ديوان إبن خفاجة ص 289 ط. الإسكندرية 1960 .

والرّوض وجه أزهرٌ والظل فر ع أسودٌ والماء ثغر أشنب
حيث التقى نفَس الخزامى والصبا وغنا الغواني والحمام المطرب
ثم انقضى من يوم أنس وانطوى فعلى معاهده السلام الأطيب
(الكامل)

آخر :

وحديقة ريّا النبات أنيقة تَنْدى إذا نفح الهجير ظلالا
ما إن تجلى الماء عنها صفحة إلاّ أطلّ الظلّ فيها خالا
يتطلع النوار بيض كواكب فيها وينعطف الخليج هلالا
فكأن في جيد القضيب قلادة وبساق منعرج اللّوى خلخالا
عاطيتُ فيها الكاس غصن نضارة قد ماد في زهر البرود ومالا
ريان أشْرَبَتِ الشبيبةُ عطفَه ماء النّسيم فلو تصوب سالا
يسقيكها من كفّه ذهبيّة ويُديرُها من خدّه جريالا
(الكامل)

الرصافي :

ومهدّل الشّطيْن تحسب أنّه متسيّل من درّه لصفائه
فاءت عليه مع العشيّة سرحة صدئت لفيئتها صفيحة مائه
فتراه أزرق في غلالة سمرة كالدّارع استلقى لظلّ لوائه
(الكامل)

ومما قلته في الورد :

الورد سلطان كل زهر لو أنّه دائم الورود
بعد خدود الملاح شيء ما أشبهَ الورد بالخدود
(مخلع البسيط)

ولابن طاهر :

أما ترى شجرات الورد مظهرة لنا عجائب قد رُكّبن في قُضُبِ
كأنّهن يواقيت يطيف بها زبرجد وسطه شذرٌ من الذهبَ

(البسيط)

وفي الترنجان :

وأخْضَرَ فستقي اللّون فضّ يروق بحسن منظرهِ العيونا
أغار على الترنج وقد حكاه فزاد على اسمه ألِفا ونونا

(الوافر)

ولي في الحبق القرنفلي :

وذي ظمإ لو كان يسقي لذمّة لسقيته رِعْيًا ولكن بسلسل
إذا هب رياه وجدت حقيقة نسيم الصّبا جاءت بريّا القرنفل

(الطويل)

وفي الخيري :

وأزرق اللون كلون السما فيه لمن ينظر سرّ عجيبْ
شع مع الصبح بأنفاسه كأنما الصبح عليه رقيب
وباح في الليل بأسراره لما رأى الليل نهار الأريب

(السريع)

وفي الاقحوان :

إذا أردت لوصف الاقحوان فقل كأنما هو ثغر فيه دينارُ
أو مقلة من فتيت التبر محكمة لها من الفضّة البيضاء أشفارُ

(البسيط)

وفي البهار :

وبهـار حكى كـؤوس لجيـن حَـمَلَـتْهـَا أنامـلٌ من زبرجـدْ
سامرتْها الكواكب الزهز حتّى سمرت وسطها كواكب عسجد

(الخفيف)

ولي في قضيب نرجس تفرعت فيه ستّ نوارات :

وباهر التصنيف مستغـرب يعجب من غريب تصنيفه
تفرعت عـن أصله ستّة كأنها أحْرُفُ تصحيحه

(السريع)

وذلك أن تصحيفه عندهم بِر حَبِيب . ولى في حبّ الملوك :

فتَح الحبّ نَوْره فحسبْنَا أن في الروض قبة من شقيقِ
ثم أجـرى نواره عن سلوك من حرير فيها فصوص عقيق

(الخفيف)

وفي العنب :

وعنب لفضّـة يعصر منها ذهب
كأنمـا حبوبـه لآلئ أو حبب
السمر منهـا لُعَّس والبيضُ منها شنب

(مجزوء الرجز)

وفي التين الشعري :

أهلا بتيـن حسن المنظـر صوّر من مسك ومن عنبر
مطرز البـرد إذا ذقته ألْهَى عن المنظر بالمخبـر
كأنما البـاري سبحانـه حشاه بالسمسـم والسكـر

(السريع)

وللخفاجي :

وسود الجلود كلون الصدود تبسمن تحت عبوس الغبش (1)
إذا ما تأملتها خلتها تربّى صغار بنات الحبش

(المتقارب)

وفي الرمّان :

لله رمانة قد راق منظرها فمثلها ببديع الحسن منعوتُ
القشر حق لما قد ضم داخله والشحم قطن له والحبّ ياقوت

(البسيط)

ولي في التفّاح :

تفاحة كالمسك نَفاحة يصبو لها الناظر والناشقُ
جرَتْ بها الحمْرَةُ في صُفرة كما التقى المعشوق والعاشق

(السريع)

ولي :

وبنت أيك غذاها الحسن فاختلست لينا من الماء أو لونا من اللّهب
كأنّها كرة من فضّة غمست من الملاحة في ماء من الذهب

(البسيط)

آخر :

تفاحة جمعت لونين خلتهما خدّي محبّ ومحبوب قد اعتنقا
تلازما فَبدا واشٍ فراعَهُمَا فاحمرّ ذا خجلاً واصفر ذا فرّقا

---

(1) في الديوان :

وسود الوجوه كلون الصدود تبسمن تحت عبوس الغبش
إذا ما تجلى بياض الضحى تطلعن في وجهه كالنمش
كأني أقطف منها ضحى ثدي صغار بنات الحبش

ص 374

وفي البصل :

ونواهد أكثرن لبْسَ غلائل كي لا يلامسهن يوما لامسُ
فإذا كشفت عن الثياب وجدتها أثواب زور ليس فيها لابس

(الكامل)

وفي الاترنج :

جسم لجين قميصه ذهب مركب في بديع تركيب
فيه لمن شمّه وأبصره لون محبّ وريح محبوب

(المنسرح)

وفي الجلم :

ومعتنقين مَا اتهِمَا بِعِشقٍ وإنْ وُصِفا بضمّ واعتْناقِ
لعمر أبيك ما اجتَمعا لمَعْنىً سوى معنى القطيعة والفراق

(الوافر)

آخر :

نحن خليلان ما دعانا للوصل ودّ ولا اختيار
نفْصل ما كان ذا اتّصال كأننا الليل والنهار

(مخلع البسيط)

ولي في مسطرة :

وهاديَة بِلَيْل في نهار تلوح وقد توارت بالحجاب
ترى الأقلام تخطي في خطاها فتحملها على طرق الصّواب

(الوافر)

ولآخر :

أنا للكاتب اللبّيب إمام ولما تبتغي يداه قوام
فإذا ما حَدّدت للكتب حدا وقَفَتْ عند حَدّيَ الأقلام

(الخفيف)

وفي المحمل للسهيلي :

حامل للعلوم غير فقيه ليس يرجو أمراً ولا يتقيه
يحمل العلم فاتحا قدميه فإذا انضمتا فلا علمَ فيه

(الخفيف)

ومن أحسن ما قيل في وصف الجيش والخيل والسلاح قولي :

وكتيبة بالدّارعين كثيفة جرّتْ ذيول الجحفل الجرّار
روض المنايا قضبها السمر التي من فوقها الرايات كالأزهار
فيها الكماة بنو الكماة كأنّهم أسْد الشرى بين القنا الخطّار
متهللين لدى الهياج كأنما خلقتْ وجوههم من الأقمار
من كل ليث فوق برق خاطف بيمينه قدَرٌ من الأقدار
من كل ماض ينتضيه مثله فيصيب آجالا على أعمار
لبسوا القلوب على الدروع وأشرعوا بأكفهم نارا لأهل النار
وتقدّموا ولهم على أعدائهم حنق العدا وحميّة الأنصار
فارتاع ناقوس لخلع لسانه وبكى الصّليب لذلّة الكفار
ثم انثنوا عنه وعن عبّاده وقد اصبحوا خبراً من الأخبار

(الكامل)

وفي الخيل للمتنبّي :

وَيوم كليل العاشقين كَمَنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذني أغرّ كأنّهُ من الليل باق بين عينيه كوكبُ
له فضلة عن جسمه في إهابه تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء أدني عنانه فيطغى وأرخيه مرارا فيلعب
وأصرعُ أيَّ الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

وما الخيل إلاّ كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرّب
إذا لم تشاهد غير حسنِ شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

(الطويل)

الخفاجي :

ومُغَارٍ ركبتُ دهماءَ مِعْطَا لاً إليه وظَهْرَ أشهب حَالِ
جال في أنجم من الحَلْي بيض وقميص من الصباح مُذال
فبدا الصبح مُلْحَمًا بالثريّا وجرى البرق مسرجا بالهلال

(الخفيف)

وفي السيف والرمح للمعرّى :

سليل النار دقّ ورق حتـى كأنّ أبـاه أورثه السّلالا
مُحلى البـرد تحسبه تردّى نجوم الأفق وانتعـل الهلالا
غرَارَاه لسانـا مشرفـيّ يقول غرائب الموت ارتجالا
ودبت فوقـه حمـر المنايا ولكن بعدما مسخـت نمـالا
وذي ظمإ وليـس بـه حياة تحقق طول حامله فطـالا
توهّم كلّ سابغة غديـرا فرنّق يشـرب الحلـق الدُّخالا

(الوافر)

وللأيكي :

رأيت حساما فشبّهتـه غديرا من الماء لكن جَمَدْ
وسال فرنـد لـه خلتـه لهيبـا من النّار لكن خمد
فلولا الجمـود ولولا الخمود لسال لدى الهزّ أو لآتقـد

(المتقارب)

آخر :

ومن عجب أنّ السيوف لديهم تحيض دماء والسيوف ذكورُ
وأعجب منه أنها في أكفّهم تأجّجُ نارا والأكف بحور

(الطويل)

وقد تقدّم لنا في القصيدة اللاميّة التي في باب المدح من وصف السّيف والرمح والقلم كلّ حسن ومما يتعلّق به وصف الدرع للخفاجي :

وأغرَّ يُسْفِر للعوالي والعُلى عن حُرّ وَجْه بالحياء ملثّمِ
جذلان تحسب وجهه متهلّلا في هبوة الهيجاء غرّةَ أدهم
يسري فيسفر للدجى عن صفحة فرّاء تصدع كلّ ليل مظلم
زَرَّ الحديدُ عليه جيَبْبَ غمامةٍ زرقاء في غبش العجاج الأقتم
فكأنّ جلدة حيّة خلعت به يوم الكريهة فوق عطفي ضيغم

(الكامل)

وللمعتمد بن عبّاد :

ولمّا اقتحمت الوغى دارعًا وقنّعت وجهك بالمغفر
حسبنا محياك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر

(المتقارب)

ابن عمّار :

واحوى من ظباء الروم عاط بسالفتيه من دمع فريد
قسا قلبا وسنّ عليه درعا فباطنه وظاهره جديد
بكيت وقد دنا ونأى رضاه وقد يبكي من الطرب الجليد

(الوافر)

ومن أوصاف الجواري للمتنبّـي :

حسان التثنى ينقش الوشيُ مثلهُ إذا مسن في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن درّ تقلدن شبهـه كأن التراقي وشّحتْ بالمباسِمِ

(الطويل)

ابن مجبر :

وزائرة والليل ملـق رواقـه ومن أين للظلماء أن تكتم القمر
حذرت نقاب الصون عن حر وجهها فياحسن ما انشق الكمام عن الزهر
وراودتها عن لثمهـا فتمنّعت وما عادة الأغصان أن تمنع الثمر
رشا كلّما أدمتْ لحاظيَ خدّه أشار إلى قلبـي بعينيه فانتصر
وطالبني شوقي بتقبيـل ثغـره لقد غاص في بحر الجمال على الدرر

(الطويل)

وفي الشعر :

بيضاء تحسب من قتام شعرها وتغيب فيه وهـو وجه أسحـم
فكأنهــا فيه نهـار مشرق وكأنه ليل عليهـا مظلم

(الكامل)

آخر :

ظباء أعارتها القطا حسن مشيها كما قد أعارتها العيون الجا ذر
فمن حسن ذاك المشي جاءت فقبلت مواطيء من أقدامهن الضفائـر

(الطويل)

المتنبّـي :

سدلت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرَتْ ليالي أرْبعـا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتناَ القمرين في وقت معـا

(الكامل)

وفي النّهود :

حقاق من العاج قد ركبت على صحن صدر من المرمرِ
خشينَ الوقوع فسمّرنها بشبه مسامر من عنبر

وللملك الصالح :

ولما غدت كالعاج زيّن قرطها بحقّين منه قد أجادهما الخرط

(الطويل)

وللمرج :

ونهود غيد كالأسنة أشرعَتْ ما أشرعتْ إلاّ لحمي قطافِها
إن تُنكِرا قَتْلي بِها فتأمـلا تجدا دمي قد جف في أطرافها

(الكامل)

ومن أوصاف الغلمان لإبن المعتز :

قـد صاد قلبـي قمـر يسحر منـه النظـر
بوجنـة كأنّمـا يقدح منهـا الشـرر
وشارب قـد همّ أو نمّ عليـه الشعـر
ضعيفـة أجفانـه والقلب منـه حجر
كأنما مقلتـه من فعلـه تعتـذر
والحسـن فيـه كامل وفي الورى مختصر

(مجزوء الرجز)

أبو نواس :

كأنّ ثيابه أطلعـن من أزراره قمرا
يزيدك وجهه حسنـا إذا ما زدته نظرا

بعين خالط التفتير من أجفانه الحورا
ووجه سامري لو تصوب ماؤه قطرا

(مجزوء الوافـر)

آخر :

يقظـة أجفانـه نعـاس وخدّه وردة واس
في فيه من ثغره حباب لخمرة الريق وهو كاس
ياحسنـا فعلـه قبيـح خالفت ما يوجب القياس

(مخلع البسيط)

أبو محمد عبد الوهاب :

انبت وردا ناضرا ناظري في وجنة كالقمر الزاهر
فلم منعتم شفتي قطفهـا والحكم أن الزرع للباذر

(السريع)

آخر :

زائركم كـان لا يرامُ لله ما تصنع المـدام
الم ّ بـي والظلام داج فانجاب من وجهه الظلام
وعلني من لماه خمـرا ما فض ّ عن مثلها ختـام
ثم ثنى للـوداع جيـدا عليه من أدمعي نظـام
فقلت والقلـب في يديـه عليك يا قلبـي السـلام

(مخلع البسيط)

وفي الخال لي :

وناضر الخـد ّ في ألحـاظه حورَ تكاد تجرحه الألحاظ بالنظر
كأن خيلانـَه في حسن صفحته كواكب كسفت في دارة القمر

(البسيط)

آخر :

تتنفس الصّهباء في لهواته   كتنفس الريحان في الاصال
وكأنما الخيلان في وجناته   ساعات هجر في زمان وصال

(الكامل)

آخر :

وصف الخال أناس   أخرجوه فوق حدّه
إنّما خال حبيبي   لمن الشيء وضدّه
قطرة من ماء عيني   قُطّرت في جمر خدّه

(مجزوء الرمل)

ولي في العذار :

أطلّ في وجهه العذارُ   وفيه للعاشق اعتذار
وابيضّ وجه واحمرّ خدّ   واخضرما بينها العذار (كذا)
فمن رآه رأى رياضا   الاس والورد والبهار

(مخلع البسيط)

الخفاجي :

أطلّ في وجهه العذار   فافتضح الاس والبهار (1)
واسودّ هذا وابيضّ هذا   فاجتمع الليل والنهار (كذا)

إبن المعتز :

همت عذاراه بتقبيله   فجرّدت عيناه سيفين
وقامت الحرب على ساقها   بين أميرين قتولين
فذلك المحمرّ من خدّه   دماء ما بين الفريقين

(السريع)

(1) لم يردا في الديوان .

آخر :

دعوت بالشعر على خـدّه لما ازدهى بالتّيه والعجب
فأنبت الله لـه عـارضا زدت به كربا على كرْب
بشعرة تنبت في خـدّه وشوكة تغرز في قلبي

(السريع)

وفي ذَمِّه :

مـا فعل الله باليهـودِ ولا بعاد ولا ثمـود
ولا بفرعون إذ عصاه ما فعـل الشعـر بالخدود

(مخلع البسيط)

آخر :

يا أيها الصبّ المعنّى بـه ها هو لا خـلّ ولا خمر
سوّد ما حمّـر من وجهـه وعاد فحماً ذلك الجمـر

(السريع)

آخر :

عذيريَ من وجه خـَبا جلّ ناره وجفّ الأنيق الغَضّ من جلّناره
فلا عجب أنيّ سلـوت وقد علا على نار خـَدّيه دخان عذاره

(الطويل)

آخر :

الان حين بدا في وجهك الشعـرُ رأيت فيه الذي قد كنت أنتظر
كأن وجهك إذ لاح العذار به برج تلاقى به التنين والقمـر

(البسيط)

وفي صبي سندي :

ومنوع الحركات يلعب بالنّهى لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوّد كالغصن فوق كثيبة متلاعب كالظبي عند كناسه
بالعقل يلعب مقبلا أو مدبرا كالدّهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضمّ ذبابه لرياسه

(الكامل)

آخر :

إلى كم تنام عن السّاهر وتبخل بالوصل يا هاجري
عدلتَ بوصلك لي أوّلاً فما لك قد جرت في الاخر
الا بأبي أنت من وارد كريم عليَّ ومن صادر
له نعمة الغصن مهما انثنى ومهما شدا نغمة الطائر
فتلهَج ألحانِه مسمعي وتبهج أزهاره ناظري
إذا دارَ ثمّ هوى فجأة إلى الأرض كالكوكب الغائر
أمُدُّ أغالطه رَاحتِي عساه يَمُدّ يَدَ العاثر

(المتقارب)

آخر :

بدر بدا يشرب شمسا بدت وَحدُّها في النور من حده
تغرب في فيه ولكنها من بعد ذا تطلع في خده

(السريع)

ومن المختار في الباب : إبن حمديس :

قضت في الصّبا النفس أوطارها فأبلغها الشّيبُ إنْذارَهَا
نعم وأجيلَتْ قداح المنى عليها فقسّمن أعشارها
كميتا لها مرَحٌ بالفتى إذا حث باللّهو أدوارها

وساقية زَرَّرت كفُّها | على عنق الظبي أوزارها
تدير بياقوتَةٍ دُرَّةً | فتغمس في مائها نارها
وراهبة غلّقت ديرها | فكنّا مع الليل زوّارها
هدانا إليها شذا قهوة | تذيع لأنفك أسرارها
فما فاز بالمسك إلا فتى | تيمّم دَارِينَ أودارها
طرحت بميزانها درهمي | فأجرت من الدنّ دينارها
وعدنا إلى هالة أطلعت | على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم | تثور فيقتل ثُوَّارها
وقد سكّنت حركات الأسى | قيانٌ تحرّك أوتارها
فهذي تعانق لي عودها | وتلك تقبّل مزمارها
وراقصة لَقَطَتْ رجلُها | حسَابَ يَدٍ نَقَرَتْ طارَها
وقضْبٍ من الشّمع مصفرّة | تريك من النّار نوارها
تقلّ الدياجي على هامها | وتهتك بالنور استارها
كأنّا نسلّط اجالها | عليها فتمحق اعمارها
ذكرت صقليّةً والأسى | يهيّج للنّفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنّة | فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا | حسبت دموعيَ أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة | بكيتُ إبنَ ستينَ أوزارها
فلا تعظمن لديك الذنوب | إذا كان ربك غفارها

(المتقارب)

ولي :

علّلاني بذكر تلك الليالي | وعهود عهدتها كاللآلي
لست أنسى للحبّ ليلة أنس | صال فيها على النوى بالوصال
غفل الدّهر والرقيب وبتنا | فعجبنا من اتّفاق المحال

ضمّنا ضمة الوشاح عناق بيمين معقودة بشمال
فبردت الحشى بلثم ورود لم يزل بي حتّى خبالي خبّالي
وكؤوس المدام تجلو عروسا اضحك المزج ثغرها عن لال
ويجرّ الدّجى ذوابل شمع عكستْ في الزجاج نور الذبال
والثريا تمدّ كفّا خضيبا أعجمت بالسماك نون الهلال(1)
وكأنّ الصباح إذ لاح سيف ينتضى من غين وميم ودال
ومسحنا الكرى إلى غانيات غانيات بكلّ سحر حلال
في رياض تبسّم الزهر فيها لغمام بكت دموع لال
وجرى عاطر النّسيم عليلا فتهادى بين الصّبا والشمال
فاكتسى النهر لامة منه لمّا ان رمى القطر نحره بالنبال
يا ليالي منّي سلام عليها أتراها تعود تلك الليال

(الخفيف)

ومما يتعلق بذلك قولي وأنا بمراكش :

بحياة ما ضمّتْ عرى الأزرار بذمام ما في الحبّ من أسرار
بالحجر بالحجر المكرم بالصفا بالبيت بالأركان بالأستار
بالله إلا ما قضيت لبانة تقضي بها وطرا من الأوطار
ويكفّ من أشجان صبّ يشتكي جور الزمان وقلّة الأنصار
بلّغْ لأندلُس السّلاَم وصف لها ما في من شوق وبعد مزار
وإذا مررت برُندة ذات المنى والتاج والديموس واللؤزار
سلّم على تلك الديار وأهلها فالقوم قومي والديار دياري

---

(1) علق إبن عبد الملك على هذا البيت بقوله : « أعجمت بالسماك نون الهلال » غلط جرى عليه جمهور الكتاب لأن النون المتطرفة لا وجه لنقطها إذ هي متميزة بصورتها وإنما تنقط مبتدأ بها وموسطة ، وحالها في ذلك حال الفاء والقاف والياء المسفولة ، فإنهن إذا ما تطرفن تميزن بصورهن فاستغني عن نقطهن . إذ الداعي إلى النقط خوف الإلتباس فإذا إرتفع الإلتباس كان الاعجام عبثا وكلفة لا جدوى فيها ، والهلال إنما يشبه بالنون المتطرفة كما يشبه بالراء أول ليلة ، والله أعلم » الذيل والتكملة بقية السفر الرابع ص 138 .

حيث استوت تلك المدينة معصما　　ولوى عليها النهر نصف سوار
وامتدّ في تلك البطـاح أمامـها　　ما شئت من ظلّ وماء جـار
وتنسّمت ريح المنى تلك المنى　　فتبسمت في أوجـه النظّـار
والروض قد سامى السماء لحسنه　　لما ازْدهى بالنهـر والأزهـار
فكأنّ ذاك النهـر فيـه مجرة　　وكأنّ ذاك الزهر فيه دراري
وبسيحةِ العليـا لنـا متنزّه　　فيه مـن الأسماع والأبصار
حيث آنتهت في الحسن كل حديقة　　وجرى النسيم وفاح كل عرار
والغصـن في حركاتـه متحيّر　　بين الغناء وغنّة الأطيـار
ويكـاد قلب الصّب يفنى رقّة　　بين النّشيد ونغمـة الأوتـار
لله كم بتْنا بهـا من ليلة　　وكأنها سحَرٌ مـن الأسحار
ولكم قطعنا الدهر في ظل الصبا　　ما بين اعـذار وخلـع عـذار
عيش تلاعبت الخطوب بعهده　　حتى غـدا خبـرا من الأخبـار
ومعاهد كانت علي كريمة　　لم يبق لي منها سـوى التذكـار
واحسرتا من ذكر أيام الصّبا　　ها قـد بـدا شيبـي فأين وقاري
يا ربّ خذ بيدي من الذنب الذي　　أنا حائر في بحـره الزخار
لا تأخـذ الجاني بمـا هـو اهله　　واغفر بجاه المصطفى المختار

(الكامل)

الادب العربى

La littérature arabe

تأليف : أندري ميكال André Miquel

[سلسلة] « Que Sais-je ? » رقم 1355 ،

باريس P.U.F. ، 1969 ، 128 ص .

تقديم : الطيب البكوش

صدر في الربع الثالث من سنة 1969 كتاب جديد في تاريخ الأدب العربي للسيد « أندري ميكال » وهو من المستشرقين الفرنسيين الشبان ومن ذوي الإنتاج المتنوع تأليفا وترجمة . ونذكر من ذلك خاصة دراساته عن الجغرافيين العرب ونقلَهُ كتاب « كليلة ودمنة » إلى الفرنسية .

ويقع الكتاب فى حوالي مائة وعشرين صفحة ، وهو ما يجعل القارىء يفكّر لأول وهلة في ان من الادّعاء أن يحاول المرء تحليل تاريخ الأدب العربي الذي يمتد على أكثر من أربعة عشر قرنا ، ويشمل العالم الإسلامي الناطق بالعربية شرقا وغربا بما في ذلك الأندلس ، ويتواصل إلى النهضة الحديثة التي ما زلنا نعيش إلى اليوم امتدادها ، في مثل هذا العدد القليل من الصفحات ،

وأن يأتي ذلك بعد نجاح محاولة « شارل بلاّ (1) في كتابه « اللغة والآداب العربية » .

إلا أن القارىء يتفهم الوضع حين يذكر أن الكتاب حلقة من سلسلة « ماذا أعرف ؟ » التي ترمي إلى إبراز الخطوط الكبرى وتحليل المشاكل الأساسية من المواضيع التي تقدمها للقارىء ليحيط بها لا ليتعمق فيها . فهي تمثل بذلك خلاصة متقنة للريّض ومنطلقا جديّا للباحث بفضل ما تثيره من المسائل وما تقدّمه من المراجع . لذا فإنه يحق للأدب العربي أن يُقدّم في مستوى عالمي في نطاق هذه السلسلة ولمثل هذه الغاية إلى جانب غيره من الاداب العالمية .

فقد أصدرت هذه السلسلة من الحلقات الخاصة ببلد معين أو عصر بذاته اثنتين وعشرين حلقة تبحث في آداب اثني عشر بلدا تقريبا . فمن الطبيعي ان تخصّ الاداب العربية بعدد على الأقل ولاسيما بعد أن خُصّ كل من « الإسلام » و« القرآن » ، و« التفكير العربي » و« النحو العربي » بعدد من هذه السلسلة وأرقامها تباعا : 355—1245—915—1257 . وإنّ مثل هذه الأهداف الدقيقة هي التي تجعل مثل هذا العمل عسيرا . وقد كان المؤلف لكل ذلك واعيا ، فاستهل مقدمته بهذه العبارة : « ان الأدب العربي ، إذ يمتد على ثلاثة عشر قرنا وقارتين على الأقل ، لعالم » .

فما هي الوسائل التي لجأ إليها المؤلف لمواجهة هذه الصعاب ، وهل نجح آخر الأمر في تذليلها ؟

بدأ أولا بحصر موضوعه وذلك بالحدّ من مفهوم « الأدب » الذي نجده مطلقا أيما إطلاق عند المستشرق الألماني « كارل بروكلمان » صاحب « تاريخ الأدب العربي » . فقد أرخ فيه صاحبُه لا للاثار الأدبية البحت فحسب ، وإنما كذلك لكل ما هو تأليف وأثر مكتوب . وهذا المفهوم الواسع يكاد

---

(1) Charles Pellat, langue et littérature arabes, *Armand Colin*, Paris 1952, 224 p.

يطابق مفهوم « الأدب » عند العرب في القرون الوسطى كما يجسمه امثال الجاحظ أو أبي حيان التوحيدي .

أما السيد ميكال فإنه تخلّى عمدا عن المفهوم القديم المطلق ، وأخذ الأدب بمفهومه الحديث ، باعتباره يشمل الكتب التي لا يرِد المعنى فيها بدون بحث في مستوى اللفظ ، أي من حيث الأسلوب ، فتكون فيها عملية الكتابة عملية خلق تتجلّى خلالها ذاتية الكاتب . وبديهي ان مثل هذا التحديد يُخرج من حيّز الأدب كلّ نتاج علمي أو يمت إلى العلم بسبب من الأسباب .

ونلاحظ أن هذا التحديد قد جعل المؤلف يهمل الحديث عن اللغة العربية من حيث أصولها ونشاتها وتطورها ، رغم ما لهذا الموضوع من خطر وأثر في الأدب نفسه ، ولذلك أفرد له السيد « بلاّ » مثلا فصله الأول .

ولاريب أن تقسيم تاريخ الأدب العربي إلى فترات زمنية تقليدية — وإن اختلفت عددا فطولا حسب المؤرخين — لَمِمّا يتنافى وأهداف مثل هذا الكتيب ، لما يفرضه تعدّد الفترات من تحليل واهتمام بالجزئيات لاجتناب الوقوع في التعميم المخلّ . لذلك آحتاج المؤلف إلى تقسيم تأليفي كبير الخطوط — وإن خضع للتتابع الزمني نسبيا — فكانت فصول الكتاب أربعة : « الأدب الفاتح » 9—44 ، و« أدب اللقاء » 45—83 . و« أدب الذكرى » 84—95 . و« أدب النهضة » (2) 96—121 وان طرافة هذا التقسيم تتمثل في التسمية المعبرة أكثر منها في ضبط مراحل تاريخية معينة .

ولعل مما يلفت انتباه القارىء ، بل يصدمه أول الأمر ، عدم تخصيص فصل لادب الجاهلية في ظاهر الأمر ، رغم أنه يحوي أبرز مشاكل هذا الأدب ، من حيث ظروف نشاته وتطوّره . فقد استهل المؤلف الكتاب باستعراض الأدب الفاتح ، أي الأدب الإسلامي الذي واكب الفتوحات ،

---

(2) La littérature [Conquérante, des rencontres, du souvenir, de la Renaissance].

فدرس منه خمسة مظاهر : « القرآن » . « الشعر إلى الثلث الأخير من القرن السابع الميلادي » . و « الشعر وبيئته إلى حوالي سنة 725م » . و« الشعر الشامي العراقي زمن الأمويين » . و« شعر الغزل في العصر الأموي : تأثير الحجاز » .

ويعلل المؤلف بدءهُ بالقرآن رغم أسبقية الشعر بأهمية القرآن ، إذ هو أول أثر أدبي عربي منظم ، وبأن أغراض الشعر الجاهلي لم تتغيّر كثيرا بظهور الإسلام وإنما تواصلت أربعين عاما بعد وفاة الرسول ، ولم تطرأ عليها إلا تغييرات سطحية .

ولقد كان القرآن المنطلق الحاسم للنثر العربي ، وهو ما جعل المؤلف يتبين من خلال تنوّع أساليب القرآن ، اتجاهات النثر العربي في القرون الموالية فحصرها في ثلاثة : « النثر العلمي أو الخالي من السجع » و« النثر الأدبي الفني ، أو المقتصد في السجع » و« نثر الفن للفن ، أو المفرط في السجع » . ويستعين المؤلف بهذا التقسيم الشكلي لمزيد ضبط موضوعه ، فلا يحتفظ من هذه الأنواع الثلاثة إلاّ بالاخيرين لخروج الأول من حيّز الأدب .

وقد واصل المؤلف دراسة النثر الإسلامي في الفصل الثالث رغم أن العنوان خاص بالشعر ، وهي هفوة فيما يبدو لأنه تحدث في الفصل الثاني عن الشعر إلى سنة 670م ، ثم انتقل في الفصل الرابع إلى الشعر الأموي أي من 670 إلى 725م . فالمقصود إذا هو« النثر وبيئته إلى حوالي 725م » . فالفحوى يؤكد ذلك .

ويتبيّن من تحليل المؤلف لنثر هذه الفترة ثلاثة أنواع : « النثر الخطابي » دينيا كان أو سياسيا ، و« النثر الاخباري » في الخرافات والأساطير والقصص والنوادر وما إليها ، و« النثر الحكمي » (3) في الأمثال والحكم خاصة .

أما الشعر فقد شرع في تحليله في الفصل الثاني الذي يمتد إلى حوالي 670 م أي أنه أدمج فيه الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي إلى نهاية عهد الخلفاء

(3) Prose [oratoire, narrative, édifiante].

الراشدين . والمؤلف محقّ في هذا الدمج لأنه لم يطرأ تغيير عميق يذكر إلى نهاية هذه الفترة .

ويمثل هذا الفصل نظرة تأليفية حـلّلت أثناءها « القيم العربية » التي تضمنها الشعر العربـي تحليلا منظما ، ويمكن إرجاعها إلى المحاور الآتية : القيـم الجاهلية القبلية . مكانة الشاعر في القبيلة . أغراض الشعر الجاهلي . بناء القصيد فنيّا . ابرز شعراء هذه الفترة .

أما فترة الشعر الثانية فتمتدّ من سنة 670 إلى 725م أي قبيل سقوط الخلافة الأموية . وقد حلل المؤلف تأثير السياسة في هذا الشعر من حيث مواضيعه وتأثير القوالب الجاهلية فيه من حيث أساليبه الفنية ، وذلك باستثناء شعر الغزل الحجازي الذي أفرد له الفصل الخامس الأخير من الباب الأول ، لما امتاز به من نزعة تجديدية واضحة ولاسيما من ناحية اللغة والأسلوب . وهو بذلك يمهد للفترة الثانية الهامة من تاريخ هذا الأدب وهي فترة « اللقاء » وتلاقـح الحضارات في العصر العباسي . لذلك سمـى المؤلف الباب الثاني من الكتاب « أدب اللقاء »

فهو فعلا لقاء بين الأدب العربـي ومظاهر الحضارة الفارسية ، والتفكير اليوناني ، وكذلك بعـض مظاهـر الحكمـة الهنديـة ، وغيـر ذلك من العناصر الحضارية الفرعية . وقد انصهر كل ذلك في بوتقة الإسلام ، وكانت اللغـة العربية أداة تعبير هذه الثقافة الإسلامية الجديدة .

وقد قسم المؤلف هذا الباب الهام إلى أحد عشر فصلا ، خمسة منها للشعر وهي : « الشعر في عهد الخلافة العباسية » بمثابة التوطئة . و« شعر المتعة » . يتغنى فيه أصحابه بلذتي الجمال والخمر ، وامتاز به العراق خاصة ، و« الشعر التقليدي » وهو الشامـيّ المـتنبَّتِ ، ازدهر في كنف الحمدانيين المتشبثيـن بالخصائص العربية والمدافعين عن حوزة الإسلام ضدّ الروم البيزنطيين ،

و« الشعر الاخلاقي الديني » المصطبغ حينا بالفلسفة وحينا آخر بالتصوّف . و« الشعر الأندلسي » وقد مرّ به المؤلف مرّا سريعا مشيرا إلى أبرز ممثليه ، وختم بإثـارة مشكلة تأثيره في بعض ألوان الادب الشعبي الأوروبي .

أما بقية فُصُول هذا الباب الستة فهي تبحث في النثر بمختلف أنواعه ، والفصل الأول توطئة تضبط البيئة وظروف تطـوّر النثر العربي . أما الثاني فهو خاص بالنثر الأدبي أو « الأ دب » بمفهومه الإسلامي الواسع . وهو مدين للكتاب الفرس ومن تبعهم من المترسّلين . وقد واصل المؤلف تحليـل « الأدب » في الفصل الثالث ، ولكنه ركزه على نواحي أخرى منه ، كالنقد ، وكذلك التاريخ لمتانة صلته بالأدب في الإسلام . أما « الجغرافيا » فقد أفرد لها الفصل الرابع .

ولئن تحدث المؤلف عن كل أنواع هذا العلم الذي ازدهر لحاجة كتاب الدواوين إليه لمعرفة الحدود والثغور وجمع الخراج وتنظيم البريد ، فإن ما يتصل منه بالأدب أكثر من غيره ، ليس الجغرافيا العلمية التي تهتم بضبط « صورة الأرض » أو« المسالك والممالك » ، وإنما هو « أدب الرحلات » خاصة ، وإن حافظت الأنواع الأخرى على روابط عديدة بالأدب ، ولاسيما من حيث أهدافها ولغتها أحيانا .

وقد يَعجب القارىء لإفراد المؤلف قسما للجغرافيا دون التاريخ مثلا ، بينما يبدو العكس أقرب إلى الواقع ، ولاسيّما أن المؤلف اهتم بتقديم صورة تأليفية محكمة عن الجغرافيا العربية أكثر مما اهتم ببيان صلة هذا الفن بالأدب . ولعل سرّ ذلك يكمن في اختصاص السيد « ميكال » في دراسـة الجغرافيـا الإسلامية ، إذ كانت موضوع أطروحته (4) . وطبيعي أن يتوسع المرء نسبيّا في ما يحب .

A. Miquel, La géographie humaine du monde musulman, Paris - la Haye, 1967.

وقد خصّ المؤلف « النثر المسجّع » بالفصل العاشر رغم أن السجع ظاهرة تتفاوت بروزا في كل أنواع الأدب الأخرى ، لأن هذا اللون من النثر يمتاز باهتمامه المفرط بالقالب والأسلوب على حساب المضمون أحيانا ، فتصبح معه اللغة غاية لذاتها ، بينما هي وسيلة تعبير قبل كل شيء . وقد حدث ذلك بتدرج يتضح لنا خاصة في تطور فن المقامة الذي اقتصر عليه المؤلف ، فأهمل قالبا آخر هاما في هذا المجال هو فن الترسل ، ابتداء من القرن الرابع الهجري خاصة .

ولم يهمل المؤلف نثرا آخر لم يكن في عصره مما يؤبه له كثيرا في المستوى الرسمي ، ولكنه اليوم يعدّ عظيم الأهمية ، وهو « الأدب الشعبي » الذي نجد بعض آثاره عند الجاحظ وفي مواضيع بعض المقامات ، ولكنه يتجسّم بوضوح أكثر في أخبار بعض الرحّالة (العجائب) وفي خيال الظل (وهو لون مسرحي) وفي كثير من الأخبار والنوادر والخرافات والقصص (كقصص العشاق أو قصص الأبطال بتأثير الحروب الصليبية) وغير ذلك مما كان نافقا لدى الخاصة والعامة وإن لم يكن كله مدوّنا .

وإن حركة التدوين الشامل لأبرز مظاهر المرحلة الثالثة من تاريخ هذا الأدب ، ولذلك عبّر عنها المؤلف بمرحلة « أدب الذكرى» وهي موضوع الباب الثالث من الكتاب .

وتمتد هذه المرحلة على ستة قرون تقريبا من سقوط بغداد إلى فجر النهضة الحديثة ، وهي الفترة التي خضع فيها العالم الإسلامي للحكم التركي . ويحسن التذكير بأن هذه الفترة هي التي يميل المؤرخون إلى وصفها بمختلف النعوت المشينة مثل عصور (الإنحطاط ، والظلمات ، والتقهقر والجمود ...) وكل ما يدل على أفول نجم الحضارة الإسلامية ولغتها العربية .

وان طرافة هذا الباب تتمثل في أن المؤلف لم يشأ أن يُردّد مثل هذه النعوت — وإن لم يذكر ذلك — وحرص على أن يبيّن أن هذه الفترة لا تقل أهمية عن

العصور الأخرى . فلئن كانت أقل خلقا وابتكارا ، فإنها كانت فترة جمع وتدوين وتبويب وحفظ للتراث الأدبي العربي من التلاشي والضياع نتيجة ما أصاب العالم الإسلامي من تلاش سياسي وحضاري إذ كان سقوط بغداد أمام هولاكو في منتصف القرن السابع الهجري ضربة قاضية للحكم العربي ، وتبعا لذلك للغة العربية وآدابها .

وبفضل مجهود علماء العربية في هذه الفترة ، لم تمت اللغة العربية وحضارتها ، إذ كان الهدف من عملهم البقاء والإستمرار ، فالجمود المؤقت وتهيئة أسباب النهضة حين تصبح الظروف ملائمة خير من الموت والإستسلام لعسف الزمن .

لذلك كان أبرز ما تمتاز به هذه الفترة تدوينَ اللغة في مَعَاجِمَ ضخمة من نوعِ لسان العرب لابن منظور ، والكتابةَ في شتّى المواضيع جمعا وتاليفا ، وقد برّز في ذلك السيوطي خاصة ، وضبط الفهارس ، كما فعل حاجي خليفة ، وجمعَ تراجم الأعيان ، مع ابن خلكان ، والأدباء ، مع ياقوت ؛ وحتّى الجغرافيا ، فإنها خضعت لنظام المعاجم مع ياقوت أيضا . وليس من الصدفة كذلك أن تدوّن أضخم رحلة في هذه الفترة وهي رحلة ابن بطوطة .

وفي هذه الفترة أيضا كثر تدوين الأدب الشعبي بعد أن كان العلماء لا يأبهون عادة إلا لأدب الخاصة الارستقراطية . فدُونت القصص والسير والأساطير وما إليها ، وخرجت بذلك من طور المقول إلى طور المكتوب ففرضت نفسها في مجال الثقافة والأدب .

وإن مثل هذا التراث الضخم ليدعو إلى التأمل والتفكير . وإذا أضفناه إلى الرجّات السياسية التي هزت العالم الإسلامي ، فجعلت الدول تتعاقب ، والأجناس والعصبيات تتوالى في مختلف أقاليمه ، أدركنا أن كل ذلك هو الذي أوجد مفكرا عظيما من طراز ابن خلدون الذي استوعب تلك الثقافة الإسلامية

وهضمها بذكاء ، واتخذ منها مادة تفكيره ، فأنتج ما يكاد يكون خلاصة التفكير الإسلامي . فظهور ابن خلدون في هذه الفترة ليس شذوذا كما قد يتبادر إلى ذهن البعض رغم الفراغ الذي يبدو محيطا به .

كل هذا يستنتجه القارىء من هذا الباب الثالث ومن الفصول الثلاثة التي يتفرع إليها وهي : « النزعة الموسوعية » و« انماط طريفة من الجغرافيا — والتاريخ ، ابن بطوطة وابن خلدون » و« الحكايات والقصص » . وبديهي أن هذا المجهود الضخم ، الرامي إلى حفظ التراث الإسلامي ، من شأنه أن يهيء للنهضة السبيل . وفعلا ، فإن النهضة الحديثة قد تمّت في معظم العالم الإسلامي — إلى جانب عوامل عديدة أخرى — بفضل اكتشاف كنوز هذه الثقافة .

ويمثل « أدب النهضة » الباب الرابع الأخير من هذا التأليف . وقد شبّه المؤلف عصر النهضة في الفصل الأول من الباب ، بمسرحية ذات مقدّمة — هي غزوة « بونابرت » لمصر — وأربعة مشاهد يبدأ الأول منها مع « محمد علي » في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويتواصل الثاني إلى الحرب العالمية الأولى — ويطغى عليه الافغاني وعبده وأضرابهما — وينحصر الثالث في ما بين الحربين . وقد تخلّص فيه العالم العربي من السيطرة التركية ليخضع للسيطرة الأوروبية . ويبدأ المشهد الأخير بعد الحرب الثانية ويتواصل إلى يومنا هذا ونشهد فيه محاولات الاستقلال السياسي ، ثم اليوم محاولات الاستقلال الاقتصادي والثقافي .

ويبحث الفصل الثاني ، في نطاق هذا الإطار ، في وسائل تعبير الأدب الذي أنتجته هذه الفترة : وابرزها الصحافة والكتابُ والتعليم والإذاعة والتلفزة والسنما . أما أداة التعبير ، فهي التي أثارت جدلا عنيفا لم ينته بين أنصار العربية القديمة واللهجات الحديثة ، وما يتفرّع عن هذه المواقف المتطرفة من حلول وسطى عديدة متنوعة . وقد حلل المؤلف هذا المشكل وما نتج عنه من الاختيارات الأدبية بدقة واسهاب .

أما الفصول الأخيرة . فيبعث أولها – وهو ثالث الباب – في الشعر . وأسلوب المؤلف فيه شاعري بدوره ولاسيما في تحليله مكانةَ الشعر في المجتمع العربي إطلاقا .

وينتهي هذا الباب بدراسة النثر ، نثر المقالات والمسرح في الفصل الرابع ونثر الرواية والاقصوصة في الفصل الخامس الأخير .

ويندرج في النوع الأول المقالات والخطب السياسية لأنها كانت فعلا محاولات لإيجاد لغة عصرية مفهومة ، وهي نفس اللغة التي لجأت إليها أنواع الأدب الأخرى في غالب الأحيان .

وألحّ المؤلف على بيان اثر الترجمة واثر التيارات الأدبية الغربية التي تعاقبت في أوروبا ممتدة على قرون ، بينما لا يمتدّ تعاقبها في الشرق الا ّ على سنوات قليلة ؛ لذلك نجدها تجتمع في المسرح عند « توفيق الحكيم » ، وفي القصة عند « نجيب محفوظ » ، من استلهام التاريخ إلى تصوير الواقع وإلى الانطلاق إلى ما فوق الواقع ولاسيما بعد الحرب الثانية .

أما صفحة الخاتمة ، فكأنما جعلت للباب الأخير وحده . إلا أنها على اقتضابها ترتكز على مسألتين أساسيتين : الاختيارات اللغوية والاختيارات الأدبية . فهي بذلك تنفتح على المستقبل لتربط مصير الأدب العربي بمصير الأمة العربية .

ويمكننا في الختام أن نلاحظ أن السيد ميكال قد وفق في تذليل أهم الصعاب التي أشرنا إليها في الأول بفضل حسن الاختيار – أي حسن التضحية والإهمال – أمام تعدّد الأسماء وطول الزمن ، وكذلك بفضل حسن اختيار الخطوط الكبرى ، وإرجاع الجزئيات إلى كليات تمتاز بالشمول وحسن التأليف . وتتجلّى هذه الميزة بصفة أوضح في نزعة المؤلف إلى جمل أو عبارات مقتضبة تميّز عصرا أو أديبا بإبراز أهم خصائصه في شكل يشبه الحقيقة العامة . وكثيرا

ما يكون ذلك بأسلوب تقريري : من ذلك جعل الخلافة الأموية تتخلص من الناحية الثقافية في ثلاث كلمات : التعريب ، والعروبة ، والاقليمية الشاميـة (ص 27) . ثم يحللها بعد ذلك وكأنما هي فرض يتلوه تدليل وتحليل .

وأظن أن الكتاب جدير بتحقيق الهدف منه ، إذ يقدّم للأجنبي المتطلع إلى معرفة الأدب العربـي من أقرب السبل صورة شاملة ، تبرز له الخصائص وتعرفه بأبرز الأعلام . وإنه لَيفيد العربـي أيضا من غير ذوي الاختصاص ، بتمكينه من الربط بين مختلف العصور والتيارات الأدبية بصفة محكمة واضحة . وهو لذلك خليق بـان يُعرَّب لمن لا يستطيع التمتع به في لغته إذ أن فرنسيته تمتاز بكثير من الثراء والأناقة .

أمّا القـارىء المختص بعض الإختصاص ، فلا يمكن أن ينتظر منه توجيها منظما للبحوث الأدبية ، أو ضبطا لمواطن النقص في البحوث الأدبية العربية ، إذ لم يؤلَّف لمثل هذا الهدف .

ط. ب.